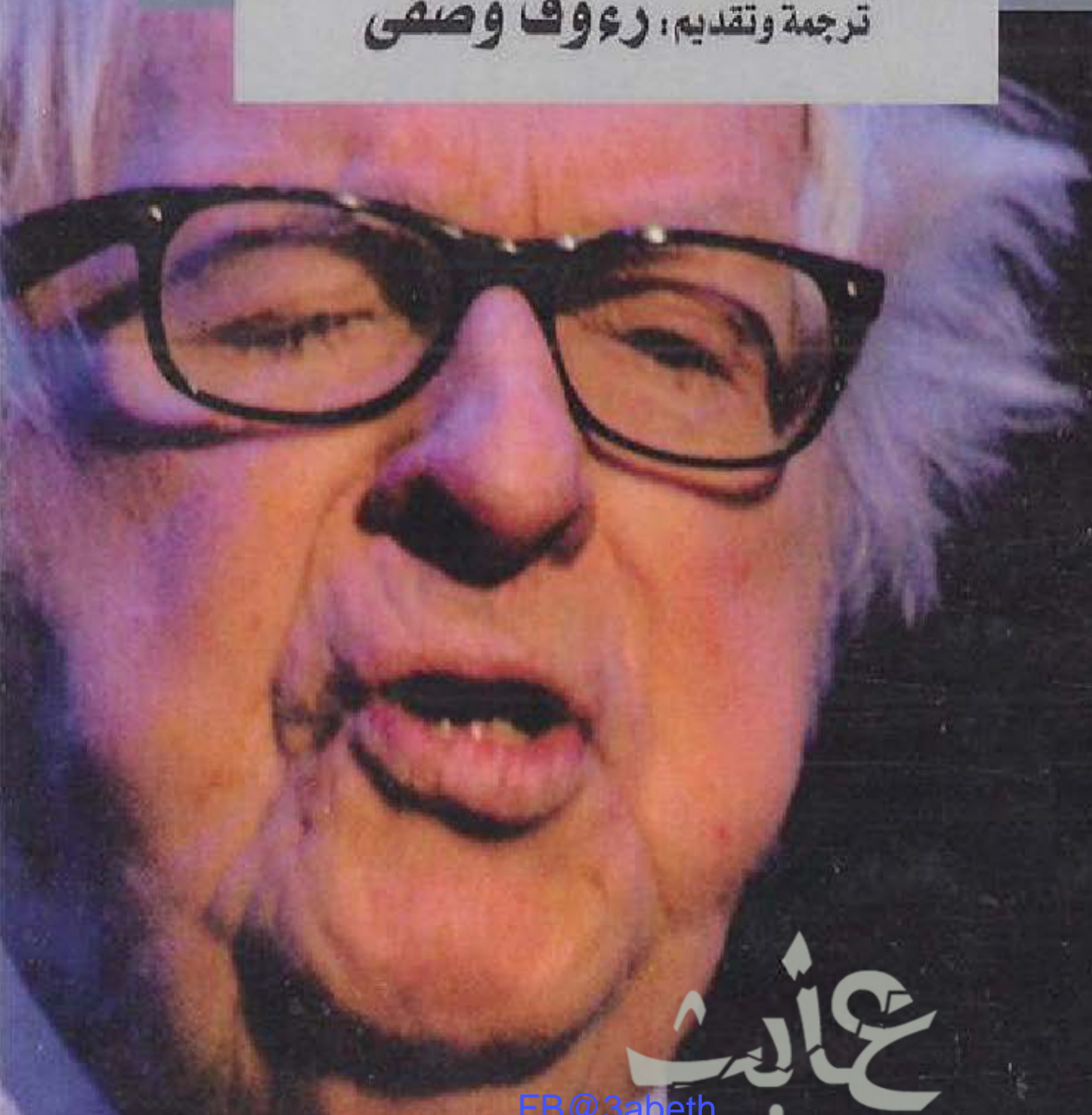


راي برادبوري القصص القصيرة

المجلد الأول (٣)

ترجمة وتقديم: رءوف وصفى



عنايت

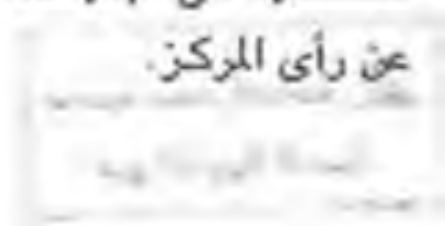
رای برادبوری
القصص القصيرة
(المجلد الأول)
(۳)

ترجمة وتقديم : رءوف وصفی



<p align="center">بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية</p>	
<p>برادبوري، راي (١٩٢٠-٢٠١٢) القصص القصيرة: راي برادبوري (المجلد الأول - ج ٣) ترجمة وتقديم: رؤف وصفي ط ١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤ ٢٦٨ ص، ٢٠ سم ١- القصص الأمريكية القصيرة ٢- القصص القصيرة (أ) وصفي، رؤف (مترجم ومقدم) (ب) العنوان</p>	<p>٨٢٣</p>
<p>رقم الإيداع ٢٠١٤/٥٩١٨ الترقيم الدولي (7-682-718-977-978-L.S.B.N.) طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>	

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.



المحتويات

٢٨-	صوت الرعد	7
٢٩-	القاتل	39
٣٠-	ساحرة الربيع	56
٣١-	الفتى الخفى	75
٣٢-	الطائرة الورقية الذهبية والريح الفضية	94
٣٣-	نفير الضباب	106
٣٤-	المباراة الكبرى بين السود والبيض	123
٣٥-	التطريز	145
٣٦-	التفاحات الذهبية للشمس	154
٣٧-	محطة توليد الطاقة الكهربائية	170

189 ٣٨- ترحيب ووداع
205 ٣٩- العالم القسيح الواسع هناك
232 ٤٠- الملعب

صوت الرعد

بدا أن اللوحة التي على الجدار البلوري.. ترتعش في نبضات متتالية..
وكأنها تحت طبقة رقيقة من المياه الدافئة.. التي تنساب عليها..
شعر (إيكلز) بأن جفنيه يطرفان لا إرادياً، بينما كان يحدق
في اللوحة التي تألفت كلماتها في هذا الإظلام اللحظي

شركة السياحة عبر الزمن
رحلات إلى أي عام مضى
حدد الحيوان الذي تريد صيده
ونحن نأخذك إلى الزمن الذي يعيش فيه
ثم تقوم بصيده،

تجمع البلغم الدافئ في حلق (إيكلز)، فابتلعه ودفعه إلى أسفل،
وكونت العضلات حول فمه ابتسامة، بينما كان يرفع يده ببطء في الهواء،
ويلوح بشيك بمبلغ عشرة آلاف دولار للموظف القابع خلف المكتب، قائلاً له:
"هذا هو أجر الرحلة، هل تضمنون رجوعي سالماً من الماضي؟".

رد الموظف قائلاً: نحن لا نضمن شيئاً، إلا صيد الديناصورات تسلم الشيك ودار بمقعده، ثم أشار إلى شخص يقف بجانبه وأردف قائلاً: ... هذا هو السيد (ترافس)، قائد الرحلة ودليلك إلى الماضي، سوف يحدد لك الديناصور الذى تصيده وكذلك أين تطلق النار عليه. وإذا قال لك لا تطلق النار، فعليك أن تتبع تعليماته بكل دقة، وإلا تعرضت لغرامة - بحسب القانون الحكومى - تبلغ عشرة آلاف دولار أخرى، إضافة إلى عقاب محتمل تفرضه الحكومة ضدك.

جال (إيكلز) ببصره عبر الحجرة الواسعة فوجدها فى حالة يرثى لها من القوضى، حيث تمتد أسلاك معدنية وعلب من الصلب، وسط وهج وماض يتأرجح ما بين اللون البرتقالى والفضى والأزرق. كما كان هناك ما يشبه المشعة الهائلة للزمن، كل السنوات والتقاويم والساعات، كلها تنكس عالياً حيث تتأجج فيها النيران، وبمجرد لمسة يد، تنطفىء النيران لحظياً.

وتذكر (إيكلز) أسلوب التعبير فى الإعلانات، بل كل حرف فيها: من بين المواد المتفحمة والرماد والتراب والفحم، مثل السلمندرات^(١) الذهبية. تندفع السنوات الماضية والمستقبلية، وتشاهد الورود التى تعطر الهواء، ويتغير لون الشعر الأبيض إلى الأسود الفاحم، وتختفى التفضنات ويرجع كل شئ، فى لمح البصر إلى أصل الحياة، وتعود حالات الموت إلى

(١) مخلوقات أسطورية تشبه السحالي يقال بأنها قادرة على الحياة فى النار. (المترجم).

بداياتها وتشرق الشمس في السماوات الغربية المهيبة وتغرب في
السماوات الشرقية الرائعة وتتدمج الأقمار على غير العادة. وتتداخل
الكواكب في بعضها البعض كالصناديق الصينية المتداخلة وتعود
الأرانب إلى القبعات^(٢).

ويعود كل شيء إلى لحظة ميلاده وأصل وجوده، وترجع الحياة
إلى زمن ما قبل بدايتها، كل ذلك يحدث بلمسة يد واحدة، على أزوار
آلة الزمن.

همس (إيكلز) مبهوراً ولاهتاً وعيناه تلمعان انفعالاً وإثارة وأضواء
آلة الزمن المتألقة تنعكس على وجهه النحيل "يا للعجب! آلة زمن حقيقية!"

هز رأسه وأردف قائلاً: "... إن السفر في الزمن يثير تفكير
الإنسان في عدة أمور. فلو كانت الانتخابات بالأمس قد سارت على نحو
يخالف التوقعات، لربما كنت هنا الآن أسعى إلى الهروب من النتائج
المحتملة. أشكر الله أن الرئيس (كيث) هو الذي فاز. سوف يكون رئيساً
رائعاً للولايات المتحدة".

قال الرجل القابع خلف المكتب "نعم. لقد حالقنا الحظ. فلو كان
(ديوتشر) هو الذي فاز بالرئاسة، لتحملنا أسوأ أنواع الديكتاتورية.
إذ إن نظامه معادٍ لكل إنسان، فهو مستبد، مضاد لتعاليم المسيح،

(٢) حيلة معروفة يلجأ إليها بعض المشعوذين. (المترجم).

مقاوم لكل ما هو إنسانى، وفكرى وعقلانى، لقد اتصل بنا العديد من الناس وكانوا لا يمزحون بل كانوا جادين. وقالوا بأنه إذا أصبح (ديوتشر) رئيساً، فإنهم يريدون الذهاب والحياة فى عام ١٤٩٢ ميلادية^(٢). وبالطبع هذا يخرج عن نطاق عملنا، فلستنا نعد رحلات للهروب من زمن إلى آخر، بل يقتصر نشاطنا على القيام برحلات للصيد فى الأزمان المختلفة. وعموماً، لقد أصبح (كيث) رئيساً، إن كل ما عليك التفكير فيه الآن...

أكمل (إيكز) له الجملة قائلاً "... هو صيد الديناصورات".

قال الموظف بصوت يذل كل جهد.. ليجعله متهدجاً.. نابضاً بالحرارة بل نوع محدد منها.. (الثيرانوصور ركس).. سحلية الرعد.. أشرس وحوش التاريخ. والآن عليك بتوقيع هذا الإقرار.. الذى ينص على أن أى شىء يحدث لك، لن نكون مسئولين عنه.. إن تلك الديناصورات نهمة.. ولا تشيع..

جفل (إيكز) واحمر وجهه وقال غاضباً: "أحاول أن تخيفنى؟".

قال الموظف بسرعة بصراحة.. أجل.. إننا لا نريد أى شخص أن يذهب إلى هذا الزمن الموغل فى القدم.. فترتعد أوصاله عند رؤية هذه الوحوش المروعة.. وإطلاق أول رصاصة عليها.. ففى العام الماضى قتل

(٢) العام الذى اكتشف فيه (كريستوفر كولبس) أمريكا (المترجم).

سقة قيادة رحلات وأثنى عشر صياداً ، تريت لبرهة ثم استرسل قائلاً :
إننا موجودون هنا .. لإعطائك أقصى إثارة ممكنة .. يبحث عنها كل
صياد حقيقي .. رحلة إلى فجر التاريخ .. ستين مليون عام من الماضي ،
لكي تصيد أعظم الحيوانات في جميع العصور ، الديناصورات ..
صمت لعدة ثوان ثم استطرد قائلاً : " .. إن الشيك الخاص بك
ما زال هنا ، مرقه إذا أردت

نظر السيد (إيكلز) إلى الشيك لمدة طويلة وارتعدت يداه بحركة
تشفعية ثم قال بإصوار :سوف أذهب لصيد الديناصورات ..

رد الموظف القابع خلف المكتب قائلاً : "حظاً سعيداً .. وصيداً موفقاً "

ثم التفت إلى قائد الرحلة وأردف بقوله يا سيد (ترافس) :
اصطحب السيد (إيكلز) إلى آلة الزمن ..

سار (ترافس) و(إيكلز) في صمت عبر الغرفة الواسعة ، بعد أن
اختارا بندقيتين من خزانة ضخمة .. متجهين إلى آلة الزمن بمعدتها
الفضى وأضوانها المبهرة .

في البداية كان نهار تلاه ليل ، ونهار ثم ليل و بعد ذلك نهار - ليل
- نهار - ليل في تعاقب سريع للغاية ، أسبوع ، شهر ، عام ، عقد . عام
٢٠٥٥ بعد الميلاد ، عام ٢٠١٩ ، ١٩٩٩ ، ١٩٥٧ ؛ وتتوالى السنوات
رجوعاً إلى الماضي ، وآلة الزمن تهدر في صخب ..

وضعوا أقنعة الأكسجين واختيروا مدى صلاحية أجهزة
الاتصال الداخلي.

اهتز (إيكلز) فوق المقعد الجلدي المبطن، كان وجهه شاحباً وفكه
متصلباً. أحس بذراعية ترتعشان، بيد أن يديه كانتا متشيعتين بقوة.
بالبنديقية الجديدة. كان معه أربعة رجال في آلة الزمن، (ترافس) قائد
الرحلة، ومساعدة (ليسيرانس) وصيادان آخران هما (بيلنجز) و(كرامر).
جلسوا صامتين ينظرون إلى بعضهم البعض، والسنون تمرق من حولهم
بسرعة وباستمرار.

تساءل (إيكلز) في حيرة: "هل يمكن لهذه البنادق أن تقتل ديناصوراً؟"
ونظر إلى بنديقيته في شك.

رد عليه (ترافس)، من خلال جهاز الاتصال في خوذته الشفافة،
قائلاً بالطبع، إذا أصيقت بدقة في مكان معين بجسمه، إذ إن لبعض
الديناصورات عقليين، أحدهما في رأسها، والآخر بعيداً أسفل العمود
الفقرى. وعلينا الابتعاد عن هذين العقليين في البداية، حتى لا نتعرض
إلى أية أخطار! تربت قليلاً ليتأكد من استيعابهم لهذه المعلومات المهمة،
ثم أردف قائلاً: أطلق الرصاص الأولى والثانية في عيني الديناصور،
وإذا نجحت فسوف يصاب بالعمى. عندئذ أطلق الرصاص على العقليين،
وهكذا تقضى عليه..".

أصدرت آلة الزمن صريراً أشبه بالعواء، كان الزمن أشبه بشريط
سينمائي يدور عكسياً، غابت شمس وتلاشى خلقها عشرة ملايين قمر.

قال (إيكزن) بدهشة يا إلهي! إن كل صياد عبر الأزمنة
سوف يحسدنا على ما نحن فيه اليوم. إن هذا يجعل أفريقيا تشبه
ولاية (الينوى).

أبطأت آلة الزمن من سرعتها، وانخفض صوت هديرها إلى مجرد
همهمة، ثم ما لبثت أن توقفت تماماً.

كما توقفت الشمس - بدورها - في كبد سماء مليدة بالغيوم.
تبدد الضباب الذي غلف آلة الزمن، وأصبحوا جميعاً في زمن موغل
في القدم، يبعد ستين مليون عام عن زمنهم، قائد الرحلة ومساعدته
وثلاثة صيادين يمسكون ببنادقهم المعدنية الزرقاء فوق ركبهم.

قال (ترافس) إن المسيح لم يولد بعد كما أن موسى لم يذهب بعد
إلى جبل سيناء ليتكلم مع الله جل شأنه. وما زالت حجارة أهرامات
الجيزة متناثرة على الأرض، تنتظر من يقطعها ويشيد بها الأهرامات،
تذكروا هذا، وأن الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون الأول وأولف
هتلر لم يولدوا بعد.

أزماً الصيادون برؤوسهم.

وأستطرد السيد (ترافس) قائلاً وهو يشير بيده إلى الأدغال
المحيطة بهم هذه هي الغاية التي يرجع تاريخها إلى ستين مليون
والفين وخمسة وخمسين عاماً قبل الرئيس (كيث) وتريث برهة ثم قال
وهو يلفت نظرهم إلى ممر معدني يرتفع قليلاً فوق البرية الخضراء،

فوق المستنقعات التي تتصاعد منها الأبخرة، ومخاط نباتات
السرخس^(١) العملاقة وأشجار النخيل.

ثم أوقف قائلاً: ... وهذا هو الممر المعدني الذي أقامته شركة
السياحة عبر الزمن من أجلكم. إنه يرتفع ست بوصات^(٢) عن الأرض،
ولا يمر أبداً ولو ورقة أو زهرة أو شجرة واحدة، والممر مصنوع من معدن
مضاد للجاذبية، والهدف من إنشائه إبعادكم عن لمس عالم الماضي هذا،
بأي شكل، ابقوا دائماً فوق ذلك الممر لا تتركوه أبداً، أكرر: لا تتركوا
الممر أبداً لأي سبب! ومن يترك الممر يتعرض للعقاب حسب القانون
الحكومي. كما يجب ألا تطلقوا النار على أي حيوان دون موافقتي

سأله (إيكلز) بدهشة لماذا؟

جلسوا في القفار القديمة الموحشة. هبت عليهم صرخات الطيور
العملاقة، مع الرياح البعيدة. وليس حولهم سوى رائحة القطران والبحر
القديم المالح والأعشاب الرطبة والزهور الحمراء، والتي بلون الدم.

أجاب (ترافس) بصوت جامد النبرات نحن لا نريد تغيير المستقبل!
كما أننا لا ننتهي إلى هذا الماضي، إن الحكومة لا تريدنا أن نبقى هنا،

(١) من النباتات الوضائية اللازمية ولكن لها جذور وسيقان، تزدهر عادة في المناطق
الإستوائية. (المترجم).

(٢) البوصة تساوي ٢.٥٤ سنتيمتر. (المترجم).

ومن ثم كان علينا دفع أموال طائلة لكي تمنح حق امتياز السفر عبر الزمن،
إن آلة الزمن مشروع بالغ الخطورة، له قواعد صارمة، وإذا لم نلتزم
بها، ربما نقتل حيواناً ثديياً أو طائراً صغيراً أو صرصوراً أو سمكة
أو حتى زهرة يانعة، ومن ثم ندمر حلقة مهمة في سلسلة نمو جنس
من الأجناس.

تسأل (إيكلز) في حيرة: الأمر لا يبدو واضحاً لي.

استرسل (ترافس) قائلاً: حسناً، لنفترض أننا قتلنا - دون أن
نقصد - أحد الفئران هنا، ذلك يعني أن كل السلالة المستقبلية لهذا
الفأر بالذات سوف تنقرض، أليس كذلك؟
تماماً.

إذ بمجرد سحق فأر واحد بقدمك، تفنى عشرات وآلاف وملايين
من الفئران المحتمل أن توجد في هذه الحياة!

قال (إيكلز) والحيرة تبدو في عينيه: ولكن ما الذي يعني إذا
انقرضت هذه الفئران؟

رد عليه (ترافس) بحدة: ما الذي يعني؟.. اسمع.. ما الذي
سيحدث للثعالب التي تتغذى على هذه الفئران لتعيش؟ إن الثعالب يحتاج
لعشرة فئران كغذاء، وإلا هلك.. والأسد يموت جوعاً إذا لم يأكل عشرة
ثعالب.. وبدون الأسد فإن كل أنواع الحشرات والنسور..
وبلايين لا تحصى من صور الحياة، تصيبها الفوضى والفناء!..

صمت للحظات ثم استرسل قائلاً "... وفي النهاية نصل من كل هذا إلى ما يلي: بعد تسعة وخمسين مليوناً من السنوات... يذهب إنسان الكهوف^(٦) - وهو واحد من عشرات فقط في العالم كله - لصيد خنزير بري أو نمر مسيف^(٧) بحثاً عن طعام.. ولكنك - يا صديقي - قضيت على كل الحيوانات البرية في تلك المنطقة، لمجرد سحقك لفأر واحد، ومن ثم فإن إنسان الكهوف سوف يموت جوعاً..

تريث (ترافس) لعدة ثوانٍ بعدها أضاف بصوت خافت "... ولا تنس أن إنسان الكهوف البدائي هذا.. ليس شخصاً واحداً غير ضروري.. وإنما هو أمة مستقبلية بأسرها.. فمن صلبه يولد أبناء وأحفاد.. بالآلاف والآلاف.. وهكذا حتى تتكون حضارة إنسانية.. فإذا قتلت هذا الإنسان، فإنك سوف تدمر جنساً بأكمله، وشعباً وكل تاريخ الحياة..

اتسعت عينا (ترافس) وأردف قائلاً "... إن ذلك يشبه قتل أحد أحفاد آدم، إن سحق فأر واحد بقدمك.. سوف يحدث زلزالاً، قد تغير نتائج أرضنا ومصائرنا على طول الزمن، وإلى بداية الحياة، ويموت إنسان الكهوف هذا.. يخفق بلايين البشر الآخرين - الذين لم يولدوا بعد - في أرحام أمهاتهم، وربما لم تكن روما لتشيّد فوق تلال السبع، ولعل أوروبا كانت ستبقى - إلى الأبد - مجرد غابة مظلمة، أما آسيا

(٦) إنسان ما قبل التاريخ الذي عاش في الكهوف. (المترجم).

(٧) نمر مفترس كان يتميز بأسنان نابية علوية طويلة. (المترجم).

فإنها تزدهر وتتعاظم وتنمو، اسحق فخراً وسوف تدمر الأهرامات، اسحق فخراً وسوف تترك بصمتك - مثل الوادي العظيم^(٨) - عبر الأبدية، وربما لم تولد قط الملكة إليزابيث.. ولعل الجنرال (واشنطن)^(٩) لم يعبر قط نهر (ديلاوير)^(١٠)، وربما لم توجد قط الولايات المتحدة، لهذا يجب عليكم توخي الحيلة والحذر، وابقوا فوق الممر المهدى، ويجب ألا تتركوه أبداً.

تشرّد نظرات (إيكلز) ويقول: إذا يجب علينا أن نبتعد حتى عن الحشائش!

أجاب (ترافس) وهو يعتدل في جلسته تماماً: إن تدمير نباتات معينة قد يضيف دالة متناهية الصغر^(١١) للأخطار المحتملة. إن أي خطأ صغير هنا، يتضاعف في غضون سنتين مليوناً من السنين.. بنسب مروعة. وبالطبع يمكن أن تكون نظريتنا خاطئة.. فلعل الزمن لا يمكننا أن نغيره.. أو ربما يتغير فقط بطريقة غير واضحة بشكل مباشر.

(٨) يقع في الجزء الشمالي الغربي من ولاية أريزونا الأمريكية، طوله ٢٤٩ كيلو متراً، وعرضه ١٧٤٠ متراً (المترجم).

(٩) جورج واشنطن (١٧٣٢ - ١٧٩٩) قائد الجيش الأمريكي وأول رئيس للولايات المتحدة (المترجم).

(١٠) يقع في الجزء الأوسط من الولايات المتحدة (المترجم).

(١١) قيم بالغة الضالة (في الرياضيات)، بحيث تعبر عن تغيير دقيق جداً لحالة مثل تغيير صغير جداً في درجة الحرارة أو الحجم (المترجم).

إن قراراً سيئاً هنا، يؤدي إلى اختلال التوازن للحشرات في مكان آخر، وتفاوت في البيئات الحيوانية والنباتية فيما بعد، ومحصول سبب في الأزمنة التالية، وكساد ومجاعة شاملة، كل هذا يؤدي في النهاية إلى تغير في المزاج الاجتماعي من حيث طريقة التفكير والتصرف في البلاد النائية، وربما يؤدي إلى حدوث تغير في نمط الحياة شيء أصغر من هذا بكثير، مجرد نفس رقيق أو همسة أو شعرة أو هبة من غبار الطلع عالقة في الهواء، إن مثل هذا التغير الباليغ الضالة - الذي إذا لم تقترب منه كثيراً - فإني إن تراه بعينيك المجربتين - من يدري؟ من يكون متأكداً أنه يعرف؟ في الواقع أننا لا نعرف، بل إننا نخمن فقط، وإلى أن نعرف على وجه الدقة، هل كان عبثاً بالزمن يمكن أن يحدث هديرًا قويًا أم مجرد أثر ضئيل على التاريخ، يجب أن نكون حريصين للغاية، وكما تعلمون فإن آلة الزمن هذه، وكذلك المسر المعدني وملايسكم وأجسامكم وأسليحتكم، قد تم تعقيمها قبل القيام بالرحلة، كما أننا نتردى خوذات الأكسجين الشفافة، حتى لا تلوث هذا الجو القديم بالكثيريات..

تسأل (إيكز) بصوت مفعم بالحيرة: كيف نعرف الحيوانات التي سوف نصيدها؟

رد (ترافس) يشرح له إنها مميزة بطلاء أحمر.. اليوم قبل أن تبدأ رحلتنا إلى الماضي.. أرسلنا (إيسبرانس) - الموجود الآن معنا - إلى هذا المكان بألة الزمن.. وقد جاء إلى هذا الدهر الجيولوجي بالذات وطارد بعض الديناصورات..

نظر (إيكلز) بعينين متسابقتين إلى (ليسبرانس) وقال: لكي
تدرسها؟. أطرق (ليسبرانس) لبرهة ثم أجاب بتؤدة: هذا صحيح. إنني
أتتبع الديناصورات طوال فترة وجودها على الأرض. وألاحظ أيها
يعيش أكثر أو أقصر. وكم عدد مرات التزاوج بينها، ليس كثيراً، إن
الحياة بالنسبة إلى الديناصورات جد قصيرة، وعندما أكتشف أن أحد
الديناصورات سوف يموت بسقوط شجرة عليه أو يغرق في حفرة هائلة
مملئة بالقطران، فإنني أحذر بالضبط الساعة والدقيقة والثانية..
ثم أطلق عليه قنبلة لونية.. بحيث تترك على جلده بقعة حمراء واضحة.
لا يمكننا أن نخطئها..

تريث برهة ثم أضاف: ... ثم اختار الزمن والنوقيت المناسبين
الرجوع إلى الماضي، ومن ثم يمكننا أن نقابل الديناصور ليس أكثر
من دقيقتين قبل موته المحتوم. ولذا فإننا نقتل فقط الديناصور
الذي لا مستقبل له، والذي لن يتزاوج أبداً بعد ذلك.. أترى كم نحن
حريصون فيما نفعله؟.

قال (إيكلز) بصوت متلهف: ولكنك إذا كنت قد وصلت صباحاً
إلى هذا الزمن الموهل في القدم. فلا بد أنك صادفتنا في طريقك،
ونحن في رحلتنا عبر الزمن! فهل حققت هذه الرحلة نجاحاً؟ وهل عدنا
جميعاً سالمين وعلى قيد الحياة؟.

تبادل (تراغس) و(ليسبرانس) نظرات مختلطة.

ثم قال الأخير "سوف يكون هذا تناقضاً إن الزمن لا يسمح بمثل هذه الفوضى، أن يقابل الإنسان نفسه" وعندما يلوح خطر من مثل هذه الأحداث، فإن الزمن يبتعد".

صنعت (ايسبرانس) عدة ثوانٍ ثم استطرد قائلاً: "مثل طائرة تصطدم بمطبخ هوائي، لقد شعرت بألة الزمن تقفز قبل أن تتوقف بوقت قصير للغاية. أليس كذلك؟ كان هذا بسبب مرورنا في طريق العودة إلى المستقبل، إننا لم نشاهد أى شيء، ومن ثم فليس هناك أية وسيلة متاحة لنعرف ما إذا كانت هذه الرحلة قد حققت نجاحاً، أو تمكنا من اصطلياد الديناصور ذات العلامة الحمراء، أو عدنا جميعاً سالمين إلى زمننا".

افتر ثغر (إيكلز) عن ابتسامة باهتة.

قال (ترافس) بحدة: "توقفا عن هذا الحديث، وليستعد الجميع".

كانوا على أهبة الاستعداد لمغادرة آلة الزمن.

بنت لهم الغاية القريبة شاهقة الأشجار ومتراصة الأرجاء وكأنها تشتمل على العالم كله. وملأت الجو بأصوات كالموسيقى الغريبة، وأصوات كالتي تصدر عن الخيام الطائرة، إنها (التيروداكتيلات)^(١٢)

(١٢) زواحف عملاقة طائرة كانت تعيش في عصر الديناصورات، وكانت تبلغ المسافة بين جناحيها نحو متر ونصف المتر. (المترجم).

التي تحلق في الجو بأجنحتها الرمادية الممتلئة بالتجاويف والمسام،
كانت تبدو كخفاش عملاقة تأتي من كوابيس مروعة، أو لعلها تجسد
هذياناً في ذهن مريض بالحمى!

تارجح (إيكلز) فوق الممر المعدني الضيق، محاولاً حفظ توازنه،
ثم صوب بندقيته بطريقة مرحة، صاح (ترافس) "اللعنة! توقف عن هذا!
لا تصوب بندقيتك حتى لو على سبيل اللهو إذا لم يحدث وانطلقت
منها رصاصة..."

تورد وجه (إيكلز) خجلاً وقال أين (الثيرانوسور ركس)
الذي سوف نصيده؟

نظر (ايسبرانس) في ساعة يده وقال "إنه قريب من هنا. سوف
نعثر على أثره في غضون ستين ثانية، بالله عليكم ابحثوا عن الطلاء
الأحمر الذي على جسمه، لا تطلقوا النار إلا إذا أصدرنا أوامرنا بذلك،
ولا تغادروا الممر المعدني تحت أي ظرفاً".

ساروا إلى الأمام، بينما ربح الصباح تهب على وجوههم

تمتم (إيكلز) قائلاً: "يا له من أمر غريب! بعد ستين مليون سنة من
زمننا هذا، انتهى يوم الانتخاب، وأصبح (كيث) رئيساً للدولة. وكل الناس
يحتفلون بهذه المناسبة. وما نحن أولاء هنا، تائهون عبر ملايين
السنين، بعيداً عن كل هؤلاء، لأنهم لم يوجدوا بعد. وكل الأمور التي
كثيراً ما شغلت تفكيرنا لعدة شهور، أو على مدى العمر كله، لم تظهر
بعد بل حتى لم تتخيلها في عقولنا".

قال (ترافس) بصوت أمر لنواعي الأسان عليك أن تطلق النار
أولاً يا (إيكلز) ثم يليه (بيليجز) وأخيراً (كرامر)

قال (إيكلز) في حيرة لقد اصطدت من قبل تمراً وخميراً برباً
وثوراً وقبلاً ولكن في هذا الموقف - وليساعدني الله - فإنني أرتعد
كصبي

رد (ترافس) بصوت يعبر عن الاندهاش اه

ويقفة توقف الجميع..

رفع (ترافس) يده وهمس في وجل إنه أمامنا على مسافة قصيرة.
يحجبه الضباب عنا ها هو ذا هناك، صاحب الجلالة (التي راو صور ركس)
بكل عظمة

كانت الغابة مترامية الأطراف، ممتلئة بتفريعات الطيور وحفيف
أجنحتها والزقزقات الحادة والخشخشات المميزة لأوراق والغصان
الأشجار والهمهمات الغامضة لحيوانات عملاقة والخبر المستعر
لبحيرات ما قبل التاريخ..

وفجأة.. توقفت كل حركة..

وكأنما أغلق على الغابة.. باب هائل.

وساد الصمت والسكون المروعين..

ثم صدر صوت مثل أشبه بالرعد..

ومن بين الضحايا المتكاثف، على بعد مائة ياردة منهم، ظهر
(التيرانوصور ركس)، سحلية الرعد، أشرس حيوان في التاريخ،

محس (إيكور) بذهول: يا إله السماوات،

قال (ترافس) بصوت خافت حاد: "صه!"

جاء الوحش الجبار بخطو خطوات واسعة، بفرجه الغليظة المزيّنة،
المرنة والمتباعدة.. وطوله يعلو عن نصف الأشجار ينحو ثلاثين قدماً، إله
أسطوري يجسد الشر، ويثير الرعب، كان يثنى مخالبه الطويلة الفتاكة،
بالقرب من صدره الزيتي الضخم، وكل قائمة سفلية من جسمه، تشبه
مطرقة هائلة من الصلب، تزن ألف رطل من العظام البيضاء، مدمجة
في حبال سميكة من العضلات، مغلقة بطيات من الجلد المجعد اليراق،
نبسو كدرع لمحارب رهيب. كان كل فخذ يزن طنّاً من اللحم والعظام
والعضلات الصلبة المتشابكة..

ومن القفص الصدري الجبار بأعلى الجسم، تذاث قائمتاه
الأماميتان البشعَتان.. اللتان تنتهيان بكفين كبيرتين لدرجة أن كلا
منهما، يمكن أن تمسك بإنسان.. وتتفحصه وكأنه دمية.. بينما التفت
العنف الشعباني المروع، وارتفع الرأس الضخم الذي يشبه طنّاً من
الصخور المنحوتة، وكأنه يناطح السحاب،

كان فم (التيرانوصور ركس) مفتوحاً.. يكشف عن سورا من
الأسنان الضخمة التي تشبه الخناجر، أما عيناه الكبيرتان فكانتا

فى حجم بيضة النعامة.. وتوران فى محجريهما خاليتين من أى تعبير
عدا الجوع والشره والنهم..

أغلق الديناصور فمه، وهو يقطب تقطبية مميتة.

وفجأة أخذ يركض ، وعظام حوض وركه تمحق جانبا الأشجار
والشجيرات المتخفضة عديدة الأغصان. وكانت أقدامه ذات المخالب
تقطع التربة الرطبة تاركة أثارا بعمق ست يوصات فى كل مكان يستقر
فيه جسمه الهائل كان يجرى بخطوات رشيقة.. ثابتة.. متوازنة.. على الرغم
من الأطنان العشرة التى تمثل وزنه. نخل الديناصور فى حلبة مغمورة
بضوء الشمس، ويداه الزاحفتان الجميلتان، تتحسسان الهواء..

أخيرا استطاع (إيكلز) أن يتكلم بصوت متحشرج وقمه متشنج:
يا إلهي ما هذا المخلوق المروع؟ إن باستطاعته أن يطالب القمر وينتزعه؟
اهتز جسم (ترافس) من الغضب وقال صه! إنه لم يربنا بعد.

قال (إيكلز) يهدوء كأنه يصدر حكما غير قابل للنقض: لن نتمكن
أبدا من قتله. ويدت البندقية فى يده عاجزة عن فعل أى شئ، تمهل
لعدة ثوان ثم استطره قائلا: لقد كنا حمقى بالقسوم إلى هذا العصر،
إنه أمر مستحيل.

همس (ترافس) بحدة: "أصمت".

قال (إيكلز) فى ذهول: كابوس حى!

عض (ترافس) على شفتيه وأصدر أمراً "إيكلز" استند وتحرك
ببطء إلى آلة الزمن. وسوف نعيد إليك نصف ما دفعت كاجر للرحلة.

فغر (إيكلز) فمه دهشة وقال لم أتصور أن الديناصور سيكون
بهذه الضخامة. لقد أخطأت التقدير، هذا كل ما فى الأمر. والآن لا أريد
أن أكمل الرحلة.

تصلب صوت (ترافس) وهو يقول: لقد وأنا.

هتف (بيلنجز) بصوت مرتفع مرتجف: ثمة طلاء أحمر
على صدره!

رفع (التيرانوصور ركس) نفسه.. فتألق لحيه المدرع مثل آلاف
العملات الفضية الخضراء. كان مكسواً بقشرة لرجة تصدر بخاراً
وبين طبقات الجلد اللزج زحفت حشرات صغيرة فى حركة متعرجة،
بحيث بدا الجسم كله يرتج ويتموج، حتى لو لم يتحرك الديناصور.
زفر بصوت مدو. ثم تحرك جبل اللحم المدرع برأسته النتنة.
وشق طريقه بتؤدة فى البرية.

صرخ (إيكلز) فى هستيريا: "خذونى بعيداً عن هذا المكان. لم
يحدث قط مثل هذا الأمر من قبل. كنت دائماً أعتقد أننى سأعود حياً.
فقد توفر لى أدلاء أكفاء ورحلات آمنة وسلامة من الخطر. ولكن فى هذه
المرّة، أخطأت التقدير. لقد واجهت نداء لى وأعترف بذلك، إن هذا أكثر
مما أحتمل".

قال (ليسبرانس) بقمة انطعاليه: "لا تركض، استقر ببطء، وغدا إلى آلة الزمن واختبئ هناك".

بدا (إيكلز) كفاقد للقدرة على الإحساس أو الحركة الطبيعية. وأخذ ينظر إلى قدسيه اللتين تابيان أن تتحركا. وأصدر صوتاً حلقياً عميقاً يعبر عن العجز.

قال (ترافس) في صوت حاد النبرات (إيكلز) هيا!

تحرك عدة خطوات وهو يطرف بعينه ويجر قدميه يتأقل على الممر المعدني صرخ (ترافس): "ليس من هذا الطريق!"

بمجرد أن سمع الديناصور ذلك الصوت، اندفع بحركة مفاجئة إلى الأسفل، - مطلقاً صرخات مفرعة - بحيث قطع مائة ياردة في أربع ثوان. اهتزت البنادق وأطلقت نيرانها، هبت عليهم من فم الديناصور رياح عاصفة غمرتهم برائحة منتنة من مادة مخاطية ودم قديم.

زار الوحش بهدير مدو، وضوء الشمس يتألق على أسنانه الرهيبة سار (إيكلز) إلى حافة الممر المعدني، دون أن ينظر خلفه، وكانت بندقيته مرتخية في يده، نزل من فوق الممر المعدني، وتوغل في الغابة دون وعي، وغاصت قدماه في المستنقع المغطى بالطحالب الخضراء، كانت ساقاه هما اللتان تدفعانه لا إرادياً للحركة، وشعر بوحدة غريبة بينهما كان يبتعد عن زملائه في هذا العالم الموغل في القدم.

زمجرت الينادق من جديد، ثم ضاع صوتها فى الصرخات شديدة
الاهتياج، والصوت الراعد للثيرانوصور ركس. لف بذيله العملاق الذى
يشبه الرافعة الضخمة وأخذ يوجه به ضربات عنيفة جانبياً، فتأثرت
الأشجار فى سحب من الأوراق والأفرع. ثم دفع بيديه المتألفتين إلى
أسفل فى اتجاه الرجال الذين يطلقون عليه النيران، ليحطمهم ويسحقهم
كأنهم ثمار التوت، وليحشرهم بين أسنانه وحلقه المزمجر ويركز عينيه
اللتين قدتا من صخر، على فريق الصيد، الذين رأوا صورتهم فيها.
فأسرعوا بإطلاق نيرانهم على الجفون المعدنية والقزحية السوداء المنقذة.
وسقط الثيرانوصور ركس.. كصنم هائل من الحجارة، أو كأنه ياز
صخرى أسفل الجبل.

اصطدم جسمه الجبار المكون من اللحم المدرع بالأرض.. كان
صوت وقوعه يشبه دوى الرعد.. وقد اشتبك جسده بالأشجار القريبة.
التي جرّها معه..

تلوى الديناصور بعنف.. فمرق الممر المعدنى..

تراجع الرجال بسرعة فى رعب وابتعدوا قليلاً عن المكان. ضرب
الوحش بجسمه الذى يبلغ وزنه عشرة أطنان فى كل اتجاه من حوله،
بينما كان يعالج سكرات الموت..

وهاجم بقوة وعنف بذيله المدرع الذى يشبه السوط، وتشنّج فكاه
الشعبانيان، ثم خر ساكناً. وانبتقت من حلقه نافورة من الدم. وبدأ أن
كيساً من السوائل، قد انفجر فى مكان ما داخل جسده..

أصاب الصيادين شعور بالتقرُّز من رؤية الدماء المتدفقة من
الديناصور، ووقفوا وهم متوترون ومرهقون..

تلاشى صوت هدير الرعد.. وخيم الصمت على الغابة. بعد سقوط
التيرانوصور ركس، وساد السلام والسكينة في المملكة النباتية الخضراء.
كأنما رحل الشر عن هذا العالم، وبعد انتهاء هذا الكابوس أنبلج الفجر
جلس (بيلتجز) و(كرامر) فوق الممر المعدني، وأفرغوا ما في جوفيهما.
ووقف (ترانس) و(ليسبرانس) والدخان مازال يتصاعد من بندقيتهما.
وهما يلفظان الشتائم والسياب باستمرار.

وفي آلة الزمن استلقى (إيكلز) على وجهه مرتعداً، وكان قد وجد
طريقه إلى الممر المعدني، وتسلق سلالمة آلة الزمن ودلف إلى داخلها.
عاد (ترافس) إلى آلة الزمن ونظر إلى (إيكلز) دون أن يتحدث إليه،
وأخذ لفافة كبيرة من القطن من داخل صندوق معدني، ثم رجع إلى
الآخرين الذين كانوا يجلسون فوق الممر المعدني..

قال (ترافس) وهو يعطيهم لفافة القطن: "نظفوا أنفسكم".

مسح فريق الصيد الدم الذي تناثر على خوذاتهم الشفافة، ثم
أخذوا يلعنون هم أيضاً. أما الديناصور فقد تمدد بلا حراك، كتلة هائلة
- تبدو كأنها تل - من اللحم المتخشب. ومن داخله، أمكن سماع بعض
أصوات الخرير والحفيف والهمهمة، إثر الموت المتتالي لأجزاء جسمه،
وانهيار وظائف أعضائه، والانسكاب الأخير للسوائل داخل فراغات

الجسم من التجاويف إلى الأكياس - التي كانت تمتلئ بالسوائل -
إلى الطحال^(١٢)..

كل شيء ينهار.. وتنتهي وظيفته إلى الأبد..

كان ذلك يشبه الوقوف بجوار قاطرة سكة حديد محطمة أو حفار
بخاري عملاق.. وقت انتشاله من المياه، حيث تنفصل جميع صماماته
أو ترفع يوسائل آلية محكمة..

تصدعت عظام التيرانوصور ركس، وتحطم لحمه اليابس..
بعد أن فقد توارثه وسقط بتأثير وزنه الهائل.

بصوت قوى، حاد ساعده الضعيفان، واستقرا تحته. وانكسرا. ثم
أصبح كل جسمه عبارة عن كتلة جبارة ساكنة بلا حراك، وإن كان
يشوبها أحياناً رعدة خفيفة.

وفجأة سمعوا صوتاً هائلاً آخر، فقد تحطم فرع شجرة عملاق
وسقط من عقدة تثبيته القوية فوق الجذع.. وتهاوى فوق جثة الديناصور،
معلنًا القضاء المبرم عليه..

نظر (ليسيرافس) إلى ساعة يده وقال: ألى الوقت المحدد تمامًا.
هذا هو فرع الشجرة العملاق، الذي كان من المفروض أن يقتل التيرانوصور
ركس، في الأصل.. ثم التفت إلى الصيادين الآخرين (بيلنجر) و(كرامر)
وأردف: "أتريدان النقاط صور تذكارية مع التيرانوصور ركس؟"

(١٢) عضو بالجسم وظيفته تنقية الدم وتخزينه. (المترجم)

قال (كرامر) متسانلاً في تجربة مستريية ماذا تقول؟

رد (ليسبرانس) موضحاً الأمر: إنك لا تستطيع أن تأخذ معك قطعة من لحم التيرانوصور ركس إلى المستقبل.. لتحقق بها كذا ذكر لرحلتك.. إذ يجب أن يبقى الجسد الميت في نفس المكان.. حتى تأتي عليه الحشرات والطيور والبكتيريا، وهذا ما كان مقدراً له في حالة موته بفرع الشجرة، وهكذا يظل كل شيء في حالة توازن بيني...".

صمت للحظات ثم أردف قائلاً: "ولكن يمكننا التقاط صورة تذكارية لكما.. وأنتما تقفان بجانب جثة الديناصور.. فهذا لن يغير شيئاً".

حاول الصيادان أن يفكرا في الأمر.. بيد أنهما فشلا في التوصل إلى أي قرار..

هزا رأسيهما كعلامة للرفض.. وأسلما رماهما.. وتبعاً (ترافس) و(ليسبرانس) على طول الممر المعدني، ثم تهاككا جالسين - وهما منهكان تماماً - فوق الوسائد الوثيرة داخل آلة الزمن.

التفتا ونظرا بتمعن إلى الديناصور المنقوض، الكومة الهائلة الجاثمة على الأرض.. حيث كانت بالفعل بعض الطيور الضخمة الزاحفة الغريبة والحشرات الكبيرة الذهبية اللون.. منهمكة في البحث عن طعام لها.. في طيات اللحم المدرع الذي ينبعث منه بخار خفيف..

صدر صوت مفاجئ من أرضية آلة الزمن، جعلهم جميعاً يجمدون في أماكنهم.

كان (إيكلز) يجلس هناك وهو يرتعد.

قال أخيراً بصوت هامس مرتجف: "أنتى أسف.."

صاح (ترافس) بغضب بالغ: "انهض!"

انتصب (إيكلز) واقفاً بتؤدة..

صوب (ترافس) إليه بندقيته مهدداً وقال بحدة: "أذهب إلى الممر

المعدنى بمفردك.. وإن تعود إلى آلة الزمن.. بل ستتركك وحيداً هناك!"

أمسك (اليسبرافس) بذراع (ترافس) وقال: "انتظروا.."

صاح (ترافس) وهو يبعد ذراعه: "أرجوك لا تتدخل، إن هذا

الأحمق الغبى، كاد أن يقتلنا ونحن نسطاد الديناصور، والآن سبب لنا

كارثة.. انظر إلى حذائه! لقد نزل من فوق الممر المعدنى! وغاص

بقدميه فى المستنقع.."

تريث لبرهة ثم استطرد قائلاً: "...يا إلهى! إن هذا أدى إلى تدميرنا!"

ويعلم الله وحده.. ما الذى فعله بالزمان والتاريخ.. وكم خسرننا!

تأمين بعشرات الآلاف من الدولارات! إننا لا نؤمن على أى شخص يترك

الممر المعدنى

وقد قام (إيكلز) بالنزول عنه! أوه يا له من أحمق ملعون! يجب على

أن أقدم تقريراً رسمياً للحكومة، بتفاصيل ما حدث، وربما يعاقبوننا

بإلغاء رخصة السفر الخاصة بنا.."

قال (كرامر) محاولاً تهدئة الموقف لقد اصق بعض الرجل بخذائه..
هذا كل ما فى الأمر!

صرخ (ترافس) بقمة انفعاله قائلاً: كيف تكون واثقاً! إن كل
شيء يبدو غامضاً فى هذا العالم الموغل فى القدم! ثم وجه حديثه إلى
(إيكلز) الذى كان يقف ساكناً شاحب الوجه، وقال له بحدة بالغة
“(إيكلز)! أخرج من هنا إلى حيث الممر المعدنى!”

تحسس (إيكلز) جيب قميصه بيد ترتعد وقال متوسلاً: “سوف أدفع
أى مبلغ، حتى لو كان مئة ألف دولار!”

حدق (ترافس) فى دفتر الشيكات الذى أظهره (إيكلز) ثم بصق
وقال بحدة أخرج من هنا. واذهب إلى جثة الديناصور بالقرب من الممر
المعدنى، ضع ذراعك حتى مرفقك فى قمه. بعد ذلك يمكنك أن
تعود إلينا.

قال (إيكلز) إن هذا غير عقلانى!

فأجاب (ترافس) بصوت أجوف النبرات: “أيها الغبى! إن الديناصور
ميت، ولا يمكننا أن نترك الرصاصات فى جسده. لأنها لا تنتمى إلى
الماضى، وربما تحدث تغييراً ما. خذ خنجرى لتستخرج به الطلقات!”

تريث برهة ثم أردف مهدداً: “... هذه هى الطريقة الوحيدة.. لتعود
معنا إلى زمننا عام ٢٠٥٥.. وإلا بقيت هنا.. وحيداً!”

دبت الحياة من جديد فى الغاية، بعد أن امتلأت بالخفقات
والهمهمات وصرخات الطيور وأصوات الوحوش

استدار (إيكلز) بتؤدة، لينظر إلى تلك الكومة الضخمة من اللحم
المدرع اليابس، جثة التيرانوصور ركس، هذا التل من الكوايس والرعب..
وبعد مدة طويلة، انطلق متثاقلاً - كمن يمشى وهو نائم - على طول
الممر المعدنى..

عاد بعد خمس دقائق وهو يرتجف بشدة، وذراعا مخصبتان بالدماء
حتى مرفقيه، بسط يديه. وإذا بكل منهما عدد من الطلقات الصلبة،
ثم سقط مغشياً عليه فى مكانه.. وبقي دون حراك.

قال (ليسبرانس): "لم تكن مضطراً لأن تجعله يفعل ذلك"

اقترب (ترافس) من جسم (إيكلز) الفاقد الوعي وقال: "حقاً؟
الوقت مازال مبكراً جداً لنقرر ذلك. إنه على قيد الحياة، ولا أعتقد أنه
سوف يقوم بمثل رحلات الصيد هذه مرة أخرى."

أشار بإبهام يده إلى اتجاه (ليسبرانس) وقال له بصوت مجهود:
"شغل آلة الزمن، ودعنا نعود إلى وطننا وزمننا"

وتوالى السنوات ١٨١٢، ١٧٧٦، ١٤٩٢

فى داخل آلة الزمن.. تطفو أيديهم ووجوههم.. وغيروا ملابسهم
التي كانت تتكون من قميص وبنطال، أفاق (إيكلز) من إغمائه وجلس مع
الآخرين دون أن ينبس ببنت شفة.

حقوق فيه (ترافس) لمدة عشر دقائق كاملة

صاح (إيكلز) بعصبية: لماذا تنتظر إلى هكذا؟ إننى لم أفعل شيئاً

رد عليه (ترافس) ببرود: من يستطيع أن يقرر هذا؟

قال (إيكلز) وهو يفتفض بشدة لقد انحرفت عن الممر المعدنى..

فعلقت بعض الأرواح بحذانى.. هذا كل ما فى الأمر. ماذا تريدنى أن أفعل،
أركع على ركبتى وأبتهل إليك لتسامحنى؟

أجاب (ترافس) فى جفاء وكلمات سريعة (إيكلز) إننى أحذرك..

لو حدث أى تغيير فى المستقبل.. سوف أقتلك! إن بتدقبتى جاهزة.

إننى برى.. فلم أفعل شيئاً!

ومرت السنون من حولهم.. وتراكمت الإحداثيات الزمنية

٢٠٥٥، ٢٠٠٠، ١٩٩٩.

توقفت آلة الزمن.

قال (ترافس): لقد وصلنا إلى زمننا. هيا اخرجوا.

عابوا إلى الغرفة التى انطلقوا منها بآلة الزمن، ولكنها لم تكن

نفس الغرفة التى تركوها وراءهم عندما قاموا بالرحلة. وكان الموظف

ذاته يجلس خلف المكتب نفسه، ولكن كان ثمة اختلاف بسيط جداً لا يكاد

يلاحظ. تطلع (ترافس) حوله بنظرات سريعة وقال بصيوية: كل شىء

على ما يرام هنا؟

قال الموظف: "كل شيء رائع. مرحباً بكم فى الوطن!"

ولكن (ترافس) لم يشعر بالتحرر من التوتر الذى كان يعانى منه، وبدأ كأنه ينظر إلى ذرات الهواء الذى يحيط به، وإلى أشعة الشمس التى تتدفق وتغمرهم عبر النافذة العالية الوحيدة فى الغرفة، ثمّة اختلاف طفيف .. هذا مؤكداً قال (ترافس) بصوت حاد: "(إيكلز) أخرج من هنا، ولا تعد أبداً إلى هذا المكان."

لم يتمكن (إيكلز) من التحرك..

"لقد سمعتنى! فيم تحقق؟"

كان (إيكلز) يتشمم الهواء، فقد كان ثمّة شيء غريب فى الهواء، بلوث كيميائى خفيف للغاية، بحيث يصعب الكشف عنه، إلا عن طريق الحواس اللاواعية التى تحذر من وجوده. كما كان ثمّة اختلاف فى الألوان البيضاء والرمادية والزرقاء والبرتقالية، التى تطلّى بها الجدران ويلون بها الأثاث، كما تصطبغ بها السماء خلف النافذة.. كانت هذه الألوان غريبة غير مألوفة. وكان هناك إحساس عجيب يقتاب (إيكلز)، فقد أشعر بدنه، وأرتجفت يدايه، وأخذت مسام جسمه تتأثر بهذا الإحساس الغامض، وبدأت كأنها تنبض مستجيبة لصوت موسيقى - فوق سمعى - يأتى من مكان ما.

ولابد أن وراء ذلك الجدار، وهذا الموظف الذى اعتراه تغير ما، ويجلس خلف مكتب مختلف قليلاً، ثمّة عالم كامل من الناس والمباني..

لا شك أنه تغير أيضاً! ولكن لا يستطيع أحد أن يحدد - بعد - مدى هذا الاختلاف، إنه يشعر بهذا العالم الغريب يتحرك، خلف الجدران، كما تتطاير قطع الشطرنج بفعل رياح عاتية جافة!

كان الشيء الأكثر غرابة هو تلك اللوحة التي على الجدار البلوري، والتي كان قد قرأها من قبل عندما دخل المكتب في وقت مبكر من هذا اليوم وقبل بداية الرحلة عبر الزمن.

كانت الكلمات قد تغيرت وأصبحت غريبة غير مألوفة.. بلغة غير مفهومة:

شركت الصياحت عابر الزمن
رحلاط إلا أى عم ف المادى
حد الهيون الظى طريد سيده
وناخن نأخظك إلا الظمن الظى ياعيش فه
ثوم تكوم بسيده

شعر (إيكلز) بنفسه يتهاك فوق أحد مقاعد الغرفة.

أخذ يتحسس في اضطراب.. الوحل السميك اللزج على خذائه
ذى الرقبة.. أمسك بكتلة صغيرة من الطين، بيد ترتعد.

قال وقد اشتد وجهه اصفراراً وشحوباً "لا.. ذلك غير ممكن..
ليس شيئاً ضئيلاً مثل هذا.. إنه أمر مستحيل".

إذ كان مدفوناً في كتلة الطين، فراشة ضخمة، رائعة الجمال ذات ألوان خضراء.. وذهبية.. وسوداء.. ولكنها كانت مبعثة تماماً!

صاح (إيكلز) وقد تضرع وجهه احمراراً وقطب جبينه ليس شيئاً صغيراً مثل هذا! مجرد فراشة! تغير العالم كله!

سقطت الفراشة الضخمة على أرضية الغرفة.

مجرد شيء، فأتى.. ضئيل.. أيمنه أن يقلب التوازنات البيئية، ويحدث سلسلة من التغيرات البسيطة، تكبر.. ثم تتضخم وتتعاظم عبر ملايين السنين، أحس (إيكلز) بدوار شديد في رأسه، وتساعل بينه وبين نفسه بأسى والألم يصير قلبه: "الفراشة لا تستطيع أن تغير العالم بهذا الشكل، إن قتل فراشة واحدة لا يمكن أن يكون بهذه الأهمية ليس كذلك؟"

تصيب العرق فجأة من وجهه وأحس به بارداً، وارتعد فمه وهو يقول متسائلاً: "من.. من الذي قار في الانتخابات الرئاسية بالأمس؟"

ضحك الموظف القابع خلف المكتب وقال "هل تمرح؟ لا شك أنك تعرف النتيجة. بالطبع إنه (ديوتشر) ومن يكون غيره؟ ليس ذلك الشخص الضعيف الشخصية (كيث). لدينا الآن رئيس شديد القوة والبأس، تفرق فيه الشجاعة والجرأة!"

توقف الموظف فجأة وقال بلهفة: "يا إلهي! ما الذي ألم بك؟"

أخذ (إيكلز) يتأوه ثم سقط على ركبتيه.. وراح يتحسس الفراشة الذهبية بأصابع مرتعشة.

غمغم متوسلاً إلى العالم.. وإلى نفسه وإلى الموظفين الرسعيين..
وإلى آلة الزمن: ألا يمكننا أن نرجع بها عبر الزمن، ونجعلها تحيا من جديد؟ ألا نستطيع أن نبداً من جديد؟ ألا يمكننا...؟

تريث للحظات ثم أرفق قائلاً: '... لا تقفوا صامتين هكذا..
أخبروني.. أرجوكم...'

لم يتحرك (إيكلز) من مكانه قيد أنملة.. بل أغمض عينيه
وانتظر وجسمه كله يرتعد.

سمع (ترافس) يتنفس بصوت عال في الحجرة الساكنة.
ثم حرك بندقيته وحرر سقاطة الأمان. وصوبها نحو (إيكلز) وضغط
على الزناد..

انطلقت النيران من البندقية.. وكان لها صوت هدير الرعد..!

القاتل

انسابت معه النغمات الموسيقية عبر القاعات البيضاء. وعندما تجاوز باب أحد المكاتب، سمع (فالس الأرملة الطروب)^(١) ويعد أن مر بباب آخر. اندهى إلى سمعه (يعد ظهر إله الزيف)^(٢). وما أن ترك باباً ثالثاً حتى سمع (قبلتي من جديد)^(٣). واستدار إلى ممر متعامد حيث نغمات موسيقى (رقصة السيف)^(٤)، التي أغرقته في لجة من أصوات الصنج والطبول والأوعية المعدنية والمقالى والسكاكين والشوكات والرعد، ويريق صفائح القصدير.

صمت كل هذا، عندما أسرع الخطى عبر حجرة انتظار، حيث جلس سكرتيرة ذات مظهر جميل وجذاب تبتلع مشدوهة بالسيمفونية القامسة لبيتهوفن^(٥). تعتمد أن يتحرك أمامها - مثل يد توضع أمام العيّن - ليجعلها تراه، لكنها لم تره.

(١) من تأليف الموسيقار المجرى "فرانز ليهار" (١٨٧٠-١٩٤٨). (المترجم).

(٢) من تأليف الموسيقار الفرنسي كلود أشيل دييوسى (١٨٦٢-١٩١٨). (المترجم).

(٣) أغنية شهيرة للمغنى الأمريكى "فرانك سيناترا" (١٩١٥-١٩٩٨). (المترجم).

(٤) رقصات تقليدية تستخدم فيها السيوف، وتنتشر في كثير من دول العالم (المترجم).

(٥) من تأليف الموسيقار الألمانى "لودفيج فان بيتهوفن" (١٧٧٠-١٨٢٧). (المترجم).

وهذا طرن جهاز الإرسال والاستقبال الملفت حول معصمه

قال "نعم؟"

جاء صوت من الجهاز هذا (لى) يا أبى. أرجو ألا تنسى مصروفى.

أجل. أجل يا بنى. ولكنى مشغول الآن.

صدر الصوت مرة أخرى من الجهاز: "إننى فقط لا أريدك أن تنسى

يا أبى."

ثم انسابت نغمات سيمفونية "روميو وجولييت" لتشايكوفسكى^(٦)
لتملأ على صوت جهاز الإرسال والاستقبال، ولتندفق عبر القاعات الطويلة.

وتحرك الطبيب النفسى فى المكاتب التى تشبه خلية النحل، وعندئذ
تداخلت النغمات الموسيقية وشابكت، اكتشف أن سترافنسكى^(٧) يتوافق
مع باخ^(٨)، وهابيدن^(٩) يتناقض مع رخماتينوف^(١٠)، شوبرت^(١١) يقضى
عليه بعنف بوك إلينجتون^(١٢).

(٦) "بيتراليتش تشايكوفسكى" مؤلف "موسيقى روسى (١٨٤٠-١٨٩١) (المترجم).

(٧) "إيجور فليوروفيتش سترافنسكى" مؤلف "موسيقى روسى (١٨٨٢-١٩٧١) (المترجم).

(٨) "جوهان سباستيان باخ" مؤلف "موسيقى ألماني (١٦٨٥-١٧٥٠) (المترجم).

(٩) "فرانز جوزيف هابيدن" مؤلف "موسيقى نمساوى (١٧٣٢-١٨٠٩) (المترجم).

(١٠) "سيرجى رخماتينوف" مؤلف "موسيقى روسى (١٨٧٣-١٩٤٣) (المترجم).

(١١) "فرانز شوبرت" مؤلف "موسيقى نمساوى (١٧٩٧-١٨٢٨) (المترجم).

(١٢) "مؤلف "موسيقى أمريكي (١٨٩٩-١٩٧٤) (المترجم).

راح الطبيب النفسى يومئذ برأسه للسكربتيرات اللاتى تندن
والذمعات وللأطباء الذين يصقرون بالألسان، وكلهم مشغولون بعملهم
السباحى.

اتجه إلى مكتبه وتخصص بعض الأوراق مع سكرتيرته كاتبة الاختزال
التي كانت تغنى بصوت خافت للغاية، ثم اتصل هاتفياً بقائد الشرطة
بالدور العلوى. وبعد عدة دقائق تألق ضوء أحمر وامض، وجاء صوت من
هاتحة بالسقف: أرسل السجين إلى غرفة التحقيق رقم ٩.

فتح الطبيب النفسى باب غرفة التحقيق، ودلف إلى الداخل، وسمع
صوت انغلاق الباب من خلفه.

قال السجين مبتسماً: "أذهب بعيداً"

فوجئ الطبيب النفسى تماماً، حين واجهه السجين بهذه الابتسامة.
كان اليوم رائعاً، دافئاً ومشرق الضياء والشمس ساطعة، مما ألقى
ضوءاً زاهياً على غرفة التحقيق رقم ٩، كان الفجر قد انبج وسط
الليل المعتم.

وكان القمر قد ارتفع فى كبد السماء - فى منتصف الليل -
كابتسامة رقيقة.. قال الطبيب وهو مقطب الجبين: "أنا موجود هنا لكى
أساعدك.. كان ثمة خطأ فى الغرفة.. كان قد تردد فى اللحظة التى
دخل فيها.. حدى فيما حوله.. وضحك السجين وقال له: "إذا كنت متعجب
لماذا الجو هنا بالغ السكون، أحب أن أقول لك إننى ركلت المنياح
حتى حطمتها تماماً".

قال الطبيب في نفسه: من الواضح أنه عنيف جداً.

قرأ السجين أفكاره وابتسم ومد يداً رقيقة: وقال: لا، لكن هذا فقط للأجهزة والآلات التي تثرثر بدون توقف.

انتشرت قطع مواسير وأسلاك مذياع الحائط على السجادة الرمادية. بيد أن الطبيب النفسي تجاهل كل ذلك ووضع على شفتيه ابتسامة حارة كاللمبة الكهربائية وجلس في الناحية الأخرى من مريضه في حالة من الصمت غير العادي الذي كان يشبه النذير بهبوب العاصفة. أنت السيد (ألبرت بروك) الذي يسمى نفسه القاتل، أليس كذلك؟

أوما (بروك) برأسه يسرور وقال: قبل أن نبدأ... ثم تحرك بسرعة وهبوءاً لانتزاع جهاز اللاسلكي المعصم من ذراع الطبيب. ثم خياه في أسنانه مثل جورة وطحنه بأسنانه وسمعه وهو يتكسر ثم أعاد مرة أخرى إلى الطبيب المروع شاحب الوجه، كما لو كان فعل له صنيعاً طيباً. وقال له: هذا أفضل.

حدق الطبيب النفسي في الآلة المحطمة وقال: إنك تزيد هكذا من قيمة فاتورة الإصلاحات.

ابتسم المريض وقال: إنني لا أبالي. وكما تقول الأغنية القديمة: لا أبالي بما يحدث لي... قالها وهو يدندنها.
قال الطبيب النفسي: هلا بدأنا عملنا؟

- حسناً.. الضحية الأولى، أو أحد الضحايا الأول، كانت هاتفي..
إنها كانت جريمة بشعة، فقد رميته داخل مفرمة المطبخ.. ثم أوقفت
وحدة التخلص بعدما كانت التهمت نصفه.. يالهاتف التعس الذي
معرض للخنق حتى الموت.. وبعد ذلك أطلقت النار على التلفاز اللعين!

تمتم الطبيب النفسي: آم م م.

- نعم، أطلقت ست رصاصات على شاشته.. لقد كان تحطيمًا
رائعاً رائعاً، مثل تحطم نجفة تسقط على الأرض!

- تصوير رائع!

- أشكرك.. لقد كنت أعلم دائماً بأن أصبح كاتباً..

- هل لديك مانع من أن تخبرني متى بدأت تكره الهاتف لأول مرة؟

- لقد كان يخيفني وأنا طفل.. وأحد أعمامي سماه الآلة الشبح..
لأنه يصدر أصواتاً ليس لها أجسام.. لقد كنت أخاف منه كثيراً جداً..
وعندما كبرت لم أرتج إليه قط.. بدا لي الهاتف دائماً كجهاز غامض لا
يتعامل مع بشر.. إنه يدفع شخصيتك لكي تختفي في أسلاكه.. وإذا كان
لا يريد ذلك، فإنه كان يضع شخصيتك تماماً بحيث لا يصل منها في
الطرف الآخر سوى صوت بارد كئيب.. فهو جهاز يتكون من حديد ونحاس
وبلاستيك، وهو لا يتضمن أي دفء أو حرارة أو واقعية. من السهل أن
أقول شيئاً خطأ في الهاتف، فالهاتف يغير المعنى الذي تريده.. وأول شيء
تعلمته أنك صنعت عبواً لك!.. ثم بالطبع الهاتف مجرد شيء متاح لك

وسيجعلك دائماً على أن تطلب أرقام أشخاص لا يريدون أن يتكلموا
معك. فمثلاً أصدقائي كانوا يكلموننى طوال الوقت، لدرجة أنه لم يكن
يتوفر لى أى وقت لنفسى.

وعندما ينتهى دور الهاتف يأتى دور التلفاز أو المذياع (١٣).
يأتى دور السينما المجاورة لمنزلى.. صور متحركة تعرض باستمرار
وتتخللها إعلانات تجارية عن السحب الركابية المنخفضة الارتفاع.. ولم
يعد المطر يسقط الآن بل رغوة صابون.. وعندما ينتهى دور الإعلانات
عن السحب يأتى دور المطاعم وما فيها.. ثم الموسيقى والإعلانات
التجارية.. ففى الحافلات التى أسقطها للذهاب إلى عملى.. وعندما ينتهى
دور الموسيقى تنهى الاتصالات المكتبية.. ويكمن الرعب كله فى ساعة
معصمى اللاسلكية حيث تتصل بى زوجتى وأصدقائى كل خمس دقائق
بالضبط. فما هو الشيء الرائع فى تلك الوسائل الذى يجعلنا نقول إنها
مفيدة ومريحة للإنسان؟ إن الرجل العادى يفكر.. وما أنا.. الوقت
عين، على يدى.. وفى معصمى هاتف معصمى، فلماذا لا أوقف أى
شخص من نومه بكرة الهاتف؟.. مرحى، مرحى!.. أنا أحب أصدقائى
وزوجتى والبشرية كلها كثيراً جداً، ولكن عندما تتصل بى زوجتى فى
أية دقيقة لتقول لى: "أين أنت الآن يا عزيزى؟" وتتصل بى صديق
ليقول لى: "عندى نكتة رائعة ولكنها بذيئة لأخبرك بها.. يبدو لى أنه كان
شخص ما...".

(١٣) جهاز كان يستخدم قديماً لإعادة مادة صوتية مسجلة على أسطوانات، (المترجم).

- وهنا ينادى شخص غريب ويصيح قائلاً: "هذا استفتاء بالفاكس..
ما نوع العلكة التي تلوكتها الآن؟.. حسناً..".
- "بماذا كنت تشعر خلال هذا الأسبوع؟".
- "لقد اشتعل الفتيل وحدث الانفجار على حافة صخور الشاطئ المنحدرة.. وفي نفس فترة ما بعد الظهرية فعلت ما فعلته في المكتب".
- "وما كان ذاك؟".
- "صبيت كوباً ورقياً به ماء على جهاز الاتصالات الداخلية".
- "تماماً!.. وقضيت اليوم الرابع من يوليو متنقلاً بالسيارة!..
يا إلهي، إن كتبة الاختزال يركضون في كل مكان كالتانين!.. يا له من اضطراب وهيجاج!..".
- "وهل شعرت بالارتياح مؤقتاً من جراء ذلك؟".
- "بشكل جيد!.. ثم خطرت لى عند الظهرية فكرة تحطيم جهاز اللاسلكى المعصمى الخاص بى على رصيف الشارع.. إذ كان ينطلق منه صوت صفير صاخب تجاهى طوال الوقت يقول: "هذا استفتاء الجمهور رقم.. ما الذى أكلته فى وجبة الغذاء؟.. وعندها تخلصت من هذا الجهاز".
- "لعلك شعرت بارتياح أكثر عندئذ، أليس كذلك؟".
- حك (بروك) يديه فى بعضهما البعض وقال: "لقد تملكتنى فكرة غريبة!.. لماذا لم أبدأ فى القيام بثورة بمفردى لتخليص الإنسان من بعض وسائل وأدوات الراحة المزعجة؟".

قال الطبيب: قل لى بريك راحة من... صاح قائلاً: راحة الأصدقاء.
انظر يا (أل)، لقد اعتقدت أنه يوسعى استدعاؤك من حجرة الأبراج أو
الصناديق المقلدة هنا فى جرين هيلز.. لقد حفرت حفرة غير عادية فى
واحدة منها!.. نعم، حفرة فى واحدة منها يا (أل)!.. إنه ليوم جميل.. بعد
أن احتسيت جرعة من الويسكى الآن.. اعتقدت أنك تريد أن تعرف يا
(أل).. إن ذلك مناسب ومريح لمكتبى، ولذلك عندما أكون فى الميدان
ومعى سيارتى اللاسلكية فإننى أكون دائماً على اتصال بالآخرين.. على
اتصال!.. يا له من تعبير ردى.. اتصال، اللعنة.. الأخرى أن نقول أو
سحقته مضغنة التردد.. غائت لا يمكنك ترك سيارتك بدون إبلاغ ثم
تقول: لقد وقفت لأدخل حمام الرجال بمحطة البنزين.. حسناً يا (بروك)،
أسرع أكثر!.. ما الذى أخرك هكذا يا (بروك)!.. أسف يا سيدي..
انتبه المرة القادمة يا (بروك).. نعم يا سيدي!.. والآن هل تعرف ما
فعلته يا دكتور؟.. لقد اشتريت علبة مثلجات فرنسية بالشيكولاته ثم
صببتها بالملعقة فى جهاز الإرسال اللاسلكى بالسيارة.

- هل هناك أى سبب خاص لاختيارك المثلجات الفرنسية
بالشيكولاته لصبها بالملعقة فى وحدة الإرسال؟

فكر (بروك) فى الإجابة ثم قال وهو يبتسم: إنه نوع النكهة التى
أحبها فى الجيلاتى.. فقال الطبيب: آه، حسناً.

- لقد تصورت، اللعنة!، أن ما هو جيد بالنسبة إلى يكون جيداً
أيضاً لجهاز الإرسال.

ولكن ما الذى جعلك تضع المثلجات بالملعقة فى جهاز الإرسال؟

"لقد كان اليوم حاراً" .. فتحمل الطبيب برهة وقال: "وماذا حدث بعد ذلك؟"

- "ساد السكون بعد ذلك.. يا الله، لقد كان ذلك رائعاً.. فجهاز إرسال السيارة هذا يثرثر طوال اليوم، مثلاً يقول (بروك تعال هنا.. بروك اذهب إلى هناك.. بروك سجل لحظة وصولك.. بروك سجل لحظة مغادرتك.. بروك، الآن وقت الغداء.. بروك انتهى وقت الغداء.. بروك، بروك، بروك" .. حسناً، إن هذا السكون كان رائعاً مثل وضع المتلجات في أننى!"

- "يبدو لي أنك تحب المتلجات كثيراً؟"

- "إننى فقط أستمتع بشعورى بالسكون من حوالى.. إنه أجمل وأرق إحساس يمكن أن يشعر به المرء!.. الهدوء والصمت التام.. ساعة كاملة من هذا السكون.. وكل ما فعلته هو أننى جلست فى السيارة؛ أبتسم وأشعر بهذا الإحساس بأننى.. لقد ثملت من نشوة تلك الحرية!" .. فقال الطبيب: "لا بأس، استمر."

- "ثم خطرت لى فكرة أجهزة الإنفاذ الحرارى المحمولة^(١١).. فقامت بتأجير واحد منها وأخذته معى فى الحافلة ونهبت إلى المنزل فى تلك الليلة.. وهناك كان الركاب الدائمون حاملو أجهزة الإرسال والاستقبال

(١١) إحداث حرارة بواسطة تيارات كهربائية فى أنسجة الجسم كوسيلة للعلاج. (المترجم)

المعصية يتحدثون إلى زوجاتهم قائلين لهن: الآن أنا فى الثالثة والأربعين..
الآن أنا فى الرابعة والأربعين.. الآن أنا فى الخامسة والأربعين.. الآن
أدخل فى الحادية والستين.. وأحد الأزواج يطلق الشئام قائلاً: حسناً،
أخرجى من هذه الحانة.. اللعنة، واذهبى إلى المنزل وجهزى طعام الغداء..
أنا فى السابعة عشرة!.. وبيت جهاز الإرسال المتنقل قصصاً من
غابات قيينا.. أحد طيور الكنارى يغرد بكلمات عن حبوب القمح
الممتازة الدرجة.. ثم شغلت جهاز الإنفاذ الحرارى الذى معى!.. وسمعت
صوت تشويش وتداخل للترددات!.. كل الزوجات تركن أزواجهن يشكون
لهن من يوم العمل الشاق فى مكاتبهم.. وكل الأزواج تركوا زوجاتهم
اللاتى راين أطفالهن يحطمن نافذة!.. غابات قيينا مقطوعة الأشجار
وطيور الكنارى ماتت أو تشوهت.. سكون تام!.. سكون رهيب غير
متوقع بالمرة.. واضطر ركاب الحافلة إلى التحدث مع بعضهم البعض..
وساد الخوف.. خوف غريزى شديداً.

- وهل ألفت الشرطة القبض عليك؟-

- كان لا بد أن تغف الحافلة.. وعموماً كانت الموسيقى متداخلة
والأزواج والزوجات يهينون تماماً عن الواقع.. لا يوجد سوى هرج ومرج
وفوضى.. والسناجب تصبح داخل أقفاصها!.. وجاءت وحدة لعلاج
القلق وانتدبتنى رسمياً وحصلت منى غرامة والزمتنى منزلى وأخذت
منى آلة الإنفاذ الحرارى.. وكل ذلك تم بسرعة فائقة.

- "مستر (بروك) أعتقد أن أسلوبك العام هنا ليس عملياً.. فإذا لم تكن تحب أجهزة الإرسال المتنقلة أو المكتبية أو الأجهزة التجارية الموجودة بالسيارات.. فلماذا لم تنضم إلى جمعية "كارهى الأجهزة اللاسلكية" وبدأت فى تقديم التماسات وحصلت على أحكام قانونية ودستورية.. عموماً هذه بولة ديمقراطية"

قال (بروك): "وأنا أفضل تسمية ذلك بالأقلية.. نعم لقد انضمت بالفعل إلى إحدى هذه الجمعيات وكنت أربط هناك وأقدم التماسات وأخذها إلى المحكمة.. وعماماً بعد عام قدمت احتجاجات.. وضحك الجميع، فكل الناس الآخرين يحبون الأجهزة اللاسلكية التجارية الموجودة بالحافلات.. كنت غير متناغم مع الآخرين."

- "إذا فقدت تقبلت الموقف كجندى محترم، أليس كذلك؟ إنه حكم الأغلبية."

- لكنهم تمانوا كثيراً.. وإذا كانت الموسيقى القليلة والحفاظ على الاتصال أمرين ساحرين، فقد حدا أن الكثير يعنى عشرة أمثال قدر الساحر منها.. وغضبيت للغاية!.. ثم ذهبت إلى المنزل ووجدت زوجتى فى حالة هستيرية.. لماذا؟.. لأنها فقدت تماماً الاتصال بى لنصف يوم.. وتذكر أننى دمرت جهاز الإرسال المعصمى الخاص بى؟.. حسناً، فى تلك الليلة وضعت خططاً لقتل منزلى!"

- أوافق أنت بأن هذا هو ما تريدنى أن أكتبه؟

- هذا صحيح للغاية.. تدميره تماماً.. فهو واحد من تلك المنازل التي تتكلم وتغنى وتطن وتكتب تقريراً عن حالة الطقس وتقرأ الشعر وتحكي القصص وتثرثر بأصوات مزعجة وتذدن وهي تتمايل عندما تدخل في الفراش.. إنه منزل يصرخ بالعروض الأوبرالية لك وأنت تستحم، كما يعلمك اللغة الأسبانية أثناء نومك.. إنه واحد من تلك الكهوف التي تتكلم بحماقة وتجعلك تشعر وأنت في داخله بأن كل أنواع الوسائط الإلكترونية تعطيك الإحساس بأنك أكبر قليلاً من الكستبان^(١٤).. ويقول مواقده: "إننى فطيرة مشمش، وأنا جاهزة".

أو تقول: "أنا لحم بقرى محمر لذك ادعنى بالزبد!" وغير ذلك من همهمات الأطفال غير المفهومة.. وهناك سرر تهزك حتى تنام ثم تهزك بعد ذلك لكي تصحو.. إننى أقول لك إنه منزل يتحمل البشر بالكاد.. وله باب أمامى ينبج قائلاً: "سيدى، يوجد طين على قدميك!" وبه كلب مطاردة إلكترونى يعمل بالتفريغ بطاردك من خجرة إلى أخرى وهو يتشمعك ويلتقط أى ظفر أو شعرة تسقط منك.. يا إلهى، ما أعجب هذا!..

قال له الطبيب النفسى مهدئاً: "على رسلك يا رجل".

- أتذكر تلك الأغنية التي غناها جلبرت وسوليفان - (لقد أضفتها إلى قائمتى، ولا يمكن أن أنساها فى حياتى) - وأنا طوال الليل أضيف إلى قائمة أحزائى.. وفى الصباح التالى اشتريت مسدساً، ومرغت قدمى

(١٤) غطاء من المعدن أو البلاستيك يوضع فوق الإصبع لحمايته أثناء الضيطة. (المترجم).

فى الطين عمداً!.. وعندما سمعت الصوت - امسح قدميك! أرجوك كن
أيقفاً - أسرعت بإطلاق النار على ذلك اللعين المختبئ داخل ثقب مفتاح
الباب! ثم عدت إلى المطبخ حيث كان الموقد ما زال يئن قانلاً
(اقلبنى!).. وفى منتصف فترة عمل الموقد لعجة البيض ألياً قتلته.. أنت
لا تعرف كيف أنه صاح صارخاً قانلاً: لقد تعطلت.. ثم بقى الهاتف
كطفل مدال مزعج فقامت بإلقائه فى مستخلصة النفايات.. والحقيقة أنتى
أجد نفسى الآن مضطراً للإفادة بأنه لا يوجد سبب لتحاملى على تلك
المستخلصة، فهى مجرد متفرج برئ، وأنا أشعر الآن بالأسف على ما
أصايتها فهى بالفعل آلة مفيدة وعملية ولا تنطق أبداً بكلمة وإنما
تخرخر^(١٦) فقط كأسد نائم فى معظم الوقت، كما أنها تستقبل كل
نفاياتنا ومهملاتنا وتهضمها تماماً، وسوف أطلب إعادة تشغيلها مرة
أخرى.. ثم دخلت وأطلقت النار على التلفاز.. ذلك الوحش الغادر، أو
الغول الذى يحول بليون شخص إلى حجارة كل ليلة، والذى يحدث فى
المرء بلا ملل.. ذلك الكائن المهلك الذى يتكلم ويغنى ويعبدك بالكثير ولكنه
فى الواقع لا يعطيك إلا القليل.. وكنت أمل وأنتظر منه أن يفى بوعوده
لى لكن بلا جدوى حتى.. بوم، بوم!.. وفى الحال اندفعت زوجتى وهى
تشهق وتكركر كدبك رومى مقطوع الرأس خارجة من الباب الأمامى.. ثم
لم يلبث رجال الشرطة أن حضروا، وها أنا ذا الآن هنا!..

(١٦) صوت خفيض كموت القطة المسروقة (المترجم).

اعتدل في جلسته بسرور وأشعل سيجارة.

- ولكن هل كنت تدرك - وأنت ترتكب كل تلك الجرائم - أن جهاز الإرسال المعصمي، وجهاز الإرسال الإذاعي والهاتف ومذياع الحافلة وأجهزة الاتصال الداخلية المكتبية، كلها مؤجرة أم هي مملوكة لأشخاص آخرين؟

"فليساعدنني الله، لكي أقوم بتدميرها من جديد".

جلس الطبيب النفسى هناك يطالع تلك الابتسامة التى تظهر سعادة وبهجة كبيرتين، وقال "ألا تريد أية مساعدة أخرى من مكتب الصحة الفعلية؟ وهل أنت على استعداد لتحمل كل التبعات؟".

قال السيد (بروك): "هذه ليست إلا البداية. إنتى طليعة أفراد المجتمع الذين تعبوا من الضوضاء وتم استغلالهم ودفعهم بقوة ليتحملوا الصرخات والأصوات العالية، فى كل دقيقة موسيقى، وفى كل دقيقة اتصال مع صوت فى مكان ما، اعمل هذا، اعمل ذاك، بسرعة، بسرعة، الآن هنا، والآن هناك. سوف ترى، لقد بدأت الثورة! سوف يسجل التاريخ اسمى".

بدا أن الطبيب النفسى يفكر، وقال "إم م م".

"بالطبع سوف يأخذ الأمر بعض الوقت. كل شيء كان بالغ الروعة فى البداية. وكان لب هذه الأشياء - النواحي العملية - مدهشاً. كانت أجهزة الضوضاء هذه، مجرد دمي يلعب بها المستخدمون، إلا أن الناس

ارتبطوا بها بشكل كبير، واستعملوها بكثافة، حتى أصبحت نموذجاً للسلوك الاجتماعي، ولا يمكن الاستغناء عنها، أو الاعتراف حتى بوجودها، ومن ثم فقد تم تجاهلها.

وقالوا: "إنه العصر الحديث والظروف السائدة والتقدم المذهل". ولكني أؤكد لك، لقد نشرت البذور، وحصلت على تغطية إعلامية عالمية. في التلفاز والمذياع والأفلام السينمائية. ربما يبدو لك هذا الأمر مدعاة للسخرية. لقد حدث هذا منذ خمسة أيام مضت، أصبح هناك بليون شخص يعرفون ما أفعله. راجع الأعمدة التي يتحدث عن الشؤون المالية. وفي أي يوم. ربما في هذا اليوم. توقع انبثاقاً مفاجئاً، ارتفاعاً في مبيعات المتلجات الفرنسية بالشيكولاتة".

قال الطبيب النفسى: "هذا ما نعتقد".

رد (بروك) قائلاً: "أيمكننى الآن أن أذهب إلى زنزانتي المنفردة الرائعة، حيث أكون وحيداً وهادئاً لمدة ستة شهور قادمة؟".

قال الطبيب النفسى بتؤدة: "أجل".

قال السيد (بروك) بينما كان ينتصب واقفاً: "لا تقلق من أجلى، فإننى سأقوم بحشو أنفى بترك المادة الناعمة التى تحجب عني الضوضاء الخارجية المزعجة".

اتجه الطبيب النفسى إلى الباب، وهو يتمتع إم م م م م.

قال السيد (بروك): "هون عليك".

قال الطبيب النفسى: "آجل".

ضغط على إشارة الشفرة فوق زر حَقى، فأنفّتح الباب، وخرج منه، ثم انغلق الباب وأوصد. تحرك الطبيب النفسى وحيداً، عبر المكاتب والممرات، وراققت الاحدى والعشرين ياردة^(١٧) الأولى من سيره، نغمات موسيقى "التامبورين شينواه"^(١٨) ثم تلتها "تريجين"^(١٩) و"باسا كاجليا" لباخ^(٢٠) و"تايجر راج"^(٢١) وأخيراً "الحب مثل لفافة تبغ"^(٢٢) وأخرج الطبيب النفسى جهاز الإرسال والاستقبال المعصمى الخاص به من جيبه، الذى أصبح يشبه حشرة السرعة الرهيبة الميتة^(٢٣) وضبط مؤشراتهِ للاتصال بمكتبه. دق جرس، وجاء صوت من السقف "دكتور؟".

قال الطبيب النفسى "انتهيت حالاً من الكشف على (بروك)".

"وما التشخيص؟" يبدو أنه فقد تماماً صلته مع الآخرين، ولكنه يتسم بالمرح. وهو يرفض أن يتقبل أبسط وقائع بيئته ويعمل معها.

"ما تقديرك لما يحتمل أن يحدث؟".

(١٧) الياردة تساوى نحو ٩١ سنتيمتراً. (المترجم).

(١٨) للمؤلف الموسيقى النمساوى "فريتز كرايمز" (١٨٧٥-١٩٦٢). (المترجم).

(١٩) للمؤلف الموسيقى "موريس رافيل" (١٨٧٥-١٩٢٧). (المترجم).

(٢٠) المؤلف الموسيقى الألمانى "جوهان سباستيان باخ" (١٦٨٥-١٧٥٠). (المترجم).

(٢١) من "موسيقى الجاز الأمريكية". (المترجم).

(٢٢) أغنية للمغنى الأمريكى "توك أليجنتون". (المترجم).

(٢٣) حشرة خضراء مفترسة (المترجم).

غير محدد. لقد تركته يستمتع بأحلام اليقظة.

ودقت ثلاثة هواتف في الوقت نفسه، جهاز إرسال واستقبال معصمى آخر في درج مكتبه، كان يطن مثل جندب جريح. وومض بلون أحمر وردى جهاز الاتصال الداخلى، وأخذ يقطع باستمرار. ودقت ثلاثة هواتف وراح درج المكتب يطن، وانسابت الموسيقى من الباب المفتوح.

دندن الطبيب النفسى بصوت خافت، بينما كان يحكم وضع جهاز الإرسال والاستقبال الجديد فوق معصمه، شغل جهاز الاتصال الداخلى بحركة سريعة، وتحدث فيه لدقيقة، والنقط أحد الهواتف وتحدث فيه، والنقط هاتفاً آخر، وتحدث فيه ثم هاتفاً ثالث، وتحدث فيه، وثس أحد أزرار جهاز الإرسال والاستقبال فوق معصمه، وتحدث فيه بصوت هامس هادئ، وكان وجهه يتسم بالآتزان والطمأنينة. وبينما كانت الموسيقى تعزف والأصواء تومض، عادت الهواتف للرنين من جديد، فتحركت يداها، وطن جهاز الإرسال والاستقبال المعصمى الخاص به، وسمع أصواتاً تأتي من أجهزة الاتصال الداخلى، وأخرى تصدر من السقف. استمر فى سيره بهدوء، عبر الممرات التى مازال بها يقاها من برودة الهواء المكيف وبعد الظهر الطويل، وأصوات الهواتف وجهاز الإرسال والاستقبال المعصمى، وجهاز الاتصال الداخلى والمزيد من أصوات الهواتف وجهاز الإرسال والاستقبال المعصمى وجهاز الاتصال الداخلى وهكذا بلا نهاية..

ساحرة الربيع

طارت (سيسى) فى الجو طبقات وتنقلت فوق الوديان وبين النجوم، وحلقت فوق أحد الأنهار وأحدى البرك وبعض الطرق.. ولكن لا يراها أحد.. كأنها رياح الربيع.. نضرة مثل رائحة البرسيم الصاعدة من الحقول وقت الغسق.. إنها تحلق بين اليمام البرى كالعرسة البيضاء وتوقف فى قلب الأشجار وتعيش فى الزهور المتفتحة وتقفز إلى داخل أوراق الأزهار لتحتسى بها عندما يهب النسيم.. ثم تجثم داخل ضفدع أخضر دبق بارد الجسم كالنعناع البرى النامى على شاطئ البركة.. ثم تهول إلى داخل كلب هائم على وجهه وتتبع لكى تسمع صدى صوتها من جوانب الحظائر ومخازن الحبوب البعيدة.. كما تعيش فى نباتات الربيع الجديدة التى تنمو فى شهر أبريل وفى السوائل الصافية العذبة الخارجة من التربة العطرة ولها رائحة المسك.

قالت (سيسى) لنفسها: "إنه الربيع، ما أجمل ذلك.. سوف أعيش الليلة فى كل كائن حي أصادفه".. والآن هى تسكن بعض صراصير الغاب الجميلة فوق الطرقات الأسفلتية.. وتتبلل بالندى فوق بوابة حديدية..

إن عقلها سريع التكيف يطير متخفياً فوق رياح ولاية (ألينوى) في تلك الليلة من حياتها حيث تناهز السابعة عشرة من عمرها.

وفي وقت العشاء قالت لنفسها: "أريد أن أكون في حالة حب".
أما والداها فقد اتسعت حدقات أعينهما وتخشبا في مقعديهما، وكانت نصيحتهما الوحيدة لها: "عليك بالتحلي بالصبر.. وتذكرى أنك متميزة جداً، لأن عائلتنا كلها رائعة ومتميزة للغاية.. ونحن لا يمكننا أن نختلط أو نتزوج بالناس العاديين.. لأننا لو فعلنا ذلك لفقدنا قدراتنا السحرية.. فأنت مثلاً لا تريدين أن تضيع منك قدرتك على السفر إلى أى مكان وإلى أى شيء بالسحر، أليس كذلك؟.. لذلك عليك بالتزام الحذر.. نعم يا صغيرتنا، كونى حذرة للغاية".

كانت (سيسى)، وهى تستريح بغرفتها العالية، قد مسحت عنقها بالعطر وفردت جسمها - وهى ترتجف وخائفة - على سريرها ذى القوائم الأربعة كقمر بازغ فوق ريف (ألينوى) بلون اللبن.. يحول الأتهار إلى لون الكريمة الصفراء الفاتحة والطرق إلى اللون الرمادى البلاتينى..

تلوحت وقالت: "نعم، إننى واحدة من أفراد عائلة متميزة للغاية.. نحن ننام طيلة النهار ونطير طيلة الليل كالطائرات الورقية السوداء التى تدفعها الرياح.. وإذا أردنا يمكننا أن ننام داخل حيوانات الخلد فى فصل الشتاء أو داخل التربة الدافئة.. أنا كذلك أستطيع أن أعيش داخل أى شيء.. مثل أية فقاعة أو نبات الزعفران أو فرس النوى.. وأستطيع ترك جسمى العظمى البسيط ورائى وإرسال عقلى إلى بعيد بحثاً عن أية مغامرة.. الآن مثلاً..

وفى الحال حملتها الريح بعيداً فوق الحقول والمروج.. وشاهدت
ليالى الربيع الدافئة تتوهج بألوان قوس قزح الجميلة داخل الأكواخ
والبيوت الريفية.. وحدثت نفسها: "إذا لم أتمكن من أن أعيش فى حالة
حب لأننى عادية ومتميزة، فيوسعى أن أعيش الحب من خلال
شخص آخر".

خارج بيت ريفى بأحد المزارع فى إحدى ليالى الربيع كانت فتاة
سوداء الشعر لا يزيد عمرها على تسعة عشر عاماً تسحب الماء من بئر
حجرية عميقة، وكانت تترنم بأغنية جميلة.

سقطت (سيسى) - فى شكل ورقة شجر خضراء - فى البئر..
وجثمت وسط شبكة من الطحالب الرقيقة بالبئر وأخذت تحرق فى الجو
البارد المحرق بها.. الآن تتحرك بسرعة داخل أميبا خفية ترتعش.. ثم
الآن تعيش داخل قطرة ماء!.. وأخيراً دخلت فى كوب بارد وتشعر بأنها
ترتفع إلى الشفتين الدافئتين لفتاة.. ثم سمعت صوتاً رقيقاً لشرب الماء
وسط ظلام الليل.

نظرت (سيسى) من عيني الفتاة.. إذ بعد أن دخلت فى رأسها
الداكن أخذت تحرق الآن من عينيها فى اليدين اللتين تسحبان الحبل
الخشن من البئر.. أنصتت من خلال أذنى قوقعتها إلى عالم هذه الفتاة..
وشمت رائحة عالمها الخياص من خلال منخاريها الرقيقين،
وشعرت بدقات وخفقات قلبها الصغير.. كما أحست بهذا اللسان الغريب
يتحرك بالغناء..

قالت (سيسى) لنفسها: "هل تعلم بوجودى هنا؟" .. وتنهدت الفتاة وحذقت فى الرياض والمروج المظلمة وهتفت: "من هناك؟" .. لكنها لم تتلق أية إجابة.

همست (سيسى): "إنها الريح فقط" .. وضحكت الفتاة لنفسها ورددت: "إنها الريح فقط" .. وارتعدت .. كان جسمها رائعاً وعظامها عاجية رقيقة كامنة وراء لحمها الجميل الملفوف .. وعقلها يشبه وردة شائ لونها وردى رائع عالقة فى الظلام .. وقمها تقوح منه رائحة نبيذ التفاح .. وشفتاها الجذابتان مقفلتان وتخفيان خلفهما أسناناً بيضاء .. وأها حاجبان مقوسان رقيقان يطلان على العالم المحيط بها .. ويهيف شعرها الناعم برقة حول عنقها الجميل .. مسامها رقيقة ومتجاورة ، وأنفها مائل باتجاه القمر ، وخداها متوردان كجمرتين صغيرتين .. وجسدها البض يتميل بيسر ورشاقة من حركة إلى أخرى ويبدو كما لو كان يغنى لنفسه باستمرار .. ويمكن تشبيه وجودها فى هذا الجسم وهذا الرأس بالاسترخاء أمام المدفأة والاستلقاء بحرارتها أو الحياة مواء قطعة صغيرة نائمة أو التقلب فى مياه جدول دافئ يتدفق ليلاً إلى البحر.

قالت (سيسى) لنفسها: "أعتقد أنني سوف أحب الحياة هنا" .. وعلى الفور قالت الفتاة كما لو كانت سمعتها: "ماذا؟" .. فسألتها (سيسى) باهتمام: "ما اسمك؟" ..

جفلت الفتاة للحظة ثم أجابت: "(آن ليرى)" .. ولكن لماذا أقول ذلك بصوت عالٍ؟ ..

همست (سيسى): "(آن).. (آن).. سوف تعيشين فى حالة حب بعد قليل.. صدقيني!".

ارتفع صوت ضجيج من الطريق، كما لو كان يرد على كلام (سيسى).. صوت قرقعة ودوران لعجلات عربة على الحصى المجاور.. وتوقف رجل طويل بعربته التى تجرها الجياد بعد أن شد بقوة لجامها بيديه القويتين، وابتسامته تشع بهجة فى الرياض المحيطة.. وهتف: "(آن).. فقالت: "أهذا أنت يا (توم)؟".

قفز من العربة وربط لجامها فى السور وقال: "ومن يكون غيرى؟". التفتت (آن) وقالت وهى ممسكة بالدلو بيديها المائلتين: "إننى لا أتكلم معك!".

صرخت (سيسى): "لا!". وتجمدت (آن) فى مكانها، ونظرت إلى التلال وأول نجوم الربيع ظهوراً.. ثم حدثت فى الرجل المدعو (توم).. وجعلتها (سيسى) تسقط الدلو من يديها.

قالت الفتاة: "انظر ما الذى فعلته؟". وجرى (توم) تاحيتها فتردفت: "انظر ما الذى فعلته بى؟!". فما كان منه إلا أن مسح خذاعها بمنديل وهو يضحك فى سعادة.

أبعدت يديه وصاحت فى وجهه: "أتركنى وشأنى". إلا أنه عاود الضحك مرة أخرى.. ونظرت (سيسى) إليه من مسافة أميال ورأت دوران رأسه وحجم جمجمته واتساع طرف أنفه ولمعة عينيه وعرض كتفيه ومدى قوة يديه وهو يمسح الخذاء بالمنديل.

أخذت (سيسى) تحقق فيه من مخبئها السرى العلوى بهذا الرأس الجميل، ثم أسرعت بجذب سلك نحاسى خفى هو وسيلة التكلم من البطن وعندها انفتح الفم وهمس: "شكراً لك يا عزيزى".

قال: "إذا أنت على الأقل مهذبة!.. وكانت تقوح من يديه رائحة جلد الحذاء ومن ملابسه رائحة الجواد، وشمها منخارا الفتاة الرقيقان.. ومن بعد فوق المروج المظلمة والرياض المزهرة نقلبت (سيسى) كما لو كانت تحلم أثناء نومها.

قالت (آن): "لا، ليس لك أنت!.. فبادرتها (سيسى) قائلة: تكلمى برفقة.. وحركت أصابع (آن) للخارج باتجاه رأس (توم)، إلا أنها سحبتها بسرعة وقالت: "لقد أغضبتنى".

هز رأسه وقال يارتباك: "أغضبتك؟.. يا للعجب.. ألم تكونى تريدين لمس رأسى منذ لحظات؟.. فتوردت وجنتاها بحمرة الخجل وقالت: "لا أعرف بالضبط ماذا تعنى.. أوه، أرجوك ابتعد عني الآن".

انتصب (توم) واقفاً وقال لها: "لماذا لا تجربين منى؟.. إننى لن أوقفك.. ماذا هناك؟، هل غيرت رأيك؟.. وهل ستذهبين معى للرقص هذا المساء.. إنها حفلة خاصة جداً، وسوف أخبرك بالسبب فى ذلك فيما بعد".

قالت (آن): "لا.. فصرخت (سيسى): "نعم!.. إننى لم أرقص قط من قبل، وأريد أن أرقص فى هذه الليلة.. لم ألبس قط ثوباً طويلاً يحف على الأرض أثناء سيرى.. نعم أريد ذلك.. أريد أن أرقص هذه الليلة..

إننى لم أعرف من قبل شعور المرأة وهى ترقص مع حبيبها.. بالطبع أبى وأمى لم يسمحا لى بذلك قط.. لقد عرفت الكلاب والقطط والجرار وأوراق الشجر وكل شيء فى هذا العالم فى وقت أو آخر، ولكنى لم أكن قط امرأة فى الربيع ولم أحس بشعورها فى ليلة كهذه.. أوه، أرجوك يجب أن نذهب للرقص معاً!

وسعت (سيسى) من نطاق أفكارها مثلما يفرد المرء أصابعه داخل أى قفاز جديد لتوسيعه.. وقالت (أن ليرى): "نعم، سوف أذهب معك.. لا أعرف لماذا، لكننى سأذهب للرقص معك هذه الليلة يا (توم)".

صاحت (سيسى): "الآن إلى الداخل بسرعة!.. وعليك أن تستحمى الآن وتخبرى أهلك وتحضرى ثوبك وتكويه بالمكواة فى حجرك!.. وعندها قالت (أن): "أمى.. لقد غيرت رأى وسأذهب للرقص مع (توم)".

أخذت الجياد تجر العربة وتتهب بها الأرض نهياً على الهضبة الواسعة، بينما دبت الحياة فى حجرات منزل المزرعة الوادعة.. الماء يغلى الآن انتظاراً للحمام.. وموقد الفحم يسخن المكواة لكى الثوب.. والأم تجرى هنا وهناك وفى فمها حفنة من دبابيس الشعر.. وسألت الأم (أن): "ما الذى جرى لك يا حبيبتى؟.. أنت لا تحبين (توم)، أليس كذلك؟".

توقفت (أن) لحظة وسط هذا الجو المحموم وقالت: "هذا صحيح يا أمى.. ولكن..".

جال فى فكر (سيسى): "ولكننا فى الربيع" .. فقالت (أن):
"ولكننا فى الربيع الآن".

وجال فى فكر (سيسى) "وهذه ليلة جميلة للرقص" .. فغمغمت
(أن ليرى): ".... للرقص".

وجدت نفسها بعد ذلك فى البانيو ورغوى الصابون تغطى كتفيها
البيضاوين الناصعين المكتنزين وتدخل فى إبطيها .. ولحم ثدييها الدافئين
يتحرك فى يديها، و(سيسى) تحرك فيها وتجعلها تبتسم وتساعدها على
سرعة الاستحمام .. يجب ألا تتوقف أبداً أو تتردد، وإلا فإن كل تلك
الحركات والأعمال الصامتة سوف تفشل تماماً .. يجب استمرار حركة
(أن ليرى) وتنظيفها وتصيبتها .. الآن انتهى كل شيء! .. جاء دور تجفيف
جسمها بالمنشفة! .. ثم تعطيره بالعطر الأخاذ ووضع مساحيق التجميل
على وجهها! ..

نظرت إلى نفسها فى المرآة ورأت كل هذا البياض واللون الوردى
مثل لون زهور السوسن والقرنفل وهمست: "من أنت الليلة؟".

حملت (سيسى) من عينيها البنفسجيتين وقالت: "أنا فتاة فى
السابعة عشرة" .. ثم أردفت: "فى الحقيقة أنت لا تستطيعين رؤيتى .. لكن
هل تعرفين أننى هنا؟".

هزت (أن ليرى) رأسها وقالت: "إننى متأكدة أننى أجرت جسمى
لساحرة الربيع" .. فضحكت (سيسى) وقالت لها: "هذا صحيح، لقد اقتربت
جداً من الحقيقة .. والآن هيا لكى ترتدى ملابسك".

كان شعوراً رائعاً أن تحس بكل هذه الملابس الجميلة على جسمها
البض المثير.. والآن بدأت النداءات والتحيات بالخارج.

- هيا يا (آن). (توم) ينتظرك بالخارج!

جلست (آن) فجأة وقالت: "قولى له أن ينتظر.. قولى له إننى لن
أذهب إلى تلك الحفلة الراقصة".

قالت أمها الواقفة عند الباب باندماش: "ماذا تقولين؟.. ياللعجب، لم
أعد أفهم شيئاً!".

عادت (سيسى) إلى انتباهها الكامل كسابق عهدها.. لقد وقعت فى
خطأ قاتل وتركت (آن) للحظة.. لحظة واحدة تركت فيها جسم (آن)..
فبعد أن سمعت أصوات حوافر جياذ بعيدة والعربة التى تجرها الجياذ
تتطلق بسرعة فى أنحاء الريف المضاء بنور القمر الساطع فى الربيع،
اعتقدت اللحظة أنها ستذهب للعشور على (توم) لكى تستقر فى رأسه
وتتعرف على ما يدور فى رأس شاب فى الثانية والعشرين فى ليلة
كهذه.. ولذلك انطلقت بسرعة عبر حقول نباتات الخَلَج^(١).. لكنها الآن
قفلت راجعة كطائر عائد إلى قفصه وأحدثت حقيقاً فى رأس
(آن ليرى).

قالت: "(آن).. فردت (آن): "قولى له أن يذهب ويتركنى لشأنى".

(١) نبات له أوراق صغيرة قائمة الخضرة وأزهار وردية. (المترجم).

استقرت (سيسى) جيداً ووسعت مدى أفكارها وقالت: "(آن)!" -
بيد أن (آن) صممت على موقفها وقالت: "لا، لا، إننى أكرهه!"

قالت (سيسى) لنفسها: "كان يجب على ألا أغادر هنا حتى ولو للحظة..." وبدأت (سيسى) تصب عقلها بين يدي الفتاة الشابة وفى قلبها وفى رأسها بهدوء ورقة... ثم خطر على تفكيرها المعنى: "قفى..." فوقفت (آن)... وخطر على تفكيرها المعنى: "ارتدى معطفك!"... فارتدت الفتاة المعطف... وخطر على تفكيرها المعنى: "تحركى!"... إلا أن تفكير (آن) كان عكس ذلك... فكررت (سيسى): "تحركى!"... وفى ذلك الوقت قالت الأم: "(آن)... لا تتركى (توم) ينتظرك أكثر من ذلك... اخرجى إليه الآن وإن نقبل أية أعذار منك... ما الذى دهاك يا حبيبتي؟"

لا شيء يا أمى... لا شيء... تصبحين على خير، سوف أتأخر هذه الليلة بالخارج.

وانطلقت (آن) و(سيسى) معاً إلى الحفلة فى تلك الليلة من ليالى شهر أبريل.

كانت قاعة الرقص تبدو وكأنها غواصة بالحمام الذى يتراقص بهجوم، ويرفرف بهدوء بريشه الطويل الذى ينسحب على الأرضية، قاعة مزدحمة بالطواويس، مكتظة بعيون قوس قزح والأضواء، وفى منتصفها، كانت (آن ليرى) ترقص بحركات دائرية رشيقة.

قالت (سيسى): "أوه، يا لها من أمسية رائعة".

ردت عليها (آن): "نعم، إنها أمسية رائعة بالتأكيد".

وقال (توم): "إنك غريبة حقاً".

دفعتهما نغمات الموسيقى وسط الظلام إلى قبض من الأغاني، حيث طارا وتمايلا ورقصا وهبطا وارتفعا في الهواء... لهثا من المجهود وأمسكا ببعضهما البعض كمجموعة من أناس يفرقون ثم يدورون مرة أخرى في حركات مروحية الشكل، وهم يشاهمون ويتنهدون مع أغنية آوهايو الجميلة.

طلت (سيسى)، وانفجرت شفتا (آن) وانسابت الموسيقى، وقالت (سيسى): "نعم إنتى غريبة!.. فقال (توم): "إنك لست الآن كعادتك".

"لا، لست كعادتى فعلاً فى هذه الليلة".

"أنت لست (آن ليرى) التى أعرفها".

همست (سيسى) وهى تبتعد كيلو مترات وكيلو مترات بشفتيها المفتوحتين: "لا، مطلقاً.. لست كعادتى بالمرّة".

قالت (توم): "أتعرفين، لدى الآن أجمل الأحاسيس".

"بخصوص ماذا؟.. فقال: "بخصوصك أنت... ولمس ظهرها ورقص معها ونظر فى وجهها المتألق باحثاً عن شيء ما فيه وأردف: "عيناك الرائعتان.. لا يمكننى أن أسبر غورهما".

سأله (سيسى): "وهل ترانى الآن فعلاً؟"، فقال لها (توم) وهو يديرها بعناية ووجهه قلق ومتوتر: "جزء منك موجود هنا، يا (آن)،

وهو، منك غير موجود.. فقالت: "نعم.. فقال (توم): "لماذا جئت معي إلى هنا؟.. فقالت (آن): "لم أكن أريد الحضور.. فقال: "ولم لا؟.. فقالت: "شيء ما بداخلي.. فقال لها: "وما هو؟..

أجابت (آن) بهمس خافت هيستيري: "لا أعرف في الحقيقة.. همست (سيسى): "الآن صه، صه.. نعم، هذا أفضل.. دوران، دوران..

همسا لبعضيهما البعض وأصدرا خفيفاً وصعدا وهبطا في أرجاء قاعة الرقص المظلمة، بينما الموسيقى تصدح وتلهب خيالهما.. قال (توم): "ولكنك حضرت بالفعل إلى ساحة الرقص، اليس كذلك؟..

قالت (سيسى): "بلى فعلت ذلك.. فقال لها: "هنا.. ورقصا بخفة إلى خارج باب مفتوح وسار، معها بهدوء بعيداً عن قاعة الرقص والموسيقى والناس كلهم.. وارتقعا إلى أعلى وجلسا معاً في داخل العربة التي يجرها حصانان.

قال وهو يأخذ يديها وجسمه يرتعد: "(آن).. (آن).. غير أن الطريقة التي نطق بها اسمها بدا فيها كأنه ليس اسمها.. واستمر يحديق في وجهها الشاحب، عندئذ انفتحت عيناها بالكامل من جديد.. وقال: "لقد أحبيبتك دائماً، وأنت تعرفين ذلك.. قالت: "نعم أعرف..

ولكنك دائماً متقلبة المزاج وأنا لم أرد قط (أن) أن أسبب لك
ضراً.

لا بأس يا حبيبي، كل شيء على ما يرام.. ونحن ما زلنا صغاراً
جداً.

قالت (سيمى): لا، أقصد أن أقول إننى أسفة.

ترك (توم) يدها وتصلب جسمه وقال: "ما الذى تعنيه يا حبيبتى؟".
كانت الليلة دافئة ورائحة الأرض تتصاعد من حولهما وهما
جالسان.. وروائح الأشجار النضرة تفوح عليهما وأوراقها المتراكبة على
بعضها تصدر أصوات خفيف جميلة.

قالت (أن): "لا أعرف يا حبيبي". وقالت (سيمى): "أوه، ولكننى
أعرف.. أنت طويل القامة وأجمل رجل فى العالم كله.. وهذه أمسية
رائعة، إنها أمسية لن أنساها أبداً لأننى فيها معك أنت.. وفردت يدها
الغريبة الباردة للبحث عن يده المترددة وأعادت هامن جديد إلى يدها
لتدفئتها وتمسك بها بقوة.

قال (توم) وهو يطرف بعينه: "ولكن فى هذه الليلة أنت هنا معى
وفى نفس الوقت هناك.. فى لحظة ما معى، وفى لحظة أخرى تكون بعيداً
عنى.. لقد أردت أن أخذك اليوم إلى حفلة الرقص لاسترجاع أيامنا
الخالية.. ولم أكن بذلك شيئاً عندما طلبت منك الرقص فى البداية.. ثم
عندما كنا واقفين عند البئر، عرفت أن شيئاً ما تغير.. شيئاً ما تغير

بالفعل فيك . كنت وقتها مختلفة .. كان هناك شيء ما رقيق وجديد شيء
... .. وحاول التوصل إلى الكلمة المناسبة، وأردف: "لا أعرف بالضبط،
لا أستطيع القول .. الطريقة التي بدت بها .. شيء ما في صوتك لم
أعرفه .. ووقتها عرفت أنني واقع في حبك مرة أخرى ."

قالت (سيسى): "لا، في حبي أنا .. في حبي أنا ."

قال: "وأنا خائف من الوقوع في حبك .. فأنت سوف تؤذي
من جديد ."

قالت (آن): "نعم، لعل أفعل ذلك بالفعل . قالت (سيسى) لنفسها:
لا، لا، إنني سوف أحبك بكل قلبي! .. (آن) أنت تقولينها له، فلم لا تقولينها
لشيء .. قولي إنك سوف تحبينه بكل قلبك ."

لم تقل (آن) شيئاً .. واقترب (توم) قليلاً منها ورفع ذراعه وأمسك
بإحدى يديها .. وقال لها: "إنني ذاهب .. لقد حصلت على وظيفة تبعد نحو ١٦٠
كيلو متراً من هنا .. ترى هل سوف تفتقنيني؟"

قالت (آن) و(سيسى) في نفس الوقت: "نعم ."

إذاً هل أستطيع أن أقبلك قبلة الوداع؟"

قالت (سيسى) قبل أن يتكلم أي شخص آخر: "نعم ."

وضع شفتيه على الفم الغريب .. وقبله مرتعشاً .. بينما جثمت
(سيسى) كتمثال أبيض .. وقالت (سيسى): " (آن) ! .. حركي ذراعي
واحضنيه! "

جلست (أن) كدمية خشبية ساكنة فى ضوء القمر.. وقبل شفتيها مرة أخرى.. وهمست (سيسى): "إننى أحبك بالفعل.. أنا هنا.. أنا التى رأيتك من عينيها.. هذه أنا.. وأنا أحبك حتى لو لم تحبك هى قط".

تحرك بعيداً عنها يلهث وبدأ كرجل ركض لمسافة طويلة جداً.. جلس بجوارها وقال: "لا أعرف ما الذى يحدث بالضبط.. فقد بدأ للحظة أن هناك...". سألت (سيسى): "هناك ماذا؟". فقال: "ظننت للحظة أن...". ووضع يديه على عينيها وأردف: "لا عليك.. هل تريدان أن نأخذك إلى المنزل الآن؟". فقالت (أن ليرى): "نعم".

نادى على الحصان بصوت يشبه صوت الدجاجة، وفرقع سير اللجام بتكاسل وتحرك بالعربة.. تحركا وسط حفيف أوراق الأشجار وأصوات الارتطام بها وهما فى عربة متحركة مضاءة بضوء القمر فى وقت مبكر لا يتجاوز الحادية عشرة ليلاً فى إحدى ليالى الربيع.. بينما تمرق على الجانبين المروج الخضراء المتألقة لحقول البرسيم الجميلة الرائحة.

نظرت (سيسى) إلى الحقول والمروج الخضراء وقالت لنفسها إن وجودها معه من هذه الليلة فصاعداً يستحق كل الجهد والعناء ويستحق كل شيء.. وفى تلك اللحظة سمعت أصوات والديها الخافتة: "كونى حذرة.. أنت لا تريدان بالطبع أن تفقدى قدراتك السحرية، بأن تزوجى شخصاً فانياً سيموت؟.. كونى على حذر.. فأنت لا تريدان ذلك بالتأكيد".

قالت (سيسى) لنفسها: "نعم، نعم.. حتى هذا لم أستغن عنه.. هنا الآن، إذا كان سيحببنى.. فأنا لست بحاجة للطواف فى ليالى الربيع..

وأنت محتاجة لأن أعيش فى أجسام الطيور والكلاب والقطط والثعالب ..
أل ما أحتاج إليه هو أن أكون معه .. فقط هو .. هو فقط ..

مر الطريق من تحتها وفيه أصوات هامسة .. وقالت (أن)
أخيراً: (توم) .. فقال: "ماذا؟" .. وحدث بيروود واكتئاب فى الطريق
والحصان والأشجار والسماء والنجوم.

إذا ذهبت فى أى وقت من الأوقات فى أى عام من الأعوام
إلى بلدة "ميلين" بولاية (آلينوى) التى تبعد بضعة كيلو مترات عن هنا ..
هلا تسدى إلى جميلاً؟

"لا أرى مانعاً من ذلك يا حبيبتى .."

قالت (آن ليرى) بتردد وارتباك: "هلا أسديت إلى معروفًا بالتوقف
الإيارة صديقة لى؟"

لكن لماذا؟

إنها صديقة عزيزة على .. ولقد أخبرتها عنك .. سوف أعطيك عنوانها ..
لحظة واحدة .. وعندما توقفت العربية عند مزرعتها أخرجت قلم رصاص
من كيسها الصغير وكتبت فى ضوء القمر بضع كلمات على ورقة
وضعتها على ركبتيها .. ثم قالت: "ها هو ذا .. هل يمكنك قراءته؟"

نظر فى الورقة وهز رأسه فى حيرة وقال: (سيسنى إليوت)،
١٢ شارع ويللو، مدينة ميلين، ولاية آلينوى ..

سألته (آن): "نعم.. هل ستزورها يوماً ما؟"

قال: "يوماً ما؟"

"عدنى أن تفعل ذلك."

صاح بحدة: "وما علاقة هذا بنا؟.. ما الذى سأستفيد من أسماء وأوراق؟.. وكور الورقة إلى كرة صلبة ودسها فى جيب سترته."

توسلت إليه (سيسى) قائلة: "أوه، أرجوك عدنى بذلك". فقالت (آن): "عدنى.. وصاح (توم): "حسناً.. حسناً.. والآن اتركينى أنصرف!".

قالت (سيسى) لنفسها: "أنا متعبة.. لا أستطيع البقاء.. يجب أن أرجع إلى المنزل.. أنا ضعيفة ومرهقة.. إن لدى فقط القدرة على البقاء بالخارج ليضع ساعات مثل تلك الليلة، أنا دائماً أسافر وأسافر.. ولكن قبل أن أنصرف...."

قالت (آن): "قبل أن أنصرف.. ثم قبلت (توم) فى شفتيه. وقالت (سيسى): "هذه أنا (سيسى) التى تقبلك!"

حضن (توم) (آن ليرى) برهة ونظر فى عينيها.. نفذ إلى أعماقها.. ولم يقل شيئاً ولكن وجهه بدأ يسترخى ببطء شديد.. واحتفت تجعدات وجهه وتحرر قمه من حالة التشنج التى كان عليها.. ونظر من جديد فى أعماق وجهها المضاء بنور القمر الخافت، وهى واقفة أمامه وعالقة فى حضنه.

أنزلها من العربة ولم يقل لها أكثر من: "تصبحين على خير"،
والطلق مسرعاً على الطريق.. وانطلقت (سيسى) أيضاً متحررة
من أسرها.

صرخت (أن ليرى) بعد أن تحررت من سجنها على ما يبدو..
وجرت مسرعة في ضوء القمر في الطريق الذي يفضى إلى منزلها
وصفت الباب بقوة وراءها.

تباطأت (سيسى) لبرهة قصيرة.. ورأت في عيني صرصار للحقل
العالم في تلك الليلة من ليالى الربيع.. ثم رأت في عيني ضفدعة أنها
تجلس وحيدة بجوار بركة ماء.. وفي عيني طائر ليلي رأت شجرة دردار
عالية مضاعة بفور القمر، وضوءاً ينطلق من منزلين ريفيين أحدهما هنا
والآخر على بعد حوالي كيلو متر ونصف الكيلو متر.. ثم فكرت في نفسها
وفي أسرتها وفي قدرتها السحرية الغريبة.. وفي حقيقة أن لا أحد في
أسرتها يمكنه أن يتزوج أى واحد من الناس في هذا العالم الواسع هنا
وراء التلال والجبال.

(توم).. طار عقلها الواهن في طائر ليلي جاثم تحت الأشجار
وفوق حقول شاسعة من نبات الخردل البرى.. وقالت لنفسها: "هل زالت
الورقة معك يا (توم)؟.. وهل ستحضر في يوم ما لكى ترائنى؟.. وهل
ستعرفنى وقتئذ؟.. هل ستنظر في وجهى وتتذكر متى رأيتنى لأخر مرة
وتعرف أنك تحبنى مثلما أحبك بكل قلبى طوال الزمان؟"

تمهلت فى تلك الليلة الباردة، التى تبعد ملايين الكيلو مترات
عن المدن والناس.. فوق المزارع والقارات والأنهار والجبال
وقالت برقة: "(توم)".

كان (توم) نائماً.. كانت ليلة صعبة، وملابسه منشورة على كراسى
أو مفردة بنظام على حافة السرير.. وكان هناك بجوار رأسه، فى راحة
يده الساكنة والمرتفعة فوق الوسادة البيضاء، قطعة ورق صغيرة مكتوب
عليها بعض الكلمات.. وببطء شديد أخذت أصابعه تقترب ملليمترًا وراء
آخر من الورقة حتى أطيقت بقوة على الورقة.. ولكنه لم ينتبه أو يلاحظ
عندما أقبل طائر أسود من لا مكان ونقر برقة للحظة ما على زجاج
النافذة البلورى المضاء بنور القمر.. ثم خفق بجناحيه فى هدوء
وتوقف برهة ثم طار مبتعداً تجاه الشرق، فوق بقاع الأرض النائمة
فى سكونة وقتئذ.

الفتى الخفى

هزت الملعقة الحديدية الكبيرة والصفدع المحنط ثم ضربته بقوة وحولته إلى تراب وأخذت تحدث التراب وهي تطحن الصفدع بقبضتها الحديدية بسرعة.. ولعت عيناها الصغيرتان الحادثان وهي تنظر ناحية الكوخ.. وفي كل مرة نظرت فيها إليه كان رأس صغير يتوارى فى الحال وراء النافذة السميكة الصغيرة هناك كما لو كانت سوف تطلق عباراً فارياً.

صاحت السيدة العجوز: (شارلى)!! تعال إلى هنا!! إنتى أثبت سحراً فى سحلية لكى أفتح هذا الباب الصدىء اللعين!! أخرج الآن ولن أجعل الأرض تهتز أو الأشجار تحترق أو الشمس تغرب وقت الظهيرة!.

لكن الصوت الوحيد الذى سمعته كان الضوء الجبلى الداكن فوق قمم أشجار "الراتينج" العالية، حيث يحوم حولها سنجاب ذو قنبرة وهو يرتجف من البرد فوق جذع شجرة خضراء اللون.. والنمل يتحرك فى طوابير سمراء دقيقة إلى قدمى السيدة العجوز التى تبرز منها العروق الزرقاء.

قالت: "لقد أوشكت على الهلاك بعد أن قُبعت هناك يومين، اللعنة... ثم لهثت وأصدرت نغمة بضرب الملعقة في حجر مسطح بحيث أدى ذلك إلى اهتزاز حقيبة السحر الرمادية المنتفخة المثبتة بخصرها.. تصيب المزيد من عرقها، وقامت وسارت حتى الكوخ وهي ممسكة بلحم الضفدع المسحوق وأردفت: "أخرج الآن"... وألقت قبضة من المسحوق داخل قفل الباب وتنفست بصوت كالتزييق وقالت: "حسناً، سوف أجيء وأخرجك!"

لقت مقبض الباب بيد مصبوغة بلون شجر الجوز، أولاً من ناحية ما ثم في الناحية الأخرى، وتمتمت: "يا إلهي، افتح هذا الباب على مصراعيه!"

عندما لم يحدث شيء.. تمتمت بتعويذة أخرى وأمسكت أنفاسها.. وحفت تنوراتها الزرقاء الطويلة غير المهذمة وهي تحقق في حقيبة الشر التي يحوزنها لقرى هل يوجد بها أية حشرة ذات قشور أو أى سحر أقوى من الضفدع الذي قتلته منذ شهور انتظاراً لمثل هذه اللحظة الحاسمة.

سمعت (شارلي) وهو يتنفس ووجهه مسند إلى الحائط.. رفاقه كانوا قد ذهبوا إلى بلدة "أوزارك" في أوائل هذا الأسبوع وتركوه هنا.. وقد جرى مسافة حوالي عشرة كيلو مترات لكي يصل إلى السيدة العجوز وينقضي وقته معها.. ولعل ذلك بسبب أنها خالته أو قرييته أو ما يشبه ذلك.. ولم تكن هي على أية حال مستاءة بشكل هيئتها

ولكن منذ يومين وبعد أن اعتادت على وجود الصبي معها وارتاحت له، قررت أن تحتفظ به معها. وقد ثقت عظمة كتفها وأخرجت من الثقب ثلاث لؤلؤات دموية ويصقت على مرفقها الأيمن وداست على صرصار «قلبي ميت وفي الوقت نفسه رفعت أصابع يدها اليسرى وقوسبتها باتجاه (شارلي) مداعبة له وصاحت: "يا ولدي أنت ابني.. أنت الآن ابني إلى الأبد!"

بدا (شارلي) كارتب يرى مذعوراً وانطلق مسرعاً يشق طريقه وسط أشجار الدغل متجهاً إلى منزله.. وعلى الفور ركضت المرأة العجوز كسحلية مخططة مكسوة بالقطن وأحاطت به في طريق مسدود.. وسرعان ما اختفى (شارلي) في هذا الكوخ القديم لأحد النساك ولم يخرج منه قط مهما قرعت بابه أو نافذته أو منفذ العقدة بالشجرة التي به، بقبضتها الصفراء أو أشعلت نيران طقوسها السحرية وشرحت له أنه أصبح ابنها الآن.

سأله: "(شارلي)، هل أنت هناك؟... وفتحت بعض فتحات في ألواح الباب الخشبية بواسطة عينيها الصغيرتين النفاذتين الغامضتين.. ورد عليها بثبات وبصوت مجهود: "نعم أنا هنا".

لعله «سوف يسقط على الأرض في أية لحظة. وحاولت بكل جهدها فتح الباب.. ربما تكون قد ألقت مقداراً طفيفاً زائداً من مسحوق الضفدع على قفل الباب، مما أدى إلى قفشه.. كانت دائماً تفرط أو

تبخس في تنفيذ معجزاتها بسبب انفعالها وغضبها.. لم يكن بمقدورها
قط أن تفعل السحر بالقدر الصحيح بالضبط.. اللعنة!

قالت: "(شارلي)، أنا أريد فقط شخصاً ما لكي يلهو ويثرثر معي..
شخصاً ما ليتدفأ معي أمام المدفأة.. شخصاً ما ليحضر لي الحطب في
الصباح ويطرد الحشرات التي تزحف إلى هنا في ضباب الصباح..
ليس لي غرض منك يا بني سوى أن تكون معي.. وأرسلت له قبلة
بشفقتها وأردفت: "هل تعرف يا (شارلي).. تعال إلي وسوف أعلمك
أشياء كثيرة!"

قال وهو مرتاب فيها: "ما هي تلك الأشياء؟"

سوف أعلمك كيف تشتري الأشياء بسعر بخس وتبيعها بسعر
كبير، كيف تمسك بعروة الجليد وتقطع رأسها وتضعها دافئة في جيب
سروالك الخلفي.. ها أنت!

قال (شارلي): "أخ!"

أسرعت وقالت: "سوف أعلمك كيف تجعل نفسك قادراً على مقاومة
الطلقات، بحيث لو أطلق عليك شخص ما النار من مسدس أو بندقية، لا
يصيبك شيء."

وعندما مكث (شارلي) صامتاً، كشفت له السر بهمسات متذبذبة
بين الارتفاع والانخفاض: "عليك أن تجمع بعض جذور نبات أذن القار
في يوم الجمعة بعد اكتمال القمر بدرًا، ثم تسلكها في خيط وتلبسها
حول عنقك داخل قطعة حرير بيضاء."

قال (شارلي): "لابد أنك جئنت لتقولى هذا".

"سوف أعلمك كيف توقف نزيف الدم وكيف توقف الحيوانات متجمدة في أماكنها وكيف تجعل الجياد العمياء تبصر. سوف أعلمك كل تلك الأشياء!.. وسأعلمك أيضاً كيف تعالج البقرة المنتفخة وكيف تفك السحر من على العنزة، والأهم أننى سوف أعلمك كيف تختفى تماماً".

قال (شارلي): "أوه، يا إلهى!.. فخلق قلب العجوز مثل ضربات الرق، ثم لفت مقبض الباب من الجهة الأخرى".

قال (شارلي): "أنت تضحكين علىّ". فقالت: "لا، أنا لا أضحك عليك.. ياه يا (شارلي)، سوف أجعلك كالنافذة بحيث أرى من خلالك.. الحقيقة يا طفلى، سوف تدهش كثيراً".

قال: "أختفى تماماً؟". قالت: "نعم تختفى تماماً".

"وإن تضربينى إذا مشيت؟".

"لن ألمس شعرة من رأسك يا بنى".

تكلم ببطء كما لو كان يتشقق: "حسناً.. لا بأس من ذلك".

انفتح الباب ووقف (شارلي) على قدمين عاريتين مطاطي، الرأس وذقنه متدل على صدره وقال: "إذننا اجعلينى حقياً".

قالت العجوز: "لكن أولاً علينا العثور على خفاش.. لنبدأ إذن البحث عنه".

أعطته بعض شرائح اللحم البقرى المقدد ليسد جوعه وشاهدته وهو يتسلق إحدى الأشجار.. وصعد عاليًا جدًا.. بالنسبة إليها كان جميلًا رؤيته هناك وكان جميلًا وجوده هنا بجوارها بعد سنوات طويلة من الوحدة لم تجد فيها شخصًا تلقى عليه تحية الصباح ولم يكن حولها سوى فضلات الطيور المتساقطة وآثار الحلزونات^(١) اللامعة على الأرض.

بعد قليل خفق خفاش بجناح مكسور ساقطًا من أعلى الشجرة.. وبسرعة جرت وأمسكت به وهو يصرخ ويضرب بجناحيه بين أسنانها البيضاء الخزفية.. وهبط (شارلي) إلى أسفل الشجرة وإحدى يديه مضمومة القبضة ويده الأخرى ممسكة به وهو يصرخ من الألم.

في تلك الليلة والقمر يتناقص وراء أكواز الصنوبر العطرة، أخرجت السيدة العجوز إبرة فضية طويلة من تحت ثوبها الأزرق الواسع.. وأخفت إثارتها وتوقعاتها الخفية، وحفقت في الخفاش الميت وأمسكت بإبرتها الباردة بثبات.

كانت تعرف منذ وقت طويل أن معجزاتها، على الرغم من الجهد الذي بذلته فيها وكل الأملاح والكبريتات التي وضعتها فيها، قد فشلت.. لكنها كانت تحلم دائمًا بأنه في يوم ما سوف تنجح تلك المعجزات السحرية.. بحيث تقفز داخل الزهور الحمراء والنجوم الفضية لكي تثبت أن الله

(١) إحدى الرخويات المائية أو البرية ذات صدفة حلزونية الشكل. (المنترجم)

تفر لها جسمها الوردى وأفكارها الوردية وبدنها الدافئ وأفكارها المتوهجة عندما كانت فتاة صغيرة.. لكن حتى الآن لم يبد الرب أية علامة، ولم يقل كلمة واحدة.. غير أن أحداً لم يعرف ذلك بالطبع سوى العجوز ذاتها.

سألت (شارلى) الذى قبع مقرصاً على الأرض وهو يحوط ساقيه الجميلتين بزراعيه الطويلتين اللتين تنتشر فيهما البثور كالأوزة وفاغراً فمه ومكشراً عن أنيابه فى مسرح.. قائلة له: "هل أنت مستعد؟" فهمس وهو يرتعد: "مستعد".

قالت وهى تغرز الإبرة عميقاً فى العين اليمتى للخفاش: "ها هو ذا.. الآن!"

صرخ (شارلى) وهو يدير وجهه: "أوه!".

"الآن سوف ألقه فى قماشة من النيل المخطط هنا، ثم ستضعه أنت فى جيبك وتحفظه هناك.. الخفاش وكل شئ.. الآن اذهب!.. ووضع شارلى الخفاش فى جيبه.

صاحت بخوف: (شارلى)!.. إلى أين أنت ذاهب؟.. أنا لا أستطيع رؤيتك، أين أنت يا طفلى؟"

قال: "أنا هنا". ثم وثب بحيث سقطت خطوط من أشعة الضوء الحمراء على جسمه.. وأردف: "أنا هنا أيتها العجوز!.. وحدق بهياج فى زراعيه وساقيه وصدره وقدميه وهتف: "أنا هنا!"

أخذت تنظر في كل مكان كما لو أنها تراقب آلاف الخياخبي^(١)
التي تخلق في اتجاهات متعامدة على بعضها البعض في هواء الليل
البارد.

"(شارلي)، أوه.. لقد ابتعدت مسرعاً.. إنك أسرع من طائر
الطنان.. غير معقول.. ارجع إلي يا (شارلي)!".. فصاح:
ولكنني هنا.. فقالت: "أين؟"

"بجوار النار.. بجوار النارا.. وأستطيع أن أرى نفسي جيداً..
أنا لست خفياً بالمرّة!"..

تأرجحت العجوز على جانبيها الضعيفين وقالت: "بالطبع يمكنك أن
تري نفسك!.. أي شخص مختلف يعرف نفسه جيداً.. وإلا فكيف يمكنك
أن تأكل أو تمشي أو تذهب إلى أي مكان؟" (شارلي)، المسنى.. نعم،
المسنى لكى أعرف أين أنت الآن..

مد يده ناحيتها بتردد، وتظاهرت هي بأنها اهتزت وجففت من لمسته
وقالت: "أه!.. فسألها: "هل تعنين أنك لا تستطيعين رؤيتي".
أجابته: "ولا حتى أرى أحد رديك!"..

حينئذ وجدت هناك شجرة وحدقت فيها بعينين لامعتين وراعت ألا
تنظر إليه أبداً.. وقالت: "عجباً، لا بد أنني قمت بحيلة بارعة هذه المرة!"..

(٢) نوع من الحشرات لها أعضاء مضيتة. (المترجم).

وتنهدت باندعاش وأردفت: "يا هووه.. إنه أسرع اختفاء تجحت في تحقيقه!.. (شارلى)، بماذا تشعر الآن؟".

قال: "مثل المياه المندفعة في جدول.. كل شيء مضطرب ومتحرك ببطء".

قالت: "سوف يستقر حالك وترتاح".. وتوقفت برهة ثم أضافت: "حسناً، ما الذى سوف تفعله يا (شارلى) الآن بعد أن أصبحت خفياً؟".

دارت في عقله كل الأشياء الممكنة وكان يمكنه أن يقولها.. برقت في عينيه وتراقصت أمامه المفامرات.. وتدلى فمه بشكل يعبر عن أنه فتى يتصور نفسه مثل رياح الجبال.. وقال كما لو كان فى حلم جميل: "سوف أخترق حقول القمح وأتسلق الجبال وأسرق الدجاج الأبيض من المزارع.. سوف أركل الخنازير الوردية عندما لا تنظر إلى.. سوف أقرص سيقان الفتيات الجميلات عندما تتمن وأنزع أربطة جواربهن فى فصول الدراسة".

نظر (شارلى) إلى السيدة العجوز ورأى من جوانب عينيها اللامعتين شيئاً شريراً يشبه وجهه.. وأردفت: "وسوف أفعل أشياء أخرى، نعم سأفعل ذلك".

حذرتة العجوز قائلة: "لكن لا تحاول عمل شيء لى.. أنا ضعيفة وعظامى هشة كثلج الربيع ولا يمكننى أخذ أى دواء أو علاج.. ولكن ماذا بشأن رفاقك؟".

قال: "رفاقي؟.. من تعنين بالضبط؟".

"أنت لا يمكنك أن تعود إلى منزلك وأنت بهذه الحالة.. سوف تخيفهم وتلقى الرعب في قلوبهم.. وأمك قد تفقد الوعي وربما تسقط كجذع شجرة.. فكر في جلوسك في أي مكان داخل أو خارج المنزل بحيث يتعشرون فيك أثناء سيرهم.. وسوف تنادى أمك عليك كل ثلاث دقائق، على الرغم من أنك قد تكون جالساً بجوارها في نفس الحجرة".

لم يفكر (شارلي) في ذلك.. كان هائجاً من فرط نشوته، وحصد ربه على نعمته هذه، أخذ يتحسس عظامه الطويلة. وقالت له: "ربما ستعيش وحيداً.. سوف ينظر الناس من خلالك كما يرون من خلال كأس ممتلئ بالماء.. وسوف يركلك الناس جانباً أثناء سيرهم لأنهم لن يظنوا أنك جاثم تحت أقدامهم.. والنساء يا (شارلي)، النساء...".

ابتلع لعابه وقال: "وماذا بشأن النساء؟".

"لن تجد امرأة أبداً تنتظر إليك مرة ثانية.. ولا توجد امرأة تريد أن يقبلها فتى يقدّم لا يستطيع أن يراه أو تجده!".

غرّز (شارلي) أصابع قدمه في التربة وهو يفكر بعمق.. وتجهّم وجهه وقال: "حسناً.. سوف أبقى مختفياً على أية حال لفترة من الوقت.. وسوف أستمع بذلك وألهو.. فقط سوف أكون حذراً، هذا كل ما في الأمر.. سوف أقف أمام المركبات وأمام أي.. وأبى يطلق النار على أي صوت قريب منه". وجفل (شارلي) وأرندف: "يا للعجب، فائتاء، كوني خفياً".

سوف يطلق أبى طلقاء الرش التى يصيد بها الوعول والأيائل على
معتقداً أننى ستجيب يرتع فى قناء المنزل.. أوه....

أوملت العجوز إلى إحدى الأشجار وقالت: "هذا محتمل جداً".
قرر أمره ببطء وقال: "حسناً.. سوف أبقى مختفياً الليلة،
وعداً تستطيعين أن تعيدينى ظاهراً مرة أخرى أيها السيدة العجوز".

نظرت العجوز إلى خنفساء على جذع شجرة، وقالت: "ترى هل هذا
مثل أى مخلوق آخر، يريد دائماً أن يكون ما لا يستطيع أن يكون".

قال (شارلى) متعجباً: "ما الذى تقصدينه أيتها السيدة العجوز؟"
"لا شئ.. لقد قمت بمجهود كبير لكى أستطيع أن أجعلك خفياً..
ولكن المشكلة أن هذه التعويذة السحرية سينقضى مفعولها بعد قليل،
لأنها مثل طبقة الطلاء التى تتآكل بعد بعض الوقت يا بنى".

صاح قائلاً: "أنت!.. أنت فعلت هذا بى!.. الآن ستعيدنى وتجعلينى
ظاهراً مرة أخرى!.. يا الحظى السيئ".

"أصمت.. سوف يتآكل الطلاء بسرعة.. وسوف يبدأ الأمر يظهر يد
أو قدم واحدة".

"وكيف أبداً.. وأنا فوق الجبال ولى يد واحدة ظاهرة!"
"مثل أى طائر ذى خمسة أجنحة يقفز ويشب فوق الأحجار
والصخور ويلتقط الحبوب والثمار".

أو تبدو لي قدم واحدة؟

مثل أي أرنب برى صغير وردى اللون يتقافز في الدغل.

أو يطفو رأسي في الهواء؟

مثل أية بالونة مغطاة بالشعر في الكرنفال؟

سألها: كم ينقضي من الوقت لكي أعود كاملاً كما كنت؟

فكرت قليلاً: وأجابته بأن ذلك قد يستغرق عاماً كاملاً.. وتلوه الفتى
وبدا يبكي وبعض شفثيه.. وروح بقبضته في الهواء معبراً عن استيائه
وقال: لقد سحرتني، فعلت ذلك بي.. والآن لن أتمكن من العودة
إلى المنزل.

غمزت بعينها له وقالت: ولكن يمكنك البقاء معي هنا يا بني..
تبقى معي مرتاحاً تماماً، وسوف أهتم بإطعامك لكي تسمن وتصبح
جميلاً وأنيقاً.

اندفع قائلاً: لقد فعلت بي هذا عن عمد!.. أنت أيها الشيطانة
العجوز.. لأنك تريدني إبقائي هنا معك.. ثم جرى خلال
الشجيرات الغزيرة.

(شارلي)، عد إلى هنا؟

لم تلتق أية إجابة سوى وقع أقدامه على الأعشاب المعتمة الطرية،
وبكائه المخلق بتشتجاته وهو يجري مبتعداً بسرعة.

انتظرت له لبعض الوقت ثم أشعلت لنفسها ناراً.. وقالت هامسة:
"سوف يعود، لا ريب في ذلك.." وفكرت في نفسها وأردفت: "وهكذا سوف
أجد لي رفيقاً طوال موسم الربيع وحتى أواخر الصيف.." ثم عندما أمل
منه وأريد أن أعيش في هدوء وسكون، أرسلته إلى منزله.

عاد (شارلي) بهدوء مع أول خيوط الفجر.. انسل فوق
التجبل والعشب إلى حيث تقبع العجوز مصددة ساقها ونراعيها
كعود خشبي مائل إلى اللون الأبيض أمام بعض الرماد المنتشر حولها..
جلس فوق بعض الحصوات القريبة في جدول الماء.. توقف وأخذ
يحدث فيها.

لم تجرؤ على أن تنظر إليه أو ورائه، وهو لم يصدر أي صوت قط،
فكيف يمكنها أن تعرف أنه موجود في مكان ما بجوارها؟.. أما هو فقد
جلس هناك وعلى وجنتيه آثار الدموع.

تظاهرت العجوز بأنها ستسير، ولم تكن نائمة قط طوال الليلة،
ووقفت وهي تقبع وتتخر وتتأهب، ثم استدارت في دائرة متجهة ناحية
ضوء الفجر ونادت: "(شارلي)؟"، وتحركت عيناها من أشجار الصنوبر
حتى التربة ثم إلى الجبال البعيدة.. ونادته باسمه مراراً وتكراراً،
وشعرت بأنها تنظر مباشرة إليه، لكنها أوقفت إحساسها هذا..
ونادت: "(شارلي)؟.. أوه، (شارلي)؟.. لكنها لم تسمع سوى رجع
الصدى مردداً نفس الاسم.

جلس وشرع فى الابتسام فجأة وهو يعرف أنه قريب جداً منها ومع ذلك فإنها تشعر بالوحدة.. ولعله شعر بنمو قدرته السحرية، ولعله شعر بأنه آمن من العالم كله.. لكن لا شك أنه كان سعيداً باختفائه هذا.

قالت بصوت عالٍ: "والآن أين يوجد هذا الفتى؟.. لو أنه أصدر أى صوت لأمكننى معرفة أين يوجد.. على أية حال سوف أعدُّ له إفطاراً!".

أعدت طعام الإفطار لهما، ولكنها كانت متضايقه من سلوكه الشديد.. وطشت لحم الخنزير على غصن لشجرة الجوز.. وغسفت راحتها سوف يسيل لها لعابه وتجذب أنفه.

وبينما استدارت بظهرها، سرق كل لحم الخنزير المحمر والتهمة بسرعة.. ودارت هى وصاحت: "يا إلهى!". ونظرت إلى بقعة الأرض مقطوعة الأشجار بارتياح، ونادت: "(شارلى)، هل هذا أنت؟".

مسح (شارلى) فمه برسغفيه، وسارت هى فوق المنطقة الخالية، بحيث تبدو كأنها تبحث عنه.. وأخيراً خاطرت لها فكرة جيدة ومثلت أنها ععباء واتجهت مباشرة تجاهه وهى تقلبسه أو تتحسس به بيديها ونادت: "(شارلى)، أين أنت؟".

غير أنه تجنّبها بسرعة البرق وتمايل وانحنى حتى هرب منها.. واستعانت هى بكل قوتها وإرادتها لكى لا تترك تتبّعه والبحث عنه.. ولكن لا يمكن للمرء مطاردة صبي خفى.. ولذلك جلست وهى عابسة وتتمتم بكلمات تهديد وحاولت قلى المزيد من لحم الخنزير.

ولكن كل شريحة لحم محمرة كان يسرقها وهي تبقيق من السخونة ويجرى بها مسرعاً.. وأخيراً بعد أن اتقنت وجنتاها قالت: "أنا أعرف أين أنت الآن!.. هناك بالضبط!.. أنا أسمعك وأنت تجرى!.. وأشارت إلى ناحية ما، لكنها لم تكن موفقة جداً.. ركض من جديد.. وصاحت: "الآن أنت هناك!.. نعم أنت هناك بالتأكيد!.. وأشارت إلى الأماكن التي كان فيها في الدقائق الخمس الماضية.. وأردفت: "أنا أسمعك وأنت تطأ أوراق النباتات وتهرس إحدى الزهور وتكسر فرع أحد النباتات.. إن لدى أذنين موهبتين جداً، وأستطيع أن أسمع بهما النجوم وهي تتحرك في السماء!.."

قفز بصمت بين أشجار الصنوبر وصوته يتردد صداً وصاح: "إنك لن تسمعيني وأنا جالس على الصخور.. وسوف أذهب وأجلس هناك!.. وجلس طوال النهار على صخرة عالية تشرف على المكان بأكمله وسط الرياح الشديدة ساكناً ويمص لسانه.

جمعت السيدة العجوز الحطب من الغابة الراسعة وهي تشعر بعينيه تتلصصان عليها.. وأرادت أن تتكلم معه كالأطفال: "أوه، أنا أراك!.. أنا أراك!.. أنا كنت أمزح بشأن الفتیان المختلفين!.. أنت موجود هناك بالضبط!.. لكنها سرعان ما بلغت غيظها وتماثلت نفسها.

في الصباح التالي قام بنشياء كريهة: "بدأ يقفز من خلف الأشجار.. وغير تعبيرات وجهه بحيث يشبه الضفدع ثم العنكبوت ساخراً منها..

وأطبق شفتيه بأصابعه وأبرز عينيه من محجريهما ودفع منخاريه إلى
الأمام بحيث يمكنك أن تنظر داخلهما وتري مخه وهو يفكر.

فجأة ألقى الحطب وتظاهرت بأن طائر "أبو رزيق" أذهلها. وقام هو
بحركة معينة كأنه يريد أن يخنقها. وارتعدت قليلاً. وقام بحركة أخرى
وكأنه يريد ضربها في قصبة ساقها والبصق على وجنتيها.. غير أنها
تحملت هذا دون أن يهتز لها رمش أو يختلج لها فم.

أخرج لسانه وأصدر أصواتاً غريبة سيئة.. ورقص أذنيه حتى أنها
كادت أن تضحك وأخيراً ضحكت فعلاً وشرحت ذلك بسرعة بقولها: "أنت
تجلس فوق سطحية... عجياً!.. هل لسمعتك؟".

وقبل الظهيرة وصلت عفرتته إلى ذروتها.. إذ في هذه الساعة بالذات
أقيل (شارلي) يعبر من الوادي وهو عريان تماماً.. لكن العجوز لم تتأثر
تقريباً من تلك الصدمة.. وصاحت: "(شارلي)!"

وجرى (شارلي) وهو عريان صاعداً من جانب أحد التلال ثم هابطاً
من على التل المجاور.. كان عرياناً كضوء النهار.. عرياناً كقرص القمر..
ومسلوخاً كقرص الشمس والكوكوت الفاقس لتوه.. كانت قدماه لامعتين
وهو يندفع مثل جناحي طائر طنان يحاير منخفضاً.

انحشر لسان العجوز في فمها، فماذا يمكنها قوله؟.. وحدث نفسه:
هل ستقول لي: "(شارلي)، اذهب وارثد ملايسك.. يالللخجل، توقف عن
هذا... هل يمكنها؟.. نعم ستقول: "آوه، (شارلي)، (شارلي)، يا إلهي!"..
هل يمكنها أن تقول ذلك الآن.. حسناً.

رأته فوق الصخرة الضخمة يرقص صعوداً وهبوطاً وهو عريان
كيوم ولدت أمه.. وهو يطاءً بقدميه ويطلق بيديه على ركبتيه ويشقبط بطنه
إلى الداخل ثم يبرزها إلى الخارج كما لو كان يتفخ في بالونة السيرك
ثم يفرغها في الهواء.

أغمضت عينيها بقوة ودعت الله.. وبعد ثلاث ساعات توسلت إليه:
"(شارلى).. (شارلى).. أرجوك تعال إلى هنا!.. لدى شيء مهم لأقوله
لك!"

أقبل عليها كورقة ساقطة بعد أن ارتدى ملابسه مرة أخرى
وهو يحمد الله.

وقالت وهي تنظر إلى أشجار الصنوبر: "(شارلى).. إننى أرى
أصبع قدمك اليمنى.. هاهو ذا" فسألتها: "هل تريه فعلاً؟"

أجابته: "نعم، هاهو ذا مثل ضفدع حجري واقف على الحشيش..
وماهى ذى هناك أنتك اليسرى عالقة فى الهواء مثل قراشة لونها أحمر وردي."

رقص (شارلى) وقال: "إننى أعدل شكلى الآن.. أعدل شكلى"

أومأت العجوز برأسها وقالت: "والآن يأتى كاحلك!"

قال (شارلى): "أعطينى كلا قدمي!.. فأجابته: "لقد أخذتهما"

"وماذا بشأن يدي؟" فقالت: "أرى إحداهما تزحف على ركبتك
كالعنكبوت."

وماذا بشأن يدي الأخرى؟.. فقالت: إنها ترحف أيضاً..
وهل لدى جسم ظاهر الآن؟.. فقالت: نعم وشكله رائع جداً..
وأنا محتاج إلى رأسى لأتمكن من الذهاب إلى المنزل أيتها
السيدة العجوز..

قالت لنفسها بضيق: لكى تذهب إلى المنزل؟!.. وأجابته بعناد
وغضب: لا!.. لن تحصل على رأسى.. لن يكون لك رأس على الإطلاق..
وبكت، كانت ستترك ذلك إلى آخر وقت ممكن.. وقالت مصرة على
رأيها: لا رأس.. لا رأس!

أخذ يبكى ويواول وقال: لا رأس.. ما معنى هذا بحق السماء؟..
قالت بصوت حاد باستسلام له: نعم، أوه يا إلهى.. نعم، نعم.. سيوف
تستعيد رأسك اللعين!.. والآن أعد إلى خفاشى والإبرة فى عينه!
رمى الخفاش إليها وصاح: ها ها ها.. يوووه!.. ثم ابتعد صياحه
عبر الوادى.. وبعد فترة من ركضه باتجاه منزله كانت لا تزال تسمع
وقع أقدامه.

التقطت العجوز حبلها وهى مجهدة للغاية، واتخذت طريقها عائدة
إلى كوخها وهى تتهد وتكلم نفسها.. وتبعها (شارلى) طوال تلك المسافة
وهو خفى تماماً حيث لم يمكنها رؤيته وإنما فقط تسمعه.. تسمعه ككوز
صنوبر ساقط على الأرض أو كجدول عميق تحت سطح الأرض يتقاطر
ماؤه أو كسنباب يتسلق فرع شجرة.

جلست هي و(شارلي) أمام النار وقت الغروب.. هو خفي وهي
تطعمه لحم الخنزير الذي لا يستطيع تناوله بنفسه.. أكلت هي معه، ثم
قامت ببعض أعمال السحر وخلدت إلى النوم مع (شارلي)، (شارلي)
المصنوع من عيدان الشجر وبعض الخرق وبعض الحصوات.. لكنه
ما زال دافئاً وما زال ابنها الخاص بها.. إنه ينعس الآن وينام بين ذراعي
أمه المهترتين.. وتحدثا معاً عن الأشياء الجميلة بأصوات نعسانة حتى
انبلج فجر انطفأت النار التي أوقدتها تدريجياً.

الطائرة الورقية الذهبية والريح الفضية

صاح الموظف العام^(١): "على شكل خنزير؟".
قال الرجل الذي يحمل الرسالة "نعم على شكل خنزير!" ثم غاب المكان.
صرخ الموظف العام "يا له من يوم شؤم في سنة شريرة! إن مدينة
(كوان سي) التي تقع خلف التل، كانت صغيرة للغاية عندما كنت طفلاً.
أما الآن فقد أصبحت مقرامية الأطراف، إلى الحد أنهم يشيدون
حولها سوراً".

سألته ابنته بهدوء "لكن لماذا بناء سور على بعد ميلين^(٢)،
يجعل أبي الطيب حزيناً وغاضباً هكذا، في غضون ساعة لا غير".
قال الموظف العام "إنهم يبنون سورهم على شكل خنزير. هل تعرفين
ما معنى هذا؟ إن سور مدينتنا مشيد على هيئة برتقالة، ومن ثم فإن هذا
الخنزير سوف يلتهم مدينتنا بشراهة!"

(١) رتبة رسمية عالية في الإمبراطورية الصينية قديماً. (المترجم).

(٢) الميل حوالي ١,٦ كيلو متر. (المترجم).

أصدرت الابنة صوتاً يعبر عن انفعالات متباينة آه.

وجلس كلاهما معاً يمعنان الفكر.

الحياة فى الصين - فى ذاك الزمن - كانت تزخر بالرموز والنذر. كان السكان يتصورون أن الشياطين تتربص بهم فى كل مكان، وأن الموت يمكن الكشف عنه من ذبول حدقة العين، وينبئ اتجاه جناح طائر النورس^(٣) إلى وجهة معينة، عن قرب سقوط الأمطار. وإمساك المروحة بطريقة ما، وميل السقف بزاوية، يعبران عن رموز ومدلولات، وحتى سور المدينة كان له معنى بالغ الأهمية.

وإذا اقترب المسافرون والسائحون ورجال القوافل والموسيقيون والفنانون، من هاتين المدينتين - وهم يحكمون على الأمور بنفس منطق ذلك الزمن - فإنهم سوف يقولون: "مدينة على شكل برتقالة؟ لا! سوف ندخل المدينة الأخرى التى على هيئة خنزير، فإن هذا نذير بأننا سوف ناكل ونشبع ونتمتع بالحظ وبعم علينا الرخاء!"

بكى الموظف العام وقال من بين عباراته: "لقد فقدنا كل شيء! إن هذه الرموز والنذر مروعة، إن مدينتنا مقبلة على أيام شر وشوم". قالت ابنته: "إذا، استدع بنائى الحجاره ومشيدى المعابد. وسوف أهمس لك من خلف الستار الحريري، وعليك أن تنتقى الكلمات".

(٣) طائر بحرى ابيض ريشه ابيض ورمادى، (المترجم).

صفق الرجل العجوز بيديه في يأس وصاح: "تعالوا يا بنات
الأحجار ومشيدى المدن والقصور".

وجاء إليه - على وجه السرعة - الرجال الذين برعوا في التعامل
مع الرخام والجرانيت والعقيق الأبيض والكوارتز، قابلهم الموظف العام
وقد انتابه القلق البالغ، إذ كان ينتظر بلهفة الهمسات التي سوف تنطق
بها ابنته من وراء الستار الحريري، الذي يقع خلف مقعده الوثير الفاخر
الذي يشبه العرش.

وجاءت الهمسات في نهاية الأمر: لقد استدعيتكم الآن إلى هذا المكان.
وأخذ الموظف العام يردد ما بصوت عال: لقد استدعيتكم الآن إلى
هذا المكان. لأن سور مدينتنا شيد على شكل برنقالة، أما مدينة (كوان سي)
الكريهة، فإن سكانها قد أقاموا سوراً على شكل خنزير مفترس.

عندئذ تفوه بناء والحجارة وانخرطوا في البكاء، وراح الموت
يصلصل بمنجله في الساحة الخارجية وأصدر الفقر صوتاً في ظلال
الغرفة وكأنه السعال الرطب!

ثم أخذت الهمسات تتوالى من شفתי الابنة ويقوم بترديدها والدها
الموظف العام بصوت مرتفع كذلك عليكم يا مشيدى الأسوار والجدران،
أن تذهبوا حاملين المسطّرين^(٤) والصخور والحجارة، لتغيروا من شكل
مدينتنا الغالية!

(٤) أداة بناء يسوى بها الحجر ويوضع الملاط بين فتحاته. (المترجم).

لهث المهندسون المعماريون والبناءون، وحتى الموظف العام كان يلفظ كلماته وهو يتنفس بصعوبة. وعادت الهمسات تنساب، به اصل الرجل العجوز حديثه: "... ويجب عليكم أن تحاولوا شكل أسوارنا إلى هراوة هائلة، يمكن بها ضرب الخنزير والقضاء عليه".

نهض البناءون، وهم يتصايحون، حتى الموظف العام كان قروير العين ومنشرح الصدر، لما تفوهت بها شفقاء من كلمات، وأخذ يعبر عن رضاه بالتصفيق، ثم نزل من فوق مقعده الفاخر، وصاح: تسريعاً! إلى العمل أيها الرجال!

وعندما ذهب الرجال، ابتسم ثم راح يتحرك بنشاط صاخب ومثير، من فرط سعادته، واستدار إلى الستار الحريري وهمس بنبرات تنم عن الحب البالغ: "ابتنى! سوف أحضنك بين ذراعي ولكن لم يكن ثمة رد. سار إلى ما وراء الستار الحريري، واكتشف أنها قد ذهبت

فكر في مدى تواضعها، فقد انسَلَّت بعيداً، دون أن تشاطره انتصاره، وكأنما قد حققه بمجهوده الفردي.

وانتشرت الأخبار في المدينة بأسرها. ونال الموظف العام احترام وإعجاب وتقدير الجميع. وحمل كل شخص حجراً ليشارك في بناء السور. وانطلقت الألعاب النارية إلى الفضاء احتفالاً بالمناسبة السعيدة، ولم يعد ثمة اعتقاد بوجود شياطين الموت والفقر، فالجميع مشغولون بالعمل معاً، ولا وقت لمثل هذه المعتقدات.

وفى نهاية الشهر كان شكل سور المدينة قد تغير. وأصبح الآن على شكل مراوّة قصيرة ثقيلة وقوية، بإمكانها طرد الخنازير - الذكور منها والإناث - وحتى الأسود، بعيداً عن المدينة. ومنذ تلك الليلة نام الموظف العام قرير العين هانئاً وكأنه تغلب صغير، وكان يقول دائماً لابنته: (كم أتمنى رؤية الموظف العام لمدينة (كوان سى)، عندما تصله الأنباء عن بناء سور جديد لمدينتنا، سوف ينتابه - دون شك - اضطراب عصبي، وعلى الأرجح سوف ينتحر بإلقاء نفسه من فوق جبل!).

تريث لهنيهة ثم استطرده قائلاً: "... أعطنى المزيد من هذا التبيذ يا ابنتى الحبيبة التى تفكر مثل ابن لى".

بيد أن السعادة كانت مثل زهرة شتاء، سرعان ما ماتت. إذ فى نفس هذا العصر، اندفع حامل الرسائل إلى القاعة التى يجلس فيها الموظف العام وقال لاهتافاً: "آه يا سيدى الموظف العام! لقد انتشر المرض فى المدينة، يا لها من محنة مبكرة، وحدثت انهيارات ثلجية، وسبب الجراد كوارث للنباتات كما سمع مياه الآبار...".

ارتعد الموظف العام.

وأرشف حامل الرسائل قائلاً: "... إن سور مدينة (كوان سى)، الذى كان مشيداً على شكل خنزير، ذلك الحيوان الذى طردناه بعيداً - بتغيير شكل سورنا ليصبح مثل مراوّة قوية - قد تحول الآن إلى أطلال تذروها

رياح الشتاء! إذ إن سكان مدينة (كوان سي) شيديوا سوراً جديداً لمدينتهم
على شكل مشعلة^(٥) هائلة لإحراق سورنا الذي يشبه الهراوة^(٦).

غاص قلب الموظف العام في جوانحه، كما تسقط ثمرة فاكهة
الحريف من فوق شجرة منهالكة!

قال الموظف العام والحزن يملأ وجدانه: "يا إلهي! سوف يرفضنا
المسافرون بإزدراء - كما سوف يبتعد عن مدينتنا التجار - بعد أن
يدركوا معنى الرموز - إذ سوف يفضلون النار التي يمكنها أن تهزم كل
شيء، عن الهراوة التي تم تدميرها بسهولة بالغة".

عندئذ جاءت همسة رقيقة من وراء الستار الحريري، وكنته كسفة
من الثلج "لا".

قال الموظف العام مشدوهاً "وكيف لا؟".

قالت الهمسات التي بدت ناعمة، كقطرة مطر متساقطة قل للبنايين،
أن يشيدوا أسواراً جديدة لمدينتنا، على شكل بحيرة متألقة.
ردد الموظف العام هذه الكلمات بصوت مرتفع، وشعر بالدق
يتسلل إلى قلبه.

وعادت الهمسات تتوالى والرجل العجوز يكررها: "ويمياه البصيرة،
سوف تخدم النيران وتطفئها إلى الأبد".

(٥) نار تشتعل في الهواء الطلق لإحراق هشيم وغيره، (الترجم).

عاد الانتهاء والجنل للمدينة، حين علم سكانها أن إمبراطور الأفكار الرابع، قد أنقذهم مرة ثانية، وهرعوا إلى الأسوار وأقاموها بحيث تصبح أقرب ما تكون إلى صورة الجديد، كانتوا يغتزون ولكن ليس - بطبيعة الحال - بصوت مرتفع كما فى السابق، حيث إنهم كانوا يشعرون بالإجهاد، كما لم يشيدوا الأسوار بسرعة، إذ إن إعادة بناء السور قد استغرق شهراً كاملاً فى المرة الأولى، وكان عليهم أن يهملوا أعمالهم ومحاصيلهم، ومن ثم أصبحوا - إلى حد ما - أكثر ضعفاً وأشد فقراً، ثم تتابعت أيام مرعبة وتداخلت فى بعضها البعض بشكل مروع غير منظم.

وذات يوم جاء حامل الرسائل صارخاً آه يا مولاي! لقد قام سكان (كوان سى) بإعادة بناء أسوارهم لتصبح على شكل قم هائل يشرب كل بحيرتنا!

قال الموظف العام وهو يقف قريباً للغاية من ستاره الحريري: إذن شيدوا أسوارنا لتصبح مثل الإبرة، حتى يخيظ ويغلق ذلك الفم الكريه.

وبعد مدة جاء حامل الرسائل صارخاً: مولاي! لقد شيدوا أسوارهم لتصبح مثل السيف، حتى تكسر إبرتك!

آنذاك ارتعد الموظف العام والتصق بالستار الحريري قائلاً: بناءً على ذلك، حركوا الحجارة لتشكيل غمداً ليدخل فيه هذا السيف!

وفى الصباح التالي، بكى حامل الرسائل وهو يقول "الرحمة يا مولاي"
لقد سهر سكان مدينة (كوان سى) طوال الليل وشكروا أسوارهم حيث
تطويه الصاعقة التي يمكنها تفجير وتدمير ذلك الغمد!.

انتشر المرض فى أرجاء المدينة، مثل جمع من الكلاب الشريرة
وأغلقت المتاجر أبوابها، وأصبح السكان يعملون الآن دون كلل، لشهور
لا متناهية فى إعادة تشكيل الأسوار، لتشبه الموت ذاته، الذى يقعق
عظامه البيضاء فى الريح وكائنها آلات موسيقية.

وبدأت الجنازات فى الظهور عبر الشوارع، على الرغم من أن الوقت
كان منتصف الصيف، حيث كان من المفروض أن ينشغل كل السكان
بالحصاد وجمع المحاصيل الزراعية.

وابتلى الموظف العام بمرض عضال، مما أدى إلى نقل فراشه إلى
حيث الستار الحريرى وهناك رقد فى حالة بائسة، وأخذ يصدر أوامره
للمهندسين المعماريين والبنائين، وفى غضون ذلك، أصبح صوت الآلة
الذى يأتى من خلف الستار الحريرى، ضعيفاً أيضاً وواهنًا مثل الريح
فى الطنْف^(٦).

لقد تحولت أسوار مدينة (كوان سى) لتصبح على شكل نسر،
ومن ثم يجب أن تكون أسوارنا على هيئة شبكة لاصطياد ذلك النسر.

(٦) جزء بارز من حافة سقف (المترجم).

ثم أعادوا تشكيل أسوارهم لتبدو مثل شمس حتى تحرق شبكتنا،
وبعدها أعدنا بناء أسوارنا على شكل قمر حتى يحجب شمسهم،

وكافة أصابها الصدا، بدا أن كل أنشطة المدينة على وشك التوقف
وفي النهاية، جاءت الهمسات التي تتم عن الحزن من خلف الستار
الحريري "بحق الآلهة! أرسلوا إلى مدينة (كوان سي) للتفاوض"

وفي آخر أيام الصيف جاء الموظف العام لمدينة (كوان سي)، كان
مريضاً للغاية وشاحب اللون، وحمله إلى قاعة موظفنا العام، أربعة خدم
راجلين يتصورون جوعاً، كان الموظفان العامان يقفان بالكاد، يستندهما
مساعداهما، ووقفاً يواجهان بعضهما البعض، كان تنفسهما سريعاً
وغير منتظم وبدا تجويفاً فمهما كئيباً مثل ربح الشتاء.

وصدر صوت "دعنا نضع نهاية لهذا الأمر".

فأولاً الرجلان العجوزان بما يعنى موافقتهما.

انساب الصوت الخافت قائلاً: "لا يمكننا الاستمرار هكذا، إن شعبنا
لا يفعلان شيئاً سوى إعادة بناء أسوارنا - ومن ثم مدينتينا - إلى شكل
مختلف كل يوم، بل كل ساعة، ولم يعد يتسع وقتهم لصيد الحيوانات
والطيور والأسماك، إنهم حتى ليس لديهم وقت للحب، ولا لتقديم فروض
الطاعة والولاء لأسلافهم، ولا العناية بأولادهم.

قال الموظفان العموميان للمدينتين اللتين على شكل قفص وقمر ورمح
ونار وسيف وغيرها من الأشكال المتباينة - نحن نعتز بهذا".

عاد الصوت يقول "أحملونا إلى حيث أشعة الشمس".
حمل الخدم الرجلين العجوزين خارجاً إلى مكان تغمره أشعة
الشمس أعلى تل صغير.

كان النسيم يهب بخفة في الأيام الأخيرة من الصيف، وعدد قليل
من الأطفال النحفاء، للغاية، يطيرون طائراتهم الورقية التي على شكل
تنانين، بكل ألوان الشمس والصفادع والعشب، ولون البحر والعملات
المعدنية والقمح.

وكانت ابنة الموظف العام الأول، تقف إلى جوار فراشه.
قالت الابنة "أتريان".

قال الرجلان العجوزان: "هذه ليست سوى طائرات ورقية".
ردت الابنة قائلة: "ولكن ما أهمية الطائرة الورقية فوق الأرض؟ لا
أهمية لها على الإطلاق، ترى ما الذي تحتاجه لكي تقوم بدورها وتصبح
مثيرة للإحساس العاطفي والفكري، وروحانية بكل ما تعنيه هذه الكلمة".
قال الآخران "الريح! نون شك".

عادت الابنة تتسائل: "وما الذي تحتاجه السماء والريح، لتجعلهما
ذوي حسن وبها؟".

أجاب الرجلان العجوزان بقولهما: "طائرة ورقية، بكل تأكيد -
طائرات ورقية عديدة، لكسر حدة الرتابة والتماثل في السماء. طائرات
ورقية ملونة، تتساقط مع الريح عالياً".

عندئذ قالت ابنة الموظف العام: "إذن عليكم يا سكان مدينة (كوان سي) إعادة بناء أسوار مدينتكم - للمرة الأخيرة - لكي تبدو مثل الريح، لا أكثر ولا أقل. أما نحن فسوف نقيم أسوارنا لتشبه طائرة ورقية ذهبية، ستضفي الريح جمالاً وبهاء على الطائرة الورقية، وتدفعها إلى ارتفاعات رائعة لا مثيل لها، وسوف تكسر الطائرة الورقية رقابة كينونة الريح، وتعطيها غاية ومعنى. وسيكون كل منها لا شيء، نون الآخر، وبالريح والطائرة الورقية معاً، سوف يكون كل شيء جميلاً ومتعاوناً، وسوف تستمر الحياة وتطول".

عندئذ، شعر الموظفان العامان بالفرحة الفامرة، حتى أنهما تناولا أول وجبة غذائية منذ أيام، وأحسبا على الفور بالقوة، فتعانقا وتبادلا المديح والإعجاب بإفراط! وأطلقا على ابنة الموظف العام، لقب الشاب والرجل وحجر الزاوية والمحارب والابن الحقيقي الذي لا ينسى.

وبعد وقت قصير، افترق الموظفان العامان، وهرع كل منهما إلى مدينته، يغنيان بمرح وبصوت عال وإن شابهه شيء من الضعف ولكنه - على أية حال - ينم عن السعادة والحبور.

وبعد إعادة بناء أسوار المدينتين وفق الاقتراح الذي قدمته ابنة الموظف العام، أصبح اسم إحدى المدينتين، مدينة الطائرة الورقية الذهبية والأخرى مدينة الريح الفضية.

وبفضل التغييرات الجديدة، تمكن السكان من حصد مبرراتهم،
عاد الرجال إلى ممارسة أعمالهم وأصبح الجميع ينصتعون بالصحة
والعافية وهرب المرض بعيداً كحيوان آبن أوى^(٧) خائفاً

وفي كل ليلة كان أهل مدينة الطائرة الورقية الذهبية، يسعون
الريح الطيبة الرقيقة تدعمهم وتشجعهم على العمل والإنتاج، بينما كان
سكان مدينة الريح الفضية، ينصتون إلى الطائرة الورقية وهي تشدو
بالأغاني، والهمسات، وهي ترتفع عالياً في الجو، فتضفي جمالاً وبهاء
على حياتهم.

قال الموظف العام أمام ستارته الخيرية: لقد تم كل شيء على
ما يرام.

(٧) حيوان ثديي شبيه بالثعلب، يعيش في إفريقيا وآسيا. (المترجم)

نفير الضباب

هناك فى المياه الباردة ويعيداً عن البر أخذنا ننتظر كل ليلة حلول الضباب.. وعندما هبط علينا قمنا بتزييت الآلات النحاسية وأضأنا مصباح الضباب فى البرج الحجرى. كنا نشعر كأننا طائران فى السماء الرمادية، أنا و(ماكدون). وجهت الضوء إلى الخارج.. بألوان حمراء وبيضاء ثم حمراء مرة أخرى لكى نرى السفن.. وحتى لو لم تر السفن الضوء، فهناك دائماً صوتنا.. الصوت الجهورى الذى يصدر من نفير الصياب الذى يرتجف خلال طبقات الضباب والذى يذهل طيور التورس ويبعدها مثل مجموعة متناثرة من أوراق اللعب ويجعل الموج يتلاطم ويرغى مزيداً.

سأل (ماكدون): "إنها حياة تتسم بالوحدة.. ولكنك معتاد عليها، أليس كذلك؟".

قلت: "بلى.. إنك ثرثار للغاية.. شكراً لله".

قال وهو يبتسم: "حسناً، هذا دورك على البر الآن.. لكى ترقص مع السيدات وتشرب الخمر".

ماذا يا ترى يا (ماكدون) عندما أتركك هناك بمفردك؟

أشعل (ماكدون) سيجاره وأجابه: "سوف أفكر في أسرار البحر"

كانت الساعة وقتئذ السابعة والربع من تلك الأمسية الباردة من شهر نوفمبر، والجو هائج والضوء ينتشر ذيله في مائتي اتجاه، وبق الضباب يدوى في أعلى البرج. لم تكن هناك أي بلدة لمسافة مائتي كيلو متر بامتداد الشاطئ، وليس هناك سوى طريق متعزل يجرى خلال أراض قفراء شاسعة بجوار البحر.. ولا ينطلق على هذا الطريق سوى عدد قليل جداً من السيارات.. وحول صخرتنا يمتد مسطح هائل من المياه لثلاثمائة كيلو متر تقريباً.. كما أن البحر يخلو تقريباً من السفن.. قال (ماكدون) وهو يفكر بعمق: "نعم، أسرار البحر.. أنت تعلم بالطبع أن البحر ما هو إلا كتلة رقيقة معقدة من الجليد.. وهو يتموج ويرتفع بالآلاف الأشكال والألوان التي لا يتشابه اثنان منها أبداً. وفي إحدى الليالي منذ سنوات مضت كنت موجوداً هنا بمفردى عندما ظهرت كل أسماك البحر على سطح الماء هناك.. شيء ما جعلها تسبح في الماء وتكمن في الخليج.. وهي تقريباً ترتعد وتحقق إلى أعلى إلى ضوء البرج الذي أصبح أحمر اللون ثم أبيض ثم أحمر ثم أبيض وهكذا.. ولذلك أمكنني رؤية عيونها الغريبة.

شعرت بالبرودة.. وبدأت تلك الأسماك كذيل طاووس ضخمة يتحرك باستمرار هناك حتى منتصف الليل.. ثم بدون صوت يذكر تسالت مبتعدة وفي الحال اختفت ملايين منها.. واعتقدت أنها ربما أتت إلى هنا بشكل

ما كل تلك الكيلو مترات للعبادة، نعم هذا يبدو غريباً، ولكن فكر كيف
نظر اليرج إليهم وهو يرتفع لمسافة اثنين وعشرين متراً فوق سطح الماء،
وضوء الله ينتشر في كل اتجاه منه. واليرج يعلن عن نفسه بصوت
متوحش.. لم تعد الأسماك قط، ولكن ألا تعتقد للحظة أنها كانت تعتقد
أنها كانت في حضرة الله؟

ارتعد جسدي، وحدثت في الرقعة المائية الهائلة من حولنا والتي
تمتد إلى لا شيء وإلى لا مكان.

نقث (ماكرون) تخان سيجاره بعصبية وأجفل برهة.. كان عصبياً
بالفعل طوال اليوم دون أن يذكر لماذا وقال: "ياه، إن البحر ممثلي،
تماماً.. ومع كل معدائنا وآلاتنا وغواصاتنا فإتنا نحتاج إلى عشرات
الآلاف من القرون قبل أن تطأ أقدامنا القاع الحقيقي للأراضي الغارقة،
في مملكة الجان الموجودة هناك.. ووقتها سوف نعرف الرعب الحقيقي!..
فكر في هذا، ارجع إلى الوراء إلى عام ٢٠٠ ألف قبل الميلاد في أعماق
هذا البحر.. فبينما كنا نحن البشر نتنزه ونستعرض قوتنا وننفخ في
الأبواق ونقتطع شيئاً ما من بلدان بعضنا البعض ونقطع رؤوس بعض،
كانوا يعيشون أسفل هذا البحر عند عمق يبلغ ٢٠ كيلو متراً تحت سطح
البحر في مياه باردة جداً في الزمن السحيق.

نعم، نعم.. إنه عالم قديم للغاية.

هيا.. إنني أعرف شيئاً خاصاً جداً ادخرته طويلاً لكي أخبرك
به الآن.

صعدا على ٨٠ درجة حرجية وهما يتكلمان ببطء على راحتتهما..
وعلى القمة، أطفأ (ماكدون) أنوار الحجرة حيث يتعدم انعكاسها على
الألواح الزجاجية، وكانت العين الضخمة المضيئة تظن وتدور بكل سهولة
فى مبيتها الأملس الأزرق.. وكان سوق الضباب يدوى بشكل مستمر
لا يتوقف أبداً، نورة كاملة كل ١٥ ثانية.

أوما (ماكدون) برأسه كمن يحدث نفسه وقال: يبدو مثل صوت
حيوان ما، أليس كذلك؟.. بلى، حيوان ضخم وحيد يصيح مكتئباً وسط
الظلام الدامس.. وهذا الحيوان يجلس هنا على حافة ١٠ بلايين عام
ينادى على الأعماق ويقول لها: أنا هنا، أنا هنا.. وتلك الأعماق ترد عليه،
نعم إنها تجيبه.. أنت موجود هنا منذ ثلاثة شهور يا (جونى) وهكذا
أكون قد جهزتك جيداً.. وتريث برهة يعاين خلالها الظلام والضباب
الجاثمين فوقهما وأردف: فى مثل هذا الوقت من العام، يجىء شىء ما
إلى هنا لزيارة المنارة البحرية.

لا ريب أنك تقصد الأسماك التى ذكرتها منذ قليل؟

لا، هذا شىء آخر.. لقد أخبرت إخبارك بهذا خوفاً من أن تعتبرنى
مخبولاً.. ولكن الليلة هى آخر فرصة لأخبرك بالحقيقة.. إذ لو كان حسابى
للأيام منذ العام الماضى صحيحاً، فإن هذه الليلة هى التى يأتى فيها..
ولا أريد أن أدخل فى تفاصيل كثيرة، عليك أن تراه بنفسك.. وكل ما
عليك أن تجلس هادئاً هنا.. وإذا أردت، يمكنك أن تعبئ حقيبة ملابسك
ومهماتك وخيمتك وتأخذها إلى القارب فتذهب إلى البر حيث تقف

سيارتك على رصيف الزوارق والقوارب على اللسان الأرضي الداخل في البحر، ووقتها يمكنك أن تقود سيارتك إلى أي بلدة قريبة وتتمتع وتلهو هناك وتفعل كل ما يحلو لك.. ولا أستطيع أن ألومك على هذا.. لقد حدث ذلك منذ ثلاث سنوات، واليوم أول مرة يوجد معي هنا شخص ما لكي يؤكد صحة كلامي.. إذن انتظر وراقب ما حولنا جيداً.

مضت نصف ساعة تبادلنا خلالها بعض الهمهمات.. وعندما تضايقنا من الانتظار، بدأ (ماككون) يشرح بعض أفكاره لي.. كانت لديه بعض التصورات المثيرة عن بوق الضباب ذاته.

ذات يوم منذ سنوات كثيرة مضت جاء رجل إلى هنا ووقف وسط صوت المحيط الهائل على شاطئ، بارد لا تشرق عليه الشمس وقال: نحن نحتاج إلى صوت يصل إلى الجانب الآخر من المحيط لكي ينذر السفن، وسوف أصنع أنا هذا الصوت.. سوف أصنع صوتاً يشبه كل الزمان وكل الضباب الذي كان وسيكون.. سوف أصنع صوتاً مثل سرير شارع بجوارك طوال الليل.. مثل منزل خال عندما تفتح بابه.. مثل الأشجار التي تسقط أوراقها في الخريف.. صوتاً يشبه الطيور المهاجرة جنوباً.. صوتاً يشبه رياح نوفمبر والبحر تتلاطم موجاته على صخور هذا الشاطئ، البارد الوعر.. سوف أصنع صوتاً لا نظير له لا يمكن لأحد أن يقوته.. وكل من يسمعه سوف يبكي بكاءً شديداً وسوف تشتد حرارة المواقد والمدفآت.. وكونه صائراً من الداخل سوف يبدو أفضل لكل من يسمعه في البلدات البعيدة.. سوف أصنع من نفسي صوتاً وجهازاً

سيسمونه فيما بعد بوق الضباب، وكل من يسمعه سوف يشعر بالم
وكتابة الأبدية وبمدى قصر الحياة وملذاتها.

نوى صوت بوق الضباب.

قال (ماكدون) بهدوء: لقد ألفت هذه القصة لك لأنى أحاول أن
أشرح لك لماذا يعاود هذا الشيء حضوره إلى المنارة هنا فى كل عام..
إننى أعتقد أن بوق الضباب يناديه وهو يلبي الدعوة و...".

قلت: "ولكن أريد أن أقول إن...".

قاطعه (ماكون): "صه!.. هاهو ذا هناك!.. وأما برأسه إلى الأعماق.

كان هناك شيء ما يسبح باتجاه برج المنارة، كانت الليلة باردة كما
قلت والبرج العالى بارد والضوء الصادر منه يأتى ويختفى، وبوق الضباب
ينادى وينادى عبر الضباب الكثيف المنتشر فى كل مكان.. لم يكن بمقدور
المرء أن يرى إلى بعيد ولا أن يرى جيداً بوضوح، إلا أن البحر العميق
يتحرك فى طريقه على سطح الأرض فى تلك الليلة الباردة فى حالة من
الاستواء والهدوء بلونه الطينى الرمادى.. ونحن الاثنين جالسان هنا
بمقرتنا فى البرج العالى.. وهناك بعيداً جداً فى البداية تكونت موجة
صغيرة ثم تلتها موجة أكبر ثم ارتفاع ثم فقاعة عبارة عن رغوة أو زيد..
ثم فجأة خرج من سطح الماء اليباد رأس ضخماً جداً داكن اللون به
عينان هائلتان ثم بعده برز عنق ثم - ليس جسماً - وإنما المزيد والمزيد
من العنق!.. لقد ارتفع الرأس الغامض إلى نحو ١٢ متراً فوق سطح الماء

فوق رقبة رفيعة داكنة جميلة.. وعندئذ فقط ظهر الجسم كجزيرة صغيرة من المرجان الأسود والصدف وأسماك الاستاكوزا ترتفع من تحت سطح الماء.. ولاحظنا هزة بسيطة للذيل.. وبشكل عام، من الرأس إلى الذيل قدرت أن طول هذا الوحش الخرافى يبلغ حوالى ٢٠ متراً.

لا أعرف ما قلته بالضبط.. لكننى قلت شيئاً ما بالتأكيد.

همس (ماكورن): أثبت.. أثبت.. يا بنى.

قلت مشدوهاً: إن هذا غير ممكن.. غير معقول.

لا يا (جوى).. نحن غير المعقولين.. إنه يبدو كما كان عليه منذ عشرة ملايين عام مضت.. لم يتغير قط.. إننا نحن والأرض الذين تغيرنا، وأصبحنا غير «معقولين».. نعم، نحن وليس هوا.

سبح المخلوق الهائل ببطء وجلال مهيب بعيداً عنا فى المياه الجليدية وأقبل الضباب عليه ثم انزاح عنه بعد أن أخفى شكله للحظات.. إحدى عيسى الوحش لمحت وملكفت وعكست نور المنارة الهائل الأحمر والأبيض والأحمر والأبيض.. كقرص مرفوع عالياً ويرسل إلينا رسالة يشفرة بدائية.. كان صامتاً كالضباب الذى يسبح فيه ويحترقه.

جثعت فى مكاتى قابضاً على سور السلم وهتكت: يا إله السماوات.. إنه ديناصور من نوع ما!

نعم، لابد أنه من سلالة معينة.

لكننا نعلم جميعاً أن الديناصورات انقرضت تماماً منذ زمن بعيد!

لا، إنها فقط اختفت في الأعماق.. هبطت إلى أسفل أعماق المحيط..
تعم بالتاكيد في الأعماق.. وهذه الكلمة حقيقية فعلاً يا (جونى) الأعماق..
ففى هذه الكلمة تتجسد كل معانى البرودة والظلام والعمق الموجودة
فى العالم

ولكن قل لى بريك ماذا سنفعل الآن؟

نفعل؟.. ماذا تقول يا رجلاً.. إن لدينا صلاً لا يمكننا تركه.. ثم إننا
هنا فى أمان أكثر من ركوب أى قارب يأمل الوصول إلى الأرض..
إن هذا الشئ الضخم كالمدمرة الحربية ولعله فى مثل سرعتها تقريباً.

ولكن لم هنا؟.. لماذا يأتى إلى هنا بالذات؟

وفى اللحظة التالية عرفت إجابة سؤالى.. فقد دوى بوق الضباب..
وسرعان ما قام الوحش بالرد عليه.

صدرت صرخة من أعماق الزمن، عبر ملايين السنين من الماء
والضباب.. صرخة معذبة وحزينة ووحيدة ارتعد لها رأسى وقلبى وجسمى
كله.. كان الوحش يصرخ فى البرج.. ودوى بوق الضباب.. وجاز الوحش
مرة أخرى.. ودوى بوق الضباب.. وفتح الوحش فمه الضخم المستلء
بالأسنان وأطلق صيحة هائلة مماثلة لدوى بوق الضباب بالضبط.. صيحة
هائلة وموحشة وبعيدة جداً فى الزمان والمكان.. صوتاً يدل على العزلة
والآلم من بحر خفى عن ناظرى فى تلك الليلة الباردة والوحدة القاتلة..
نعم، كان هذا هو الصوت الذى سمعناه.

همس (ماكون) لى: "والآن، هل عرفت لماذا يأتى إلى هنا؟"

أومات برأسى دليلاً على أننى أعرف الآن.

طوال العام يا (جونى) يقبع هذا الوحش البائس جاثماً على بعد آلاف الكيلو مترات وعند عمق ربما يصل إلى ثلاثين كيلو متراً يضيع وقته فى لا شىء.. لعل هذا المخلوق عمره مليون عام.. ففكر فى ذلك يا (جونى).. هذا الوحش ينتظر مليون عام، هل يمكنك الانتظار مثل هذه المدة؟.. لعله آخر وحش من سلالته أو نوعه.. أنا مقتنع بأن هذا ما حدث لذلك المخلوق.. على أى حال فقد جاء رجال إلى هذا المكان وبنوا المنارة منذ خمس سنوات.. وصنعوا برق الضباب هذا ونفخوا فيه ليدوى ويدوى بصوت هائل إلى بعيد باتجاه المكان الذى تعيش وتنام فيه كل ليلة وتحلم بالذكريات البحرية لعالم قديم عاش فيه آلاف المخلوقات مثلك.. لكك الآن وحيد ومكتئب.. تعيش بمفردك فى عالم لم يصنع لك أنت بالذات.. عالم عليك أن تخفى فيه باستمرار.

ببدا أن صوت نغير الضباب يجىء ويذهب، يجىء ويذهب.. ولذا فإنك تتضايق من القاع الطينى فى الأعماق الهائلة وتنفث عيناك كعدسات كاميرات عملاقة قطرها ستون سنتيمتراً تقريباً وتبدأ تتحرك ببطء شديد إذ إنك تحمل ثقل ماء المحيط كله على كتفك.. غير أن صوت برق الضباب يخترق آلاف الابتسامات فى الماء بشكل خافت ولكن مألوف.. ثم لا يلبث أن يتقد القرن الجاثم فى بطنك وتبدأ ترتفع من الماء ببطء شديد.. ويسرعة تتغذى على أعداد ضخمة من أسماك القد

والباكلاله والمنوه الصغيرة، وأيضاً على شلالات من قناديل البحر،
وأخيراً ترتفع ببطء فى شهور الخريف بدءاً من سبتمبر حين تبدأ سحب
الضباب وحتى أكتوبر، حيث يزداد الضباب كثافة والبرق مازال يدوى
متادياً إياك.. وأخيراً فى شهر نوفمبر بعد أن تكون تكيفت مع الضغط
يوماً عقب آخر، ويزداد قربك من سطح الماء كل ساعة، تقترب أخيراً من
سطح الماء وأنت مازلت على قيد الحياة..

وبالطبع عليك أن تتحرك ببطء، فإذا طغوت على السطح فوراً فإياك
ستفجر.. وبالتالي فانت تحتاج إلى ثلاثة شهور لكى تطفو، ثم بضعة أيام
لكى تسبح فى المياه الباردة حتى تصل إلى المنارة.. وأنت وصلت الآن
بالفعل إلى هناك فى الليل يا (جونى).. أكبر وحش لعين ظهر فى الوجود..
وهاهو ذا نور المنارة ينادى عليك من برج مرتفع على عنق طويل مثل
عنقك البارز من الماء.. وجسمه ضخيم يشبه جسمك.. والأهم من ذلك كله
أن له صوتاً كصوتك.. هل تفهم الآن يا (جونى).. هل فهمت؟..

نوى صوت بوق الضباب.

ورد عليه الوحش بصوت مماثل.

رأيت بنفسى كل شىء وفهمت بمفردى كل شىء.. ملايين السنين
من الانتظار وحيداً لعودة شخص ما لم يعد قط.. ملايين السنين من العزلة
فى باطن البحر، حيث يصيبك الزمن الطويل بالخبل.. حيث تخلو السماوات
من الطيور الزاحقة.. والمستنقعات تكون قد جفت على أراضى القارات..
وحوانات الكسلان والنمور الشرسة مسيفة الأسنان، أخذت فرصتها

للحياة ثم غرقت في حفر من القار، وكان البشر يركضون فوق القلل
كالزمل الأبيض.

حينئذ دوى نغير الضياب.

قال (ماكديون): في العام الماضي، ظل هذا المخلوق يسبح في
دوائر متتالية، طوال الليل. ولكنه لم يقترب كثيراً من المنارة، والرأي
عندي أنه كان متحيراً. ولعله كان خائفاً وغاضباً إلى حد ما، بعد أن
قطع كل هذه المسافة الشاسعة.

بيد أنه في اليوم التالي - وعلى غير المتوقع - انقشع الضياب،
وسطعت الشمس بعنفوانها، وأصبحت السماء زرقاء صافية وكانها لوحة
زيتية مرسومة، وسيح الوحش بعيداً عن الحرارة والسكون، ولم يعد إلى
هذه المنطقة، واعتقد أنه كان يحوم مطوقاً المنارة لمدة عام، وبمعن التفكير
لها طوال الوقت.

أصبح الوحش على بعد نحو مائة ياردة^(١) من المنارة، وتزامنت
صباحاته مع دوى نغير الضياب، وكانهما يناديان على بعضهما البعض،
وعندما كان يسقط ضوء المنارة على الوحش، كانت غيظاه المروعتان
تبدوان كما لو أنهما ينمان عن الرغبة والكراهية في نفس الوقت، مثلما
تمتزج النار بالثلج^(٢).

(١) الyarde تساوي نحو ٩٠٠ من المتر. (المترجم)

(٢) إشارة إلى قصيدة شهيرة للشاعر الأمريكي (روبرت فروست) ١٨٧٩-١٩٦٣. (المترجم)

قال (ماكدون) هذه هي الحياة، دائماً شخص ما ينتظر شخصاً
آخر ان يأتى أبداً إلى المنزل. دائماً يحب أحد الأشخاص شيئاً ما،
أكثر مما يحبه هذا الشيء.

وبعد فترة يحاول أن يدمر هذا الشيء - أياً كان - حتى لا يسبب
له المزيد من الألم.

توقف الوحش عن السباحة وجمد مكانه وتطلع بعينه المروعتين
إلى المنارة.

وحينئذ دوى نغير الضباب.

قال (ماكدون) دعنا نشاهد ما الذى سوف يحدث.

وقطع التيار الكهربائى عن نغير الضباب فتوقف عن الدوى.

كانت دقيقة الصمت التى نجست عميقة الأثر، إلى الحد أننا كنا
نسمع قلوبنا تنبض بقوة، فى منطقة المنارة المطوّقة بالزجاج، كما أنه
كان بمقدورنا أن نسمع الحركة الروتينية لمصباح المنارة الذى يدور فى كل
الاتجاهات بانتظام.

استمر الوحش فى التوقف عن السباحة وأخذ يطرف بعينه ثم فتح
فمه الهائل على اتساعه، وأصدر صوتاً عميقاً وعالياً وكأنه يصدر من
بركان ثائر.

ثم راح يحرك رأسه بعنف فى كل الاتجاهات، كما لو كان يبحث
عن الأصوات التى تضاعلت الآن فى الضباب المتكاثف، عاد يحدق فى
المنارة، وأصدر الصوت العميق والعالي من جديد.

وفجأت تألقت عيناه ببريق غريب، وانتصب بجسمه الجبار،
وأخذ يشق المياه بقوة متدقاً باتجاه برج المنارة، وكانت عيناه تمان
عن الغضب الذي يصاحبه ألم جسدى مبرح.

صرخت قائلاً: " (ماكدون) أوصل التيار الكهربائى بنفير
الضباب! "

تحسس (ماكدون) المفتاح الكهربائى، وحتى عندما ضغط عليه، كان
الوحش مازال منتصباً بجسمه فى المياه، واستطعت - بنظرة خاطفة -
أن ألمح مخالفه الهائلة والحرارشف التى تغطى جسمه، وتنتظم
فى تركيبات متشابكة، بين البروزات الشبيهة بالأصابع، ثم أنشب مخالفه
فى الهواء، باتجاه البرج.

وتألقت عينه اليمنى الهائلة، فى رأسه الذى يعانى من العذاب، وبدأ
أمامى وكأنه مرجل مشتعل، ربما أسقط فيه صارخاً، اهتز برج المنارة.
ودى نفير الضباب وصاح الوحش، بعد أن وصل إلى البرج وأمسك به
وأخذ يقضم - ويصر بأسنانه - الزجاج الذى تحطم إلى الداخل
فوق رؤوسنا.

أمسك (ماكدون) بذراعى بقوة صائحاً إلى أسفل الدرج! "

تأرجح البرج واهتز بعنف وبدأ فى الانهيار، واختلط دوى نفير
الضباب بصرخات الوحش، كنا نركض متعثرين وكدنا أن نسقط فوق
سلالم الدرج، صاح (ماكدون) "هيا بسرعة! "

وصلنا أخيراً إلى أسفل الدرج، بينما كان البرج ينهار بالفعل في اتجاهنا، هرعنا إلى تحت الدرج، حيث يوجد قبو حجري صغير. كانت هناك آلاف الارتجاجات، بينما كانت الحجارة تنهمر فوقنا، عندئذ توقف نفير الضباب فجأة. اصطدم الوحش بالبرج بعنف، مما أدى إلى سقوطه. جثونا معاً على ركبنا، كنا نمسك بعضنا بعضاً بإحكام، بينما كان العالم من حولنا ينفجر.

ثم انتهى كل شيء، ولم يبق سوى الظلمة وتكسر أمواج المحيط فوق الصخور والحجارة الرطبة، حينئذ سمعنا صوتاً ما، قال (ماكبون) بتؤدة "انصت، انصت جيداً".

وانتظرنا حوالي دقيقة، ثم بدأت أسمع الصوت. أولاً كان عبارة عن سحب هائل للهواء ثم نواح وحيرة وتشووش، إنها الوحدة المروعة التي يعاني منها الوحش الجبار، الذي أخذ يعلو ويفرد أعضائه جسمه، بالقرب من مكاننا ولكن خارج البرج، وملأت الجو الرائحة النتنة المقرزة التي كانت تفوح منه، إذ لم تكن تفصلنا عنه - ونحن داخل القبر الحجري - سوى خانة حجارة جدار البرج المهدم.

كنا نسمع لهاث الوحش وصيحاته المدوية، وكان البرج قد أصبح مجرد أنقاض. وانطلقاً مصباح إرشاد السفن في المنارة. واختفى ذلك الشيء الذي كان يتأديه، عبر مليون سنة! وأخذ الوحش يفتح فمه ويصدر أصواتاً مروعة مراراً وتكراراً، يحد بها دوى نفير الضباب.

وكانت السفن في المحيط تتلمس طريقها في الظلمة باحثة عن مصباح الإرشاد ولكن دون جدوى. ولكن ربما أثناء مرورها بهذا المكان في وقت متأخر من الليل، اعتقدت أنها تسمع ذلك الصوت الوحيد لنفير الضباب في الخليج المنعزل، ومن ثم تيقنت بأن كل شيء على ما يرام، وأنها دارت حول الرأس^(٢) بسلام.

وهكذا انقضى الليل.

بعد ظهر اليوم التالي، كانت الشمس حارة ولافحة، عندما جاء رجال الإنقاذ ليخرجونا من تحت الأنقاض، ونحن نقبع في القبر الحجري.

قال السيد (ماكدون) بأسى: لقد سقط البرج، هذا كل ما في الأمر. لقد لطمتنا الأمواج العالية بعنف ثم توقفت ثم قرصني في ذراعي لأصمت.

لم يكن شيء غير عادي. كان المحيط هادئاً والسماء زرقاء صافية. ولم يكن هناك سوى الرائحة العفنة للطحالب الخضراء الكثيفة التي كانت تغطي أجزاء من حجارة البرج المتقوض وصخور الشاطئ. أخذ الذباب يطن من حولنا. وكانت أمواج المحيط وحدها هي التي تنكسر على الشاطئ.

(٢) أرض داخلية في البحر. (المترجم).

في السنة التالية، شيدوا منارة جديدة لإرشاد السفن، ولكن في غضون ذلك الوقت، كنت قد حصلت على وظيفة في المدينة الصغيرة ثم تزوجت وعشت في منزل أنيق صغير ودافئ، ويتألق باللون الأصفر في ليالي الخريف، حيث تبقى الأبواب مرصدة، وتتفت منحنينا الدخان، أما بالنسبة إلى السيد (ماكدون) فقد أصبح مديراً للفنار الجديد، الذي شيد وفقاً للمواصفات التي طلبها، وبخاصة الأسمنت المقوى بالصلب، وكان يقول لي: "يجب أن نحتاط لكل الأمور".

كان الفنار الجديد جاهزاً في شهر نوفمبر. ذات مساء قادت سيارتي منفرداً إلى هناك وأوقفتها بالقرب من البرج، وحدثت في مياه المحيط الرمادية، وأنصت إلى نوى تغير الضباب الجديد، مرة ومرة وثلاثاً وأربع مرات، كان هناك وحيداً بلا رفيق.

وتسألت في نفسي: "أين الوحش؟"

إنه لم يعد إلى هنا قط.

وقال لي (ماكدون) "ذهب الوحش بعيداً، وعاد إلى الأعماق، ومما حدث تلقيت درساً لن أنساه، بأنك لا تستطيع أن تحب شيئاً ما إلى حد كبير، في هذا العالم، لقد عاد الوحش إلى أعماق المحيط، ليبقى هناك مليون سنة أخرى، ينتظر. أه، يا له من مخلوق مسكين جدير بالشفقة! إنه ينتظر هناك بلا ملل، بينما يولد البشر، ويموتون فوق هذا الكوكب الذي يراه، إن الوحش يظل ينتظر وينتظر!"

جلست فى سيارتى، أنصت. لم أكن أرى الفئار أو مصباحه الدوار
الذى يرشد السفن، فوق الخليج المنعزل، لم أستطع أن أسمع إلا دوى
نقيير الضباب، فقط نقيير الضباب الذى كان دويه يشبه صوت
نداء الوحش.

قبعت فى مكانى لا أتحرك، متعنيًا أن تكون هناك كلمات
أستطيع أن أتفوه بها.

المباراة الكبرى بين السود والبيض

ملأ الناس المدرجات خلف الحاجز السلكى وأخذوا ينتظرون بترقب.. والأطفال الأمريكيون يتقاطرون من البحيرة ويعدون فى مرح بين الأكواخ البيضاء باتجاه فندق المنتجع وهم يصيحون ويجلسون على المدرجات ويتركون عليها علامات من بقع مبللة.

ضربت الشمس بأشعتها الحارقة أشجار البلوط الباسقة التى تحيط بملعب البيسبول. أبائنا وأمهاتنا، وهم مرتدون سراويل الجولف وملابس الصيف الخفيفة، ينهرونا ويأمروننا بالجلوس فى هدوء.

نظرنا باتجاه الفندق والباب الخلفى للمطبخ الواسع ونحن ننتظر، ثم بدأت بعض النسوة الزنجيات فى السير عبر المساحة التى تكتنفها الظلال فى المنطقة المتوسطة، وفى غضون عشر دقائق امتلأ القسم الأيسر من المدرجات بالمرح والبهجة بوجوههم وأذرعهم ذات السمرة النضرة النظيفة. وبعد كل تلك السنوات عندما أتذكر تلك الأحداث أشعر بأننى مازلت أسمع الأصوات التى صدرت فيها.. كان الصوت السارى فى الهواء الدافئ وقتئذ يشبه الحركة السلسة لأصوات هديل الحمام فى كل مرة تحدث فيها تلك النساء مع بعضهن البعض.

اتسم الجميع بالمرح والسعادة وارتفعت الضحكات عاليًا في سماء
(ويسكونسن) الزرقاء الصافية، وانفتح باب المطبخ على مصراعيه وخرج
منه يعدو الضخم والصغير والسمر الذين يرتدون الملابس الموحدة وهم
يتהלلون ويصيحون.. وكذلك النادلون والبوابون وعمال المطاعم والفوتية
والطهارة وعمال النظافة والبستانيون ومشرقي ملاعب الجولف المفتوحة
على شواطئ البحار والمحيطات.

أقبل هؤلاء وهم يثيرون مرحًا ويظهرون أسنانهم البيضاء الجميلة
وهم فخورون بملابسهم الموحدة الجديدة المخططة بخطوط حمراء،
وأحذيتهم اللامعة ترتطم وتنخفض على النجيل الأخضر أثناء دورانهم
حول المدرجات ثم يتحركون خارجين بكسل من الملعب وهم يتأبون على
كل شخص وعلى كل شيء.

صاح الفتيان الأمريكيتون.. كان من بينهم لوني جونسون، الرجل
الذي يقطع النجيل والحشائش، وكافأته، عامل محل تقديم المشروبات،
وشورتى سميت وبنت براون وجيم ميلر!

وهناك أيضًا بيج بو.. الذي صاح الفتيان الأمريكيتون وصفقوا
استحسانًا لرؤيته.. وكان بيج بو هو الشخص طويل القامة الذي يقف
بجوار جهاز صنع الفشار كل ليلة داخل سرادق الرقص الفاخر الذي
تكلف مليون دولار البعيد خلف الفندق على شاطئ البحيرة.. وفي كل ليلة
كنت أشترى الفشار من بيج بو الذي كان يصب على فشاري كمية كبيرة
من الزيت الشهي.

ضربت الأرض بقدمي وصححت: "بيج بو، بيج بو". ونظر هو باتجاهي وفرد شفتيه ليخرج أسنانه البيضاء وأوح بيده وأطلق ضحكة عالية.. ونظرت أسي إلى ناحية اليمين ثم إلى اليسار وإلى خلفنا بعينين قلقتين ثم دفعت مرفقي بذراعيها وقالت: "أسكت.. أسكت..".

قالت السيدة الجالسة بجوار أسي وهي تهوى على وجهها بورقة مطوية: "لاند، لاند.. هذا يوم جيد لأولئك الزوج الخدم، أليس كذلك؟"، إنه الوقت الوحيد من العام الذي يتصرفون فيه من القيود.. إنهم ينتظرون طوال الصيف إلى المباراة الكبرى بين السود والبيض.. لكن هذا ليس كل شيء.. هل شاهدتهم وهم يرقصون رقصاتهم الزنجية الصاخبة؟

ودت أسي: "لقد حصلنا على تذاكر ذاك الاحتفال.. الذي سيعقد الليلة بالسرايق.. وكففتنا دولاراً للتذكرة الواحدة، وهذا سعر مبالغ فيه في رأيي".

قالت المرأة: "ولكنني أرى أن عليك أن تتفقى بعض المال وأوسرة واحدة في العام.. والحقيقة أن رؤيتهم يرقصون شيء رائع.. إنهم يتسعدون بطبيعتهم ب...".

قالت أسي بسرعة: "يا إيقاع".

واصلت المرأة: "نعم هذه هي الكلمة.. الإيقاع.. هذه هي الصفة الصحيحة.. يا لاند، يجب أن ترى أولئك الزنجيات هناك في الفندق.. إنهن يشقرين أقمشة من الساتان بالمحل الكبير بمايسون منذ شهر حتى الآن.. وفي كل دقيقة من الراحة يجلسن يتضحكن ويحكّن الثياب..

ورأيت بنفسى بعض الريشات التى اشتريتها لتزيين قبعاتهن..
إنها ريشات الألوان الصفراء والحمراء والزرقاء والبنفسجية
أوها.. سوف يكون ذلك مشهداً رائعاً.

وقلت أنا: "إنهم يهزون الآن ستراتهم السوداء.. لقد رأيتهم يعلقونها
على حبال الغسيل خلف الفندق طوال الأسبوع الماضى".

وقالت أمى: "انظر إليهم وهم يشبون ويرقصون فرحاً.. إن المرء
يعتقد أنهم يعتقدون أنهم سيفوزون على رجالنا فى المباراة".

أخذ الرجال السود يجرون جينة وذهاياً ويصيحون بأصواتهم
العالية المزعجة أو الخفيضة المضجرة.. ويعيداً فى الثلث الأوسط من
أقصى الملعب خلف القاعدة الثانية يمكنك أن ترى لمعان أسنانهم
وأذرعهم السوداء العارية المرفوعة إلى أعلى تتأرجح وتصطدم
بأجنابهم أثناء قفزهم إلى أعلى وأسفل.. وعدوهم كالأرانب البرية
بحماس وحيوية شديدين.

أمسك (بيج بو) بملء قبضته عدداً من مضارب كرة البيسبول
وكومها فوق كتفه الضخمة وأخذ يتبحر بها على طول خط القاعدة
الأولى رأسه للخلف وقمه مفتوح عن آخره يفتر عن ابتسامة ولسانه
يتحرك وهو يغنى قائلاً:

"سوف أرقص وأنا خال حذائى هذين.. عندما تصدح موسيقى
الجاز الزنجية الحزينة.. ليلة الغد بالحفلة الراقصة بصالة "المختالين"
فى مشيتهم السوداء.

ارتفعت ركبته إلى أعلى وأسفل وإلى الخارج، والمضارب تتأرجح على ظهره كعصى قادة الفرق الموسيقية.. وانطلقت عاصفة من التصفيق والضحك الرقيق من المدرجات المسقوفة اليسرى، حيث تجلس الفتيات السوداوات يرمقن بعيونهن البنية اللامعة اللاعبين بحماس واهتمام.. كن يقمن بحركات سريعة رشيقة ومرحة، ربما بسبب لونهن الملحوظ. وكن يضحكن كطيور خجلة ويلوحن بأيديهن إلى (بيج بو)، وصاحت إحداهن بصوت عال: "أوه.. (بيج بو) أوه، (بيج بو)!"

وشارك القسم الأبيض في الهتاف بأدب عندما أنهى (بيج بو) مشيته الراقصة وصحت مرة أخرى: "هيه، (بيج بو)!".. بيد أن أمى بادرتنى قائلة: "أوقف ذلك يا (دوجلاس)!"

الآن أقبل الرجال البيض يعدون من بين الأشجار وهم يرتدون زيهم الموحد.. ودوت أصوات التشجيع والصراخ في المدرجات التي تجلس بها.. وجرى الرجال البيض عبر الملعب الأخضر (الذي على شكل معين) ولونهم الأبيض يسطع ويتلألأ.

قالت أمى: "أوه.. هذا هو العم (جورج)!".. ياللعجب، ألا يبدو رائعاً للغاية؟"

ورأيت عمى (جورج) يسير بخطوات قصيرة بملايسه التي لم تكن مناسبة.. لأن عمى (جورج) له كرش ضخم ولغد يبرز إلى خارج ياقة أى قميص يلبسه.. وكان يسير مسرعاً ويحاول أن يلتقط أنفاسه ويبتسم

فى نفس الوقت ويرفع ساقيه القصيرتين السميكتين.. وقالت أمى بحماس: "يا إلهى، إن ساقيه رائعتان".

جلست هناك أراقب حركاتهم.. وجلست أمى بجوارى، وأعتقد أنها كانت تقارن وتفكر أيضاً.. وما رأيته أدهشها وأحبطها فى نفس الوقت.. لقد أقبل الرجال السود أولاً بسهولة وهم يجرون، مثل الغزلان والظباء التى تجرى بالحركة البطيئة فى تلك الأفلام السينمائية الأفريقية، مثل الأشياء التى نراها فى أحلامنا. أقبلوا كحيوانات سمراء، متألقة لا تعرف أنها على قيد الحياة ولكنها تعيش بالفعل.. وعندما جروا وحركوا سيقانهم الرشيقة القوية دائماً وأتبعوها بأثرعتهم المقرودة الضخمة وأصابعهم السائبة وأخذوا يبتسمون وسط الرياح المنطلقة، لم تكن تعبيرات وجوههم تقول: "انظروا إلى وأنا أجرى.. انظروا إلى وأنا أجرى!".. لا، مطلقاً.. كانت وجوههم تقول فى غموض: "يا إله السماوات، من المؤكد أن الجرى شىء جميل.. إن الأرض تهتز برفق من تحت قدمى!.. عجباً.. إننى أشعر بأننى على ما يرام.. وعضلاتى تتحرك بمنتهى السهولة على عظامى، والحقيقة أن أفضل متع العالم هى الجرى!".. نعم، كانوا يجرون.. ولكن لم يكن هناك أى هدف من جريهم سوى شعورهم بالبهجة والانتعاش.

أما الرجال البيض فقد أخذوا يجرون كما يفعلون أى شىء آخر.. وأنت تشعر بالحيرة بالنسبة إليهم لأنهم فى قمة النشاط ولكن فى الطريق الخطأ!.. ويتظنون دائماً من ركن أعينهم لكى يرون هل تراقبهم أم لا..

أما الزوج فلم يكن يهمهم إذا كنت تراقبهم أم لا.. فقد كانوا يمارسون حياتهم ويتحركون في كل مكان.. كانوا واثقين من لعبهم بحيث لم يكن لديهم أى داع للتفكير في هذا الأمر مرة أخرى.

قالت أمى: "يا للعجب، إن رجالنا يبدوون راضين جداً" وأخذت تكرر ذلك بلا مبالاة.. لقد رأت وقارنت بين الفريقين.. ومن الداخل كانت تدرك مدى استرخاء الرجال الملونين وهم يتأرجحون في ملابسهم الموحدة، ومدى توتر وعصبية الرجال البيض وهم متكدسون ومحشورون ومربوطون داخل ملابسهم.. وأعتقد أن التوتر بدأ هناك.

أظن أن كل الناس لاحظوا ما يحدث.. ورأوا كيف أن الرجال البيض بنوا كأعضاء البرلمان الذين يرتدون ملابس تناسب الشمس القوية.. وفي نفس الوقت أعجبوا باللامبالاة الرائعة للرجال الملونين.. وكما هو الحال دائماً تحول الإعجاب إلى حسد وإلى غيرة، وإلى غضب.. وتحول أيضاً إلى حديث مثل

- هذا زوجي (توم) على القاعدة الثالثة.. لكن لماذا لا يرفع قدمه، إنه واقف فقط هناك.

- لا تنزعجى.. لا تنزعجى يا عزيزتى.. سوف يرفعهما عندما يحين الوقت.

- هذا ما أقوله بالضبط.. الآن مثلاً خذى حالة (هنرى).. (هنرى) لا يكون نشيطاً طوال الوقت، ولكن في وقت الشدة والمواقف الصعبة،

لفقط عليك أن تراقبيه.. آوه - كم أتمنى أن يلوح لنا بيده أو يفعل شيئاً يشبه ذلك.. هاى! أنت هناك! هالو يا (هنرى)!

- انظري إلى (جيمى كوستر) وهو يلهو هناك!

نظرت ورأيت رجلاً متوسط الحجم أبيض اللون أحمر الشعر وجهه به نمش يستعرض على الملعب المعين الشكل ويحافظ على توازن مضرب كرة البيسبول موضوعاً على جبهته.. وتعالى الضحكات من مدرجات البيض المسقوفة، ولكنه كان يبدو كضحكتك عندما تجد نفسك متحيراً أو مرتبكاً بخصوص شخص ما.

قال الحكم: "ليبدأ لعب الكرة".. وقذف بعملة معدنية.. وعندئذ بدأ السود فى الإمساك بالمضرب لضرب الكرات.. وهتفت أُمى: "اللعة!.."

جرى الرجال السود من أقصى الملعب بسعادة.. وكان (بيج بو) أول من أمسك بالمضرب.. وهتف له، وأمسك هو بالمضرب بيد واحدة مثلما يمسك المرء بعود تخيل الأسنان واسترخى فوق قاعدة ماسك المضرب ووضع المضرب على كتفه السميك، وابتسم بطول سطحه المصقول باتجاه المدرجات، حيث تجلس النساء الملونات بملابسهن ذات الألوان الزاهية التى يحركها الهواء فوق سيقانهن التى انحشرت بين فواصل المقاعد كأعواد الزنجبيل البنية القصفة.. وشعورهن تقطير بجمال فوق آذانهن.. ونظر (بيج بو) بوجه خاص إلى القوام الرشيق الأنيق لصديقتة (كاترين).. كانت هى الفتاة التى ترتب السرر بالفندق

وأكواخ العطلات الأسبوعية كل صباح، والتي تدق على بابك كالطائر
برقة وتسالك بأدب: هل انتهيت من نومك الحالم أم لا.. لأنك إذا كنت
انتهيت منه فعلاً فإنها تبدأ فى تنظيف السرير ورفع البياضات القديمة
وإحضار دفعة جديدة منها وتقول لك برقة أرجوك استخدم واحدة منها
كل مرة.. شكراً.

هز (بيج بو) رأسه وهو ينظر إليها كما لو كان لا يصدق أنها هناك
بالفعل.. ثم استدار وإحدى يديه تحفظ توازن المضرب ويده اليسرى تتدلى
بجواره انتظاراً لرميات الكرة التحضيرية. مرت الكرات بجواره وانقضت
داخل القم المفتوح لقفاز ماسك الكرة ثم ارتدت على الفور.. وتتحنج
الحكم، فقد كانت الرمية التالية هى أول رمية فى المباراة.

ترك (بيج بو) أول كرة تمر من جواره.. وقال الحكم: "أضرب!"..
وغمز (بيج بو) بعينه إلى الحاضرين البيض بهجة وبشاشة.. ثم (بانج!)..
وصاح الحكم: "أضرب!".. وأقبلت الكرة لثالث مرة، وفجأة تحول (بو)
إلى آلة مفصالية حسنة التزييت واندفعت يده المتدلية بجواره إلى المقبض
الطرفى للمضرب والتف المضرب واستقبل الكرة بقوة.. "والله!".. وانطلقت
الكرة عالياً فى السماء وبعيداً باتجاه الصف المتعرج من أشجار البلوط
ثم هبطت باتجاه البركة، حيث كان هناك قارب صغير يتساقب فى هدوء
على صفحة الماء.. وهتف الحشد، وأنا أعلى منهم كلهم!.. وأخذ عمى (جورج)
يجرى إلى هناك على ساقيه القصيرتين البدينتين الملفوفتين داخل جوربين
صوفيين.. وأخذ جسعه يصغر أكثر فأكثر كلما ابتعد أكثر.

وقف (بيج بو) للحظة يراقب الكرة وهي تنطلق إلى بعيد، ثم بدأ يعدو، ولف حول القواعد وهو يتبختر وفي طريق عودته من القاعدة الثالثة لوح بيده إلى الفتيات الملونات بسعادة وبشاشة، ولوحن بأيديهن له وهن يقفن على المقاعد ويصحن في صخب.

وبعد عشر دقائق أصبحت فيها القواعد محملة وتم إحراز نقطة وراء أخرى.. عاد (بيج بو) إلى مسك المضرب مرة أخرى.. والتفتت أمي إلى وقالت: "إنهم أكثر أناس متهورين رأيتهم".

- لكن هذه هي اللعبة يا أمي.. لقد تعرضوا لمرتي طرد فقط..

قالت أمي محتجة: "ولكنهم فائزون علينا ٧-٠ صفر حتى الآن".

قالت السيدة الجالسة بجوار أمي وهي تطرد بيدها التي تبرز منها أوردة زرقاء، ذبابة عن وجهها: "حسناً.. فقط انتظري حتى يبدأ رجالنا في مسك المضرب.. إن هؤلاء الزوج أجسامهم ضخمة على بنطلوناتهم القصيرة هذه".

قال الحكم و(بو) يلف المضرب: "اضرب ١٢!". ثم قالت السيدة الجالسة بجوار أمي وهي تحقق في (بو) بنظرة ثاقبة: "طوال الأسبوع الماضي في الفندق، كانت خدمات النزلاء سيئة للغاية.. العاملات لا يتكلمن عن شيء غير مهرجان الرقصات الزنجية.. وكلما طلبت ماء مثلاً يأخذن نصف ساعة حتى يحضرنه لك.. إنهن مشغولات دائماً بأعمال الحياكة".

قال الحكم: "كرة ١".

وانفعلت المرأة بون مبرر وقالت: "سوف يسعدني انتهاء هذا الأسبوع.. أعتقد أن هذا ما ينبغي لي أن أقوله".

قال الحكم موجهًا كلامه إلى (بيج بو): "كرة ١٢".

سألتني أمي: "هل تعتقد أنهم سيطيرونه؟.. هل جن جنونهم؟" ثم التفتت إلى المرأة الجالسة بجوارها وقالت لها: "نعم، هذا صواب.. لقد كانوا يهزلون طوال الأسبوع.. الليلة الماضية اضطرت لإخبار (بيج بو) مرتين لكي يضع زبدًا إضافيًا على فشاري.. أظن أنه كان يريد توفير بعض المال أو شيئًا من هذا القبيل؟".

قال الحكم: "كرة ١٣".

صرخت السيدة الجالسة بجوار أمي فجأة وهوت لنفسها بعصبية بصحيفة كانت معها وقالت: "يا إلهي! لقد فكرت لتوي في شيء ما!.. أليس من المخيف أن يكسبوا هذه المباراة؟.. هم يستطيعون كما تعلمين.. يستطيعون ذلك".

نظرت أمي إلى البحيرة والأشجار ويديها وقالت: "لا أدرى لماذا لعب عمك (جورج).. لقد جعل نفسه محلاً للسخرية.. (بوجلاس)، اجرِ وقل له أن يتسحب على الفور.. إذ ذلك خطر على قلبه".

صاح الحكم في (بيج بو) قائلاً: "غادر الملعب".

تتهدد كل من فى المدرجات حزناً على ذلك.. وهكذا انسحب جانب الملعب.. ووضع (بيج بو) مضربه بهدوء على الأرض وسار بمحاذاة خط القواعد. وأخذ الرجال البيض يندمون من اللعب وقد احمرت وجوههم وبدوا متوترين.. ومناطق العرق تبدو واضحة فى إبطهم.. ونظر (بيج بو) إلى.. وغمرت له بطرف عينى.. ففعل مثلما فعل.. وعندئذ أدركت أنه ليس غيباً.. لقد خرج من الملعب عن قصد!

الآن بدأ (جونسون) الطويل يقذف الكرة عن فريق الرجال السود.. وحقق بامعان فى الكرة المطاطية وعصرها بأصابعه فى قبضة يده لكى يلين أصابعه. وكان أول رجل يمسك بالمضرب هو (كوديمر) الذى يبيع ملابس فى شيكاغو طوال العام.

وضعهم (لونج جونسون) فوق منصة ضارب الكرة بدقة متواضعة ومحسوبة.. وشق السيد (كوديمر) اللوحة، ثم ضربها ضربة قوية.. وأخيراً ضرب الكرة برقة حتى وصلت إلى خط القاعدة الثالثة.

قال الحكم وهو أيرلندى اسمه (ماهونى): "هيا إلى القاعدة الأولى". الرجل الثانى كان شاباً سويدياً يدعى (مويارج).. وضرب الكرة عالياً إلى الملعب الأوسط، حيث أمسك بها زنجى ممثل الجسم ولكنه لا يبدو بديناً نظراً لأنه يتحرك برشاقة ككرة مستديرة ومرنة من الزئبق.

الرجل الثالث كان (ميلووكى) ويعمل سائق شاحنة.. ضرب الكرة ضربة مستقيمة هائلة باتجاه الملعب الأوسط.. كانت ضربة موفقة، باستثناء أنه حاول ضربها إلى بعيد بحيث تمكن الضارب من الوصول

إلى القاعدة الثانية.. وعندما جرى إلى القاعدة الثانية، كان بانتظاره (سميث) الذى يمسك فى يده الداكنة كرة صغيرة.

غاصت أمى فى مقعدها وأخذت نفساً عميقاً وقالت: "حسناً.. أنا لا يمكننى أبداً!".. وقالت السيدة التى بجوارها: "لقد بدأ الجو يصبح حاراً.. أظن أننى سوف أتمشى حالاً لبعض الوقت على شاطئ البحيرة.. فالجو أسخن من أن أجلس وأشاهد مباراة سخيفة اليوم.. ألا تأتين معى يا سيدتى؟".. كانت تسأل أمى.. وعلى الفور انصرفت بسفردتها وظلت بعيداً طوال خمس جولات^(١).

كانت النتيجة ١١ مقابل لا شىء، وكان (بيج بو) قد ضرب بقوة ثلاث مرات عن عمد، وفى نصف الجولة الخامسة الأخير استلم (جيمى كوزنر) المضرب لصالح فريقنا مرة أخرى.. كان يحاول طوال فترة ما بعد الظهيرة أن يتحرك كمهرج ويعطى تعليمات ويخبر الجميع عن المكان الذى سوف يطلق عليه الكرة كالصاروخ بمجرد استلامه لها..

مشى مختلاً الآن إلى منصة الضارب وهو واثق من نفسه ويتكلم بصوت جهورى.. ست كرات بيديه الممثلتين وأخذ ينظر إليها بعينيه الحائتين الخضراوين اللامعتين الصغيرتين.. اختار إحداها وأسقط الأخريات وجرى إلى منصة الضارب، وهو يجرّ جزراً صغيرة من النجيل الأخضر النضر بكعبيه نوى البروزات.. أزاح قبعته إلى الخلف على

(١) تستغرق لعبة اليبسبول تسع جولات (المترجم).

شعره الأحمر المكسو بالتراب، وقال: "لاحظوا هذه!"، ثم نادى عاليًا على السيدات قائلاً لهن: "راقبيني وأنا أتلاعب بأولادكن الفتيان السود، يا هاه!"

قام (لونج جونسون) الواقف على مرتفع رامى الكرة بتطويح ذراعاً بشكل أفعواتى.. بدت فى الحقيقة كحية تزحف على فرع شجرة، ثم تنفرد فجأة منقضة عليك.. وكان ما أصبحت يد (جونسون) أمامه مفتوحة كفم خال لشعبان.. ثم انقذت الكرة الصغيرة عبر منصة الضارب بصوت يشبه القطع بموسى حاد..

قال الحكم: "أضرربا!"

أنزل (جيمى كوزنر) مضربه إلى جانبه ووقف يحدق فى الحكم.. ولم يقل شيئاً لفترة طويلة جداً.. ثم بصق عن عمد بالقرب من قدم ماسك الكرة، ثم قبض على المضرب الأصفر المصنوع من خشب القيقب مرة أخرى، ولفه حتى لمعت الشمس على حافته بشكل مبهر.. وهرزه بقوة ووضع جانباً على كتفه رفيع العظام، ثم فتح قمه وقفله على أسنانه الطويلة المترسب عليها نيكوتين السجائر.

كلاب!.. هكذا كان صوت قفاز البيسبول الذى يرتديه ماسك الكرة.. واستدار (كوزنر) مندهشاً.. كان الماسك قد فتح قفازه الدهنى، مثل ساحر أسود اللون تلعب أسنانه البيضاء، وكانت كرة البيسبول جاثمة هناك كزهرة بيضاء تتألق.

قال الحكم من بعيد وسط الجو الحار: "أضرب!".

وضع (جيمى كوزنر) مضربه غير منصبة الضارب، وحنى يديه اللتين يغطيهما النمش على وركيه.. وقال: "هل تريد أن تقول لى إن هذه ضربة؟". فقال الحكم: "هذا ما قلته بالضبط.. امسك المضرب جيداً".

قال (كوزنر) بحدة: "سوف أضربك على رأسك به".

- يا هذا إما أن تضرب الكرة وإما أن تغادر أرض الملعب!-

شغل (جيمى كوزنر) فمه لجمع ما يكفى من اللعاب لبصقه، ثم لم يلبث أن ابتلعه بغضب، وبدلاً من ذلك ألقى بشتائم لاذعة.. وانحنى إلى أسفل ورفع المضرب ووضعه كبندقية عتيقة على كتفه.

والآن هاهى ذى الكرة.. بدأت صغيرة ثم تحولت إلى كبيرة أمامه.. هوييبيى!.. كما لو أنها انطلقت بانفجار من على سطح المضرب الأصفر.. وارتفعت الكرة حلزونياً إلى أعلى وإلى أعلى.. ثم انطلق (جيمى) بسرعة متجهاً إلى القاعدة الأولى.. وتوقفت الكرة، كما لو أنها تفكر هناك وهى فى السماء فى مقدار قوة الجاذبية الأرضية..

أقبلت موجة مياه كبيرة على شاطئ البحيرة ثم ارتدت بسرعة.. وصاحت حشود الجماهير.. وجرى (جيمى).. واتخذت الكرة قرارها وهبطت إلى أسفل.. وكان تحتها لاعب طويل القامة ورشيق يبحث عنها.. وسقطت الكرة على نجيل التربة وارتفعت إلى أعلى وأسرعحت إلى القاعدة الأولى..

وشعر (جيمى) بأنه على وشك الخروج من اللعب، ولذلك زاد من سرعته عند القاعدة.. ورأى الجميع بروزات نعله وهى تدخل فى كاحل (بيج بو).. ورأى الجميع الدم الأحمر ينساب من الجرح.. وسمع الجميع الصياح والصراخ والسحب الترايية الضخمة ترتفع.. وبعد دقيقتين أعلن (جيمى) التالى: "لقد بلغت القاعدة بون أن أنسحب"^(٢).

جلس (بيج بو) على الأرض، ووقف كل الفريق الأسود حوله فى دائرة..

وانحنى الطبيب فوقه وتحسس كاحل (بيج بو) وقال: "أمم!.. الحالة سيئة جداً هنا.. ومسح على الجرح بدواء ما ووضع فوقه ضمادة بيضاء..

نظر الحكم إلى (كوزنر) نظرة استنكارية حادة وقال: "هيا، اخرج من الملعب!".

قال (كوزنر): "نعم سأفعل مثل الجحيم!.. ووقف على القاعدة الأولى وهو ينفخ وجنتيه ويشفطهما، ويداه النمشتان تتأرجحان بجانبه.. وقال: "لقد بلغت القاعدة بون أن أنسحب.. سوف أبقي مكانى، يا إلهى!.. لا يمكن لأى زنجى أن يخرجنى من اللعب".

قال الحكم: "لا، الرجل الأبيض يستطيع.. أنا.. انصرف!".

(٢) من قواعد لعبة البيسبول. (المترجم)

- لقد أسقط الكرة!.. راجع قواعد البيسبول! لقد بلغت القاعدة دون أن انسحب!.

وقف الحكم و(كوزنر) يحدقان في بعضهما البعض.. رفع (بيج بو) بصره لكي يعتنى شخص ما بكاحله المتورم.. وكان صوته أجش ومهذباً، وتفحصت عيناه (جيمى كوزنر) بهدوء وقال: "نعم، لقد بلغ القاعدة دون أن ينسحب أيها الحكم.. اتركه يلعب".

كنت واقفاً هناك بالضبط وسمعت كل شيء.. أنا وبعض الأبطال الآخرون هربنا إلى الملعب لنرى اللعب.. وظلت أسمى تناديني لكي أرجع إلى مدرج الملعب.. وقال (بيج بو) مرة أخرى: "نعم، إنه لم يخطئ".. وهنا صاح كل الرجال السود وقالوا له: "ما بالك أيها الفتى الأسود؟ لقد أصبت في رأسك؟.. دعك من هذا".

أجاب (بيج بو) بهدوء: "لقد سمعتني".. ونظر إلى الطبيب الذي يثبت الضمادة له وقال: "إنه لم يخطئ". اتركوه ليلعب.. وهنا أمن الحكم على قوله: "حسناً، حسناً.. إنه لم يخطئ". تراجع الحكم في تشامخ وظهره متشنج وعنقه أحمر اللون.. وتمت مساعدة (بيج بو)، وحذره الطبيب: "الأفضل ألا تسير على كاحلك هذا لبعض الوقت".

همس (بيج بو) بوضوح: "ولكننى أستطيع السير".

قال له الطبيب: "الأفضل ألا تلعب".

قال (بيج بو) برقة وإصرار وهو يهز رأسه والخطوط الرطبة بدأت تجف تحت عينيه الهائجتين: "أستطيع أن ألعب، وسوف ألعب جيداً" .. ونظر إلى المكان وأردف: "سوف ألعب أفضل لعب ممكن". وقال اللاعب الأسود للقاعدة الثانية بصوت ساخر: "أوه!".

نظر كل اللاعبين السود إلى بعضهم البعض وإلى (بيج بو) ثم إلى (جيمى كوزنر) .. وإلى السماء وإلى البحيرة وإلى الحشد الموجود من الجمهور .. وتفرقوا ليأخذ كل منهم مكانه .. ووقف (بيج بو) فى حالة عدم توازن وقدمه المصاية لا تكاد تلمس الأرض .. واعترض الطبيب ولكن لوح له (بيج بو) بيده.

صاح الحكم: "ضارب الكرة بالمضرب يستعد!".

جلستا نحن المتفرجين فى المدرج مرة أخرى .. وقرصنتى أسمى فى ساقى وسألتنى لماذا لم أجلس فى مكانى .. وأحسست بالدفع .. وارتطمت ثلاث أو أربع أمواج بالشامطى .. وخلف الحاجز السلكى هزت السيدات على وجوههن بالمراوح الورقية من شدة الحر، بينما دفع الرجال مؤخراتهم إلى الأمام على الدرجات الخشبية وهم يمسكون أوراقاً فوق حواجبهم المقطبة لرؤية (بيج بو) واقفاً كشجرة السكوية الحمراء القوية هناك على القاعدة الأولى .. ووقف (جيمى كوزنر) فى الظل الكبير لتلك الشجرة الداكنة.

أقبل الشاب (موبيرج) ليضرب بالمضرب من قريقتنا .. ونادى (جيمى كوزنر) بصوت عال كطائر عطشان من على النجيل الأخضر

اللامع: "هيا أيها السويدي.. هيا أيها السويدي..". وصدق فيه كل المتفرجين من المدرج الرئيسي.. ودارت الرؤوس السوداء على محاورها الدامعة في الجزء الخارجي من ملعب اليبسبول، اتجهت كل الوجوه السوداء ناحيته.. وكان في الحقيقة مركز الكون في تلك اللحظة!

ضحك (كوزنر) وقال: "هيا أيها السويدي! دعنا نرى قوة أولئك الزنوج!". ثم تراجع، وساد المكان صمت تام.. لم يقطعه سوى هبوب الرياح على الأشجار العالية المتألقة.

- "هيا أيها السويدي.. أرنا كيف تمسك تلك الكرة اللعينة!"

وقف (لونج جونسون) على مرتفع الرامي ورفع حافة قبعته إلى أعلى فوق رأسه.. ونظر إلى (كوزنر) ببطء وإصرار.. وتظر كذلك إلى (بيج بو).. ولاحظ (جيمي كوزنر) تلك النظرة وصمت وابتلع لعابه بقوة.. وأخذ (لونج جونسون) وقته قبل تطويع ذراعه لرمى الكرة.

تحرك (كوزنر) خطوة بعيداً عن القاعدة إلى الأمام.. وأوقف (لونج جونسون) تجهيزه للرمي.. وخطا (كوزنر) خطوة إلى الخلف ناحية القاعدة وقبل يده وربت بلطف على القبلة وجعلها فوق منتصف منصة ضارب الكرة.. ثم رفع نظره وابتسم يميناً ويساراً.

مرة أخرى لف الرامي ذراعه الطويلة الرقيقة وقبض بقوة بأصابعه الداكنة العاشقة على الكرة المطاطية وسحبه إلى الخلف.. وهنا رقص (كوزنر) أمام حافة القاعدة الأولى.. ووثب (كوزنر) إلى أعلى وإلى أسفل

كالقرد، ولكن الرامى لم ينظر إليه مطلقاً، وتلحصته عيننا الرامى خلسة من الجانب بدهاء واستمتاع.. ثم أدار الرامى رأسه فجأة، مما أخاف (كوزنر) وأعادته إلى منصة الضارب.. ووقف (كوزنر) ساخراً من الجميع.

المرة الثالثة التى ادعى فيها (لونج جونسون) أنه سوف يرمى الكرة كان (كوزنر) قد ابتعد عن منصة الضارب وأخذ يركض باتجاه القاعدة الثانية.. وهنا تحركت يد الرامى برمية خاطفة.. يوم!.. وذهبت الكرة إلى قفار (بيج بو) على القاعدة الأولى.. تجمد كل شيء فى تلك اللحظة لمدة ثانية واحدة.

كانت الشمس مستقرة فى كبد السماء.. وهناك البحيرة التى تسير فيها القوارب.. والمدرجات الكبيرة.. والرامى واقف على منصة الرمي وهو يرفع يده إلى أعلى وأسفل بعد رمي الكرة.. وكان هناك (بيج بو) والكرة قابضة فى يده السوداء القوية.. وكان لاعب الملعب الداخلى يحلق وهو جاثم على الأرض.. وهناك (جيمى كوزنر) يجرى ويثير التراب.. كان هو الشيء الوحيد الذى يجرى فى كل العالم فى هذا اليوم الصيفى!

مال (بيج بو) إلى الأمام ونظر إلى القاعدة الثانية وسحب يده اليمنى الجبارة وأطلق كرة البيسبول البيضاء بسرعة خارقة فى خط مستقيم حتى وصلت إلى رأس (جيمى كوزنر).. وفى اللحظة التالية تم إحباط التعويذة.

استلقى (جيمى كوزنر) ممدداً على النجيل الساخن.. وشدافع الناس إلى خارج المدرجات.. وأخذ بعض الناس يقسمون وبعض النساء يصرخن وتزييق الأخشاب عندما اندفع الرجال فوق الألواح الخشبية بالمدرج المكشوف.. وجرى فريق السود من الملعب.. كان (جيمى كوزنر) ممدداً هناك..

ومرج (بيج بو) إلى خارج الملعب، وكان وجهه خالياً من أى تعبير، ودفع الرجال البيض، كما يزع مجموعة من مشابك الغسيل جانباً، عندما حاولوا إيقافه.. كل ما فعله أنه أمسك بهم وأطاح بهم بعيداً عن طريقه.. وصرخت أمى وهى تمسك به بقوة: تعال يا (بوجلاس).. لنذهب إلى المنزل! ربما معهم أمواس يهاجموننا بها!.. أودا.. هيا..

فى تلك الليلة بعد الشغب الذى حدث فى عصر ذلك اليوم، جلست أسرتى فى المنزل تقرأ المجلات.. وكل الأكواخ المجاورة لنا كانت مضاعة.. كل شخص كان بمنزله.. وسمعت موسيقى تصدح من بعيد.. وتسالت من الباب الخلفى، وسرت فى الظلام الدامس فى تلك الليلة من ليالى الصيف وجريت باتجاه خيمة الرقص.. كل الأنوار كانت مضاعة والموسيقى تعرف.

لكننى لم أر أية أشخاص بيض جالسين عند الموائد.. لم يأت أحد إلى الاحتفال الصاخب.. كان هناك فقط بعض الأشخاص من الزوج.. ونساء يرتدين أثواباً ذات ألوان حمراء وفساتين من الساتان الأزرق وجوارب شبكية وقفازات ناعمة وقبعات مزينة بريشات حمراء، ورجال يرتدون سترات سوداء، لامعة للسهرة.

صدحت الموسيقى فى كل أرجاء المكان.. وارتفع صوت الضحكات
وخطوات الرقص.. وقذف البعض أحذيتهم اللامعة إلى أعلى وإلى
الخارج أثناء تلك الرقصة الزنجية. وخصوصاً حيث يوجد (لونج
جونسون) و(كافانوه) و(جيف ميلر) و(بيت براون) وبالطبع (بيج بو)
الذى يعرج و(كاترين) صديقتة وكل عمال جز الحشائش والتجيل
والبحارة أو النوتية والبوابون وشغالات المنازل.. كلهم فى حلبة الرقص
فى نفس الوقت.

كان المكان معتماً للغاية من كل جهة حول الخيمة.. بينما لمعت
النجوم وسط السماء السوداء.. ووقفت أنا بالخارج، سائداً أنفى على
زجاج النافذة، وناقلاً إلى الداخل لفترة طويلة جداً فى صمت تام.

ثم دخلت فى قراشى دون أن أخبر أحداً بما شاهدت.. فقط تمددت
فى الظلام أشم رائحة النفاح الناضج القادمة من كل مكان.

وأخذت أصغى بانتباه ويقتل إلى الأصوات الصادرة عن البحيرة،
وأنصت بشغف إلى تلك الموسيقى الرائعة التى تأسى خافتة من بعيد وقبل
أن أخلد إلى النوم مباشرة سمعت المقطع الأخير من الأغنية من جديد.

"سوف أرقص وأنا خالع جذائى هذين، عندما تصدح موسيقى
الجاز الزنجية الحزينة ليلة الغد بالحفل الراقص بصالة السود المختالين
فى مشيتهم".

التطريز

كان الهواء فى الرواق المظلم فى ذلك المساء، رَاحرا بومضات
إبر الحياكة التى بدت وكأنها حشد من الحشرات الفضية، تتألق
فى الضوء.

أما السيدات الثلاث اللاتى كن يقمن بالتطريز، فقد كانت شفاههن
تختلج أثناء أدائهن لعملهن، وكانت أجسامهن تستلقى إلى الخلف ثم
تتأرجح إدراكياً إلى الأمام، ومن ثم يصدر صوت خفيض أثناء حركة
الكراسى الهزازة، التى يجلسن عليها، وكانت كل سيدة تنظر إلى يديها،
وكانما اكتشفت فجأة أن قلبها يتبض هناك!

قالت إحداهن كم الساعة الآن؟

فردت أخرى الخامسة إلا عشر دقائق.

قالت الأولى يجب أن أذهب على الفور وأقشر تلك البازلاء لطبخها

على العشاء.

قالت واحدة منهن ولكن...،

توقفت السيدة الأولى عن التطريز مؤقتاً، ووضعت قطعها المطرزة والإبرة التي كانت تعمل بها، وتطلعت خلال باب الرواق المفتوح، إلى حيث المدخل الدافئ للمنزل الساكن، الذي يؤدي إلى المطبخ الذي يلغى الصمت.

وهناك كانت توجد منضدة، عليها ما يبدو أنه أكثر ما شاهدته في حياتها، تعبيراً عن الحياة المنزلية والتكرس لها، كومة من البازلاء والطازجة المفسولة، في أغلفتها الخضراء المرنة الرقيقة، قابعة في مكانها تنتظر أصابع السيدة، لتبعث فيها الحياة وتجعل لها نوراً في عالم تلك النسوة.

قالت السيدة الثانية أذهبي وقشري البازلاء، إذا كان هذا يريحك، ردت عليها السيدة الأولى كلاً لن أقوم بهذا العمل.

تنهدت السيدة الثالثة، التي كانت تطرز شكل زهرة وورقة شجرة ونبات الأقحوان^(١) في حقل أخضر. وكانت إبرة التطريز ترتفع ثم تهبط وتخفى في طيات القماش.

أما السيدة الثانية فقد كانت تعمل على أروع القطع المطرزة وأكثرها جمالاً، وكانت تدفع بإبرتها بطريقة متقنة في القماش التي تقوم بتطريزه، ثم تعود بها في حركة سريعة، في رحلات لا حصر لها.

(١) نبات له أزهار ذات أوراق وردية أو بيضاء. (المترجم)

وكانت نظرتها المحدقة الخاطفة، تتابع كل حركة بدقة متناهية. كانت قطعتها المطرزة عبارة عن مشهد الزهرة ورجل وطريق وشمس ومنزل، وكان المنظر يتشكل تحت يديها المدينتين، إلى نموذج مصغر رائع الجمال والإبهار، مثالي في كل خيط يستخدم في التطريز ويتفصيل يتم عن البراعة والدقة المتناهية.

قالت إحداهن: "أحياناً يبدو لي أنك لا توجهين ذهنك إلا إلى يديك" وأومأت السيدتان الأخريان بقوة، حتى أن كرسييهما الهزازين عادا - من جديد - للتأرجح إلى الأمام والخلف.

قالت السيدة الأولى "أعتقد، أن أرواحنا تكمن في أيادينا، لأننا نصنع كل شيء لهذا العالم، مستخدمين أيادينا. ويراودني أحياناً اقتناع بأننا لا نستعمل أيادينا بالقدر الكافي، وبكل تأكيد فنحن لا نستخدم أذهاننا على الإطلاق،

عندئذ اهتممن بشكل أكبر بما تفعله أياديهن من تطريز، واستغرقن في العمل.

قالت السيدة الثالثة: "حقاً! عندما نعود بالذاكرة إلى كل مدى العمر، يتضح لنا أننا لا نتذكر الوجوه مثلما نحفظ بذكرى الأيدي وما قامت به من أعمال".

وأخذن يتذكرن في أذهانهن عدد الأغصان التي رفعتها، والأبواب التي قمن بفتحها وإغلاقها، والزهور التي قطفنها والوجبات الغذائية

التي أعددتها، كل هذه الأشياء، قامت بإنجازها أصابع بحركة بطيئة أو سريعة، وفق العادات والأساليب المتبعة.

وعندما تسترجع أحداث الماضي، فإنه سوف يبرز على السطح، عدد هائل من الأيادي - وكأنها حلم سحري - تدفع بالأبواب فجأة لتفتح على مصراعيها، وتفتح الصنابير، وتستخدم المكانس بمهارة وسهولة، وتصفع مؤخرة الأطفال كنوع من العقاب، ولا يُسمع إلا صوت عاصفة الأيادي الوردية اللون، أما الباقي فكان حلمًا صامتًا.

قالت السيدة الثالثة كن يتم إعداد وجبة عشاء لهذه الليلة. ولا الليلة القادمة ولا الليلة التي تليها.

ردت إحداهن بقولها: كن تفتح أو تغلق أية نوافذ.

كن يوجد فحم ليتم وضعه في فرن البدروم^(٢)، في الشتاء القادم.

كن توجد أوراق ليقص منها مقالات عن كيفية إعداد الوجبات الغذائية.

وفجأة انسابت عبراتهن، وذرفت عيونهن دمعًا برفق على وجوههن، ثم تساقطت فوق قطع التطريز التي تعمل فيها أصابعهن بحركات رتيبة غير إرادية.

(٢) طابق سفلى تحت الأرض، (المترجم).

أخيراً قالت السيدة الأولى، وهي تضع ظهر إبهام يدها، تحت كل جفن عين تباعاً، ليمسح دموعها، ثم نظرت إلى إبهامها المبلل.

صاحت السيدة الثانية بحق "انظرون الآن ماذا فعلت".

توقفت السيدتان الأخريان عن التطريز وحدثتا في قطعة التطريز، التي رفعتها السيدة الثانية لتريها. كاد المشهد المطرز أن يكون كاملاً، إلا أنه بينما كانت الشمس الصفراء المطرزة تسقط أشعتها على الحقل الأخضر المطرز، والطريق البني المطرز ينعطف بالقرب من المنزل الوردي المطرز، كان ثمة خطأ ما في وجه الرجل المطرز الذي يقف في الطريق.

قالت السيدة الثانية: "أعتقد أنني يجب أن أفك المشهد المطرز كله، بطريقة عملية، لإعادة تطريزه على نحو أفضل".

"يا له من أمر محزن" وحدثن جميعاً بإمعان في المشهد المطرز والخطأ الذي يشويه، في وجه الرجل. وبدأت السيدة الثانية تقطع الخيوط الملونة، بمقصها الصغير الحاد الذي يعكس الضوء في شكل ومضات. وأخذ المشهد المطرز يتشكل من جديد، خيطاً تلو الآخر، وراحت السيدة الثانية تجذب - بحركة سريعة وقوية، وتكاد أن تكون عنيفة - بعض خيوط التطريز من فوق القطعة. إلى أن اختفى وجه الرجل، واستمرت هي في جذب خيوط التطريز.

قالت إحدى السيدات: "ماذا تفعلن؟".

وانحنى السيدتان الأخريان لتشاهدا ماذا فعلته.

كان الرجل - فى المشهد المطرز - قد اختفى من الطريق، لقد تخلصت منه تماماً، ولم تتفوه السيدتان بكلمة واحدة، وعادتا إلى التطريز.

صالت إحدى السيدات "كم الساعة الآن؟".

"الخامسة إلا خمس دقائق".

"هل كان من المفروض أن يحدث الأمر، فى الخامسة؟".

"أجل".

"وهم ليسوا متاكدين من تأثيرها على أى شىء، عندما تحدث؟".

"كلا، إنهم ليسوا متاكدين".

"لماذا لم نستوقفهم قبل أن يستفحل الأمر ويصل إلى هذا الحد المروع".

"إن الحدث هذه المرة أكبر بمرتين من المرة السابقة، كلا، أكبر بعشرة أمثال، ربما ألف مثل".

"إنها ليست كالمرّة الأولى، أو عشرات المرات التى أعقبتها. إن الأمر مختلف. لا أحد يعرف ما الذى يمكن أن تحدثه عندما تأتى".

أخرجنى إلى الشرفة، حيث رائحة الورود والعشب المقصوص حديثاً.

"كم الساعة الآن؟".

"الخامسة إلا دقيقة واحدة".

حينئذ ومضت إبرة التطريز بما يشبه ناراً غضبية. وأخذت تسبح
مثل سرب من السمك المعدنى، فى أجواء الصيف المعتمدة، وعلى البعد
سمع طنين بعوضة. ثم نوى صوت مثل ارتجاج الطبول.

وأمال السيدات رؤوسهن، لينصتن.

- "كن نسمع شيئاً. أليس كذلك؟"

- "لقد قالوا لنا هذا".

- "ربما كنا حقاوات. ولعلنا سوف نستمر فى حياتنا كالمعتاد،
بعد الساعة الخامسة، نقشر البازلاء ونفتح الأبواب، ونقلب الأحساء^(٢)
ونغسل الأطباق ونجهز طعام الغذاء، ونزيل قشر البرتقال...".

- "آه، كم سوف نضحك ملء أشداقنا، عندما نتذكر أننا شعرنا
بالخوف من تجربة قديمة!".

عندئذ ابتسمت كل منهن للأخرى، لعدة ثوان.

- "الساعة الآن الخامسة تماماً".

بعد هذه الكلمات ساد صمت بين السيدات الثلاث، ثم انهمكت كل
منهن فى عملها. وأخذت أصابعهن تخطط قطع التطريز بسرعة ومهارة،
وكأنها سهام مندفعة، وراحت وجوههن تتأمل ما تبدعه أيديهن.

(٢) جمع حساء. (المترجم)

أصبحت مشاهد التطريز تتم عن المشاعر القوية الجنونية. فقد صنع
نباتات الليلك^(٤) وعشياً وأشجاراً ومنازل وأنهاراً، في قماش التطريز.
لم تنفوه إحداهن ببث شقة، ولكن كان يمكن سماع صوت تنفسهن،
في هوا، الرواق الساكن.

ومرت ثلاثين ثانية.

أخيراً تنهدت السيدة الثانية، وبدأت تتحرر من التوتر وتسترخى.
وقالت: "أظن أنني سوف أذهب لتقشير البازلاء، وإعدادها للعشاء...
إنني..."

ولكن لم يتح لها الوقت حتى لترقع رأسها. وفي مكان ما، ويطرف
عينها، شاهدت العالم يضيء فجأة ويشتعل بالنيران. واحتفظت برأسها
منخفضة، لأنها كانت تعلم ما الذي حدث. إنها لم تنظر إلى أعلى وكذلك
السيدتان الأخريان.

وفي اللحظة الأخيرة كانت أصابعهن تتشنج، لم ينظرن حولهن
ليعرفن ما الذي يحدث للدولة والمدينة، وهذا المنزل، وحتى هذا الرواق.
بل كانت السيدات الثلاث لا يفعلن شيئاً، سوى التحديق إلى أسفل، حيث
المشاهد التي تبدو فوق قماش التطريز، الذي يرتج بين أيديهن.

(٤) نباتات لها أزهار عطرية ذات لون أرجواني. (المترجم)

وراقبت السيدة الثانية الزهرة المطرزة وهى تختفى، وحاولت جاهدة أن تعيد تطريزها، ولكن دون جدوى فقد ذهبت إلى غير رجعة ثم اختفى الطريق المطرز بعد ذلك وكذلك أوراق الأعشاب. لاحظت بانتباه حريقاً ينشب ببطء أو يكاد، ويشتعل فى المنزل المطرز فيدمر سقفه وجدرانه، وينتزع كل خيط فى أوراق الشجرة الخضراء الصغيرة القريبة، وشاهدت الشمس بذاتها تتمزق إرباً فى قطعة القماش المطرزة. ثم أضرمت النيران فى النقطة المتحركة من إبرة التطريز، بينما ما زالت تتقد. وراقبت السيدة الثانية النيران وهى تقترب حثيثاً من أصابعها ويديها وكل جسمها، وتطال السنة الذهب شرايينها الرقيقة فتفككها - كما فعلت مع خيوط التطريز - وكانت تراها بكل ما فيها من تأثيرات شريرة ودسوية، وهى تنتزع ملامح المشهد المطرز من قطعة القماش التى تعمل عليها.

وتسالت السيدة الثانية، عما فعلته هذه النيران المتأججة للسيدتين الأخريين أو للآثاث أو لشجرة الدردار فى الساحة الخارجية، إنها لم تعرف قط! إذ إن السنة الذهب فى هذا الوقت، أجل فى نفس هذه اللحظات، راحت تنتزع بلا رحمة الأنسجة البيضاء والرقيقة لجسمها التى تشبه قطعة قماش مطرزة، والشرايين الحمراء الوردية فى وجنتيها، الشبيهة بخيوط التطريز، وفى النهاية وجدت قلبها فامتدت إليه، كان القلب مثل وردة حمراء ناعمة، راحت النيران تتخللها وتحرق بتلاتها التى طرزت حديثاً، وتمحوها بئلة رقيقة فى أثر أخرى.

التفاحات الذهبية للشمس

قال الكابتن "إلى الجنوب".

قال أحد أفراد الطاقم "ولكن هنا في الفضاء، لا توجد أية اتجاهات".
رد الكابتن قائلاً: "عندما تسافر في اتجاه الشمس، وتصبح كل الأشياء صفراء ودافئة وبطيئة الحركة، حينئذ يكون هناك اتجاه واحد فقط".
أغمض الكابتن عينيه وفكر في الأرض البعيدة، الدافئة التي تتقد بدخان قليل ومن غير لهب، عندئذ راح تنفسه يتردد بهدوء في حلقه، وأوماً لنفسه بتؤدة مؤكداً "إلى الجنوب، نعم إلى الجنوب".
كانت سفينتهم الفضائية تدعى "Copa de Oro"^(١)، كما يطلق عليها أيضاً "بروميثيوس"^(٢) و"إيكاروس"^(٣)، وكانت وجهتهم الفعلية شمس الظهيرة اللافحة.

(١) إلباء من ذهب، (المترجم).

(٢) أحد أبطال الأساطير الإغريقية، سرق شعلة المعرفة من عند زيوس كبير الآلهة ليعطيها للبشر، (المترجم).

(٣) أحد أبطال الأساطير الإغريقية حاول الطيران باستخدام أجنحة من الريش والشمع وعندما اقترب من الشمس ذاب الشمع وسقط إيكاروس قتيلاً، (المترجم).

وبمعنويات طيبة عالية، قاموا بتحميل ألفى علبة من الليموناضة^(٤) اللاذعة وألف عبوة من أنواع الجعة^(٥) المختلفة، ذات القمة المزينة عند صبيها، وذلك استعداداً لرحلتهم إلى الفضاء الذي يشبه الصحراء الشاسعة.

وعندما كانت الشمس تغلى من فوقهم وترسل لهيبها إليهم، تذكروا عدداً من أبيات الشعر ومقاطع من فقرات مقتبسة.

”التفاحات الذهبية للشمس“

”بييتس“^(٦).

”لا تخف بعد الآن، من حرارة الشمس؟“

”شكسبير“^(٧) بالطبع!

قدح من الذهب؟ شتاينيك^(٨). ”أنية من الذهب“ ستيفنس^(٩). وماذا عن رعاء الذهب الموجود عند نهاية قوس قزح؟ يا إلهي! ثمة اسم يمكن أن نطلقه على المسار المنحني لصاروخنا، إنه قوس قزح!

(٤) شراب الليمون المحلى. (المترجم).

(٥) البيرة، شراب مصنوع من الشعير المخمر. (المترجم).

(٦) ويليام بتلر بيتس، شاعر أيرلندي. (١٨٦٥-١٩٢٩).

(٧) ويليام شكسبير، كبير الشعراء الإنجليز. (١٥٦٤-١٦١٦).

(٨) جون شتاينيك، كاتب أمريكي. (١٩٠٢-١٩٦٨).

(٩) جيمس ستيفنس، روائي وشاعر أيرلندي. (١٨٨٢-١٩٥٠).

“ما درجة الحرارة الآن؟”

“ألف درجة فهرنهايت”^(١٠).

حرق الكابتن من خلال عدسات هائلة معتمة، إنها الشمس بالفعل، عندئذ اعتملت فكرة وحيدة ومستقرة في ذهنه، أن يذهب إلى هذه الشمس، وأن يسرق جزءاً منها^(١١) وإلى الأبد.

والواقع أن سفينته الفضائية كانت تجمع بين البرودة باعتدال والبرودة القارصة المطلوبة لهذه الرحلة، وعبر ممرات من الثلوج والصقيع اللبني اللون، يسود شتاء له رائحة النشادر، وتهب عواصف تفيض بالبلورات الثلجية، وأي شرر ينبعث من الموقد الهائل الذي يحترق فيه الوقود، داخل هيكل السفينة الفضائية، أو زفرة صغيرة من النار. التي قد تتسرب إلى الخارج، سوف تجد أن الشتاء القارص يغفو هنا، مثل كل ساعات شهر فبراير الشديدة البرودة.

وراح مقياس الحرارة الصوتي، يغمغم في ذلك الصمت كالذي يسود منطقة القطب الشمالي المتجمد “درجة الحرارة: ألفا درجة فهرنهايت” فكر الكابتن في أن سفينة الفضاء تسقط مثل كسفة ثلج في عنقوان شهر يونيو وشهر يوليو الدافئ، ثم أيام شهر أغسطس القائظة، “ثلاثة آلاف درجة فهرنهايت”.

(١٠) أي حوالي ٥٢٨ درجة مئوية. (المترجم).

(١١) نفس أسطورة (بروميثيوس) (المترجم).

تحت حقول الثلج، تسارع أداء المحركات، ووصلت سرعة السفينة الفضائية، إلى عشرة آلاف ميل^(١٢) في الساعة، بفضل المبردات التي تدفع القوة في الملفات rimed coils، التي تبدو مثل الأفاعي الهائلة العاصرة.

”أربعة آلاف درجة فهرنهايت“.

الظهيرة، الصيف، شهر يوليو.

”خمسة آلاف درجة فهرنهايت“.

وأخيراً تحدث الكابتن وصوته ينم عن كل صمت الرحلة.

”إننا الآن نتلامس مع الشمس“.

وعندما فكر أفراد طاقم السفينة بهذا، أصبحت عيونهم مثل الذهب السائل.

”سبعة آلاف درجة فهرنهايت“.

وكان أمراً غريباً، أن مقياس الحرارة الصوتي، يبدو وكأنه يشعر بالإنارة، مع أنه لا يمتلك إلا صوتاً آلياً عديم الإحساس.

سأل أحد أفراد الطاقم كم الساعة الآن؟.

وكان على الجميع أن يبتسموا.

(١٢) الميل يساوي نحو ١,٦ كيلو متر. (المترجم).

لأنه في ذلك الوقت، لم يكن أمامهم سوى الشمس والشمس
والشمس.

لقد كانت في كل الأفق وكل اتجاه، أحرقت الدقائق والثواني
والساعات الرملية^(١٣) والساعات الأخرى، أحرقت كل الزمن
والأبدية البعيدة.

أحرقت جنون العيون ومصل الدم^(١٤) للعالم المظلم خلف هذه الجفون،
وشبكية العين والدماغ المخفى، أحرقت النوم والذكريات اللطيفة للنوم
والفسق البارد باعتدال.

”احذرا“

”كابتن“

سقط (بريتون) - الضابط الأول - وتمدد بلا حراك على سطح
السفينة الباردة، وصدر عن رده الواقى صغير، في المكان الذي تعرق
فيه، وانفتح، فتسرب منه دفته الداخلي وأكسوجينه، وحياته كلها تقوضت
في البخار المتجمد.
”أسرعوا“

(١٣) أداة لقياس الوقت تتكون من كرتين زجاجيتين، تصل بينهما فتحة صغيرة وتحتوي
العليا على حبات رمل جاف وتاعم، ويستغرق الرمل ساعة كاملة لكي ينساب من الكرة
العليا إلى الكرة السفلى. (المترجم).

(١٤) سائل أصفر، عبارة عن بلازما الدم منزوعة من عوامل التخثر. (المترجم).

داخل خوزة (بريتون) البلاستيكية، تجمعت بلورات متجمدة لبنية اللون تتخذ أشكالاً غير منتظمة، انحنوا جميعاً ليتبينوا الأمر.
"كابتن! ثمة عيب فى رداثة الفضائى، إنه ميت".
"لقد تجمد".

حدقوا فى مقياس الحرارة الآخر، الذى يظهر كيف يعيش الشتاء فى هذه السفينة الفضائية التى تتساقط فيها الثلوج، ألف درجة تحت الصفر. أخذ الكابتن بمعن النظر فى جثة (بريتون) المتجمدة التى كانت تبدو كتمثال، وبلورات الثلج التى راحت تتلألأ على الجسد المسجى، بينما كان ينظر إليها. همس الكابتن لنفسه "يا له من أمر يثير السخرية البالغة، شخص يخشى النار، فيقتله الصقيع!".

استدار الكابتن وقال: ليس لدينا وقت، ليس لدينا وقت، أبقوه ممدداً.

شعر بلسانه يتحرك فى قعره، وقال: "ما هى درجة الحرارة؟".

قفزت المؤشرات إلى أربعة آلاف درجة.

صاح أحد أفراد الطاقم: "انظر، هل لك أن تنتظر؟ انظر".

كانت الكتل الجليدية - المتدلية من سقف سفينة الفضاء - تنوب.

رفع الكابتن رأسه بشكل مباغت وسريع، لينظر إلى السقف..

كما لو أن آلة عرض أفلام سينمائية قد توقفت، لتعرف فقط إطاراً

لأفكاره وتكرياته، داخل رأسه، إذ وجد عقله يركز - بقرابة - على مشهد يندفع فجأة كالسهم، أت من مرحلة طفولته.

تذكر صباحات في فصل الربيع، عندما كان لا يزال طفلاً يحدق من خلال نافذة حجرة نومه، إلى الهواء الذي يفوح برائحة الثلج، لي شاهد الشمس وهي تتوهج فوق آخر الكتل الجليدية المتدلية وتذيبها. فتبدو وكأنها تقطر نبيذاً أبيض، وبماء إبريل ذات البرودة المعتدلة الموحية بالدفء، تتساقط من ذلك الجزء المسطح الرفيع للبلورة الناصعة، ودقيقة تلو الأخرى، يصبح سلاح ديسمبر أقل خطورة. وفي النهاية تساقطت آخر الكتل الجليدية، بإيقاع موسيقى، على المعشى السفلى المغطى بالحصى.

سيدي! لقد تعطلت المضخات الاحتياطية. نحن في حاجة إلى مبردات، إذ إننا نفقد مخزوننا من الثلج!

أنهمرت زخات مطر دافئ عليهم من سقف السفينة الفضائية، أخذ الكابتن يلقى رأسه بشكل مفاجئ وسريع، من اليمين إلى اليسار، ثم قال: "يا إلهي! ألا تشعررون بالمشكلة؟ لا نتوقفوا هكذا ساكنين. ليس لدينا وقت!"

تدافع الرجال وانحنى الكابتن في المطر الدافئ، وراح يلعن، تحسس يديه المحركات الباردة، وشعر بهما يتحنان ويتفحصان، وبينما كان مستغرقاً في العمل، تراعى له مستقبل يوشك أن يتقوض بعد هنيهة.

وتخيل أن سفينة الفضاء سوف تفقد طبقات من هيكلها المعدني، الذي يشبه خلية النحل، وهكذا يكشف عن الرجال، وهم يركضون هنا وهناك وأقواهم مفتوحة كمن يطلق صراخاً، ولكن لا يصدر عنها أي صوت.

كان الفضاء، أشبه ببئر سوداء مقطّاة بالطخالب، حيث تفرّق الحياة صرخاتها ورعبتها. حاول أن تطلق صرخة مروعة، إلا أن الفضاء سوف يبتلعها قبل أن تصل إلى نصف حلقك، كان الرجال مضطربين ومهتاجين وكأنهم تمل في غلبة ثقب مشتعلة. أخذت سفينة الفضاء تقطر حمماً^(١٥) ويتفجر منها البخار، وبعد هذا لا شيء.

كايوتو.

أصبحت الظروف داخل سفينة الفضاء، أشبه بكايوتو.

"هنا"، كان يعمل في الأمطار الخفيفة الدافئة، التي تتساقط من السطح العلوي تلمس بتوتر وحيرة، المضخة الاحتياطية "اللعة" هز بعنف أسلاك خط التغذية الكهربائية، عندما يأتي الموت، سوف يكون الأسرع في كل تاريخ الموت.

في لحظة واحدة، سوف تتعالى الصرخات ويومض لهب ساخن، ويعدده سوف يتقد بلايين البلايين من النيران المروعة التي سوف تهمس، ومن ثم لن يسمعها أحد في الفضاء.

سنتفرقع أجسادهم مثل حبات الفراولة، في قرون مشتعلة، بينما ستظل أفكارهم حية لفترة من الزمن قبل أن تموت، وتبقى في الهواء المدمر بعد أن تكون أجسادهم قد تفحمت وحمصت، وتحولت إلى غاز إشعاعي.

(١٥) صخور ملتهبة تصل إلى سطح الأرض عن طريق المراكب. (الترجم).

“اللعة!”.

ضرب المضخة الاحتياطية بمفك البراغي، صرخ وهو يرتعد
“يا للمسيح!”.

لقد توقفت عن العمل تمامًا. عقد ما بين عينيه وزم شفتيه وأطبق
أسنانه.

أخذ يفكر مليًا يا إلهي! لقد اعتدنا على موت أرحم من هذا، يقاس
بالدقائق والساعات، وحتى عشرين ثانية، ستكون بطيئة للغاية الآن،
مقارنة بالموت الذي ينتظرنا، والذي يشبه شيئًا أحمق جانحًا، يتحين
الفرصة لالتها منا!

قال أحد أفراد الطاقم: “كابتن، هل سوف نتسحب أو نستمر
في طريقنا؟”.

“جهاز الوعاء الحديدي. إنها مسئوليتك، وعليك إنجازها، على الفور!”.
استدار الكابتن ووضع يده على آلية التشغيل للوعاء الحديدي
العملاق ثم دفع أصابعه بعنف في قفاز روبيوت^(١٦). وأدت حركة من
أصابعه داخل القفاز، إلى تشغيل يد آلية جبارة ذات أصابع معدنية
عملاقة، تتصل بأجهزة في أعماق السفينة الفضائية.

(١٦) قفاز ألي معدني شبيه بكف الإنسان، قادر على القيام بعدة أعمال بون تعريض
الإنسان للخطر. (المترجم).

عندئذ، انزلت اليد المعدنية الجبارة، لتمسك بالسفينة الفضائية العملاقة "Copa de Oro"، بطريقة محكمة، وتدفعها في اتجاه الشمس ذلك الآتون الهائل المتأرجح، والكائن غير المحدد المعالم والشكل الضبابي الذي يتلظى بالنيران،

أخذ الكابتن يفكر بسرعة خاطفة - بينما كان يحرك اليد الآلية والوعاء المعدني - بأنه منذ مليون سنة مضت، كان إنسانا عاريا، يمشى بتثاقل مع عشيرته في مكان متعزل بإحدى البقاع الشمالية، وفجأة شاهد صاعقة تضرب شجرة، وبينما فر أفراد عشيرته، بسبب الخوف الذي أصابهم، تقدم هو بشجاعة من الشجرة المشتعلة، وانتزع منها - بيديه العاريتين - غصناً كبيراً مازال ملتهباً، وحمله على الرغم من أنه أصاب لحم أصابعه بحروق ركض وهو يشعر بفرحة الانتصار، واستخدم جسمه ليحمي الغصن المشتعل من الأمطار، إلى أن وصل إلى كهفه، حيث أطلق ضحكة مدوية وحشية، وقذف بالغصن بكامله، فوق كومة من أوراق الأشجار والنباتات، فتأججت بالنيران، وهكذا أعطى لعشيرته الدفء. وكأنهم في فصل الصيف.

وأخيراً زحف أفراد العشيرة - وهم يرتعدون من الخوف - إلى حيث النيران المضرمة، ومدوا أيديهم بحذر نحوها، ومن ثم شعروا بالفعل الجديد الدافئ في كهفهم، تلك البقعة الصفراء الصغيرة المضيئة التي غيرت حالة الطقس، جعلتهم هم أيضاً - أخيراً - يبتسمون، وإن انتابهم شيء من العصبية، وهكذا أصبحوا يمتلكون هدية من النيران.

صاح أحد أفراد الطاقم "كابتن".

استغرقت اليد الآلية العملاقة أربع ثوانٍ كاملة، لتدفع بالوعاء المعدني الفارغ إلى أتون النيران. همس الكابتن لنفسه "ها قد عدنا اليوم من جديد - بعد مليون عام - في حضارة أخرى للبحث عن ملء وعاء من الغاز الثمين والخواء، قيس من نيران مختلفة، لنعود بها سريعاً إلى صقيع الفضاء. لنضئ لنا طريقنا، وتأخذنا إلى كوكب الأرض، إنها هدية من النيران، التي ربما تظل مشتعلة إلى الأبد، ولكن لماذا؟".

لقد كان يعرف الإجابة، حتى قبل أن يسأل.

"لأن الأبحاث الذرية التي تقوم بها فوق كوكب الأرض، يرثى لها، والقنبلة الذرية مثيرة للشفقة وصغيرة، وحتى معرفتنا يمكن القول بأنها هزيلة وغير كافية، والشمس وحدها هي التي تعلم - بالفعل - ماذا نريد أن نعرف، والحقيقة أن الشمس، هي الوحيدة التي تمتلك السر. وإلى جانب هذا، فالموضوع ممتع، وفرصة لا تعوض. إنه شيء بالغ الروعة أن نأتى إلى هذا، إنها أشبه بلعبة، أن نحصل على ما نريد بسرعة ثم نهرب بعيداً، لا يوجد - في حقيقة الأمر - من سبب، سوى كبرياء وغرور لبشر تأفهمين يشبهون حشرات ضئيلة تأمل أن تلدغ الأسد وتهرب قبل أن يلتهمها. يا إلهي، سوف نقول: لقد أنجزنا المهمة! وهذا هو وعائنا الممتلئ بالطاقة، النيران، الذنبات، سمها ما شئت. لعلها سوف تمد مدتنا بالطاقة وتسير سفننا ونضئ مكتباتنا وتكسب أطفالنا اللون الأسمر ومخير خبرتنا اليومي وتمدنا بالمعرفة عن كوننا لآلئ سنة قادمة well-done

يا ثقة العلم وكبار رجال الدين الحكماء، هيا اشربوا من هذا الوعاء إذ
سوف يمتحكم الدفء في ليل الجهل، والمثلوج الكثيفة للخرافات، والرياح
الباردة للكفر، والخوف الشديد من الظلام، ذلك الشعور الذي يكمن في
أعماق كل البشر، ومن ثم، فإن نمد أيدينا بهذا الوعاء، الذي يشبه الإناء
الذي يجمع فيه المتسول الصدقات..

أطلق الكابتن صوتًا يعبر عن الرضا والابتهاج آه.

لقد انغمس الوعاء في سطح الشمس. واغترف جزءًا ضئيلاً من
النسيج القدسي، دم الكون، والفكر المتقد، والفلسفة العاجزة التي
أوجدت وقامت برعاية مجرة، وتلك الكواكب التي تتحرك بتكامل ودون
هدف في مداراتها، التي بإمكانها أن توجد الحياة ووسائل العيش
والرزق، أو أن توقفها.

همس الكابتن: الآن، يبطء.

قال أحد أفراد الطاقم متسائلاً: "كابتن! ما الذي سوف يحدث
عندما تنقل الوعاء إلى داخل السفينة الفضائية؟ تلك الحرارة الإضافية
الآن، في هذا الوقت بالتحديد.

"علم ذلك عند ربي".

تم إصلاح المضخة الإضافية يا سيدي.

قم بتشغيلها".

بدأت المضخة الاحتياطية تدور.

”أغلق غطاء الوعاء واسحبه إلى الداخل، الآن، ببطة، ببطة.”

ارتعدت اليد الآلية العسلاقة خارج السفينة، بحركتها الدقيقة المبرمجة، وأخذت تغوص - فى سكون - داخل الهيكل المعدنى. كان غطاء الوعاء مغلقاً، يقطر منه ما يشبه الزهور الصفراء والنجوم البيض، وراح ينزلق عميقاً فى جسم السفينة الفضائية. ارتفع صوت المقياس الحرارى مدوياً، وأخذت منظومة التبريد تعمل بكل طاقتها، وتخضبت الجدران المعدنية بمركبات النشادر السائلة، وكأنها دماء تندفع فى رأس أحرق غاضب.

أغلق الكابتن باب غرفة الضغط الهوائى.

”الآن.”

أخذوا ينتظرون. بينما كانت آلات السفينة تعمل بصوت رتيب وكأنها نبضات قلب عملاق. واستمر قلب السفينة يخفق بإيقاع مصدراً ضجيجاً. لقد كان الوعاء فى داخله انسابت الدماء الباردة فى كل اتجاه، وبحركة دائرية.

راح الكابتن يرقر ببطة.

وتوقف نقاط الثلوج الذائب من سقف سفينة الفضاء، إذ إنه تجدد من جديد.

قال الكابتن: ”دعونا نرحل من هنا.”

استدارت السفينة واندفعت فى الفضاء.

”أنصتوا!”

لقد كان قلب السفينة يبطن رويداً، وأخذت مؤشرات العدادات تظهر بسرعة انخفاضاً بالآلاف الدرجات في درجة الحرارة، وتنعطف بسرعة - بطريقة خفية - مغيرة اتجاهاتها. ميزان الحرارة الصوتي، تغنى بالتغير في درجة الحرارة، وكأن السفينة انتقلت من فصل مناخي إلى آخر. أصبحوا كلهم يعملون تفكيرهم معاً، في كيفية الابتعاد إلى أقصى مسافة ممكنة، من أتون النيران واللهيب الجبار، بعيداً عن الحرارة المروعة والانصهار والوهج، عن الصفار والبياض، والذهاب سريعاً إلى حيث البرودة باعتدال والظلمة. وربما في غضون عشرين ساعة، يمكنهم إيقاف بعض المبردات، وهكذا ينتهي فصل الشتاء.

وعاجلاً سوف يصلون إلى ليل قارص البرودة، ولعله يكون من الضرورة استخدام فرن السفينة الجديد، سوف يسحبون الحرارة من النيران الخفية التي يحملونها معهم الآن، وكأنها طفل لم يولد بعد.

لقد كانوا متجهين إلى الوطن الكبير، كوكب الأرض.

إنهم يعودون إلى الوطن، ولم يبق الكثير من الوقت، وعندما تطلع (الكابتن) إلى جثة (بريتون) المسجاة على جانب كتلة متراكمة من الثلج، تذكر قصيدة كان قد نظمها منذ سنوات طويلة.

أحياناً أتخيل الشمس وكأنها شجرة تحترق

ثماتها الذهبية تتأرجح متوهجة في الهواء الساكن

تفاحاتها دافئة بفعل الإنسان والجازبية

تشمع منها القداسة في جميع الأرجاء

لهذا يرى البشر الشمس كشجرة تحترق

استوى الكابتن جالساً لمدة طويلة بجانب الجثة، يحس بمشاعر
عديدة ومتباينة، فكر بأنه حزين للغاية ومع هذا فإنه يشعر بالرضا،
وداخله إحساس بأنه مثل صبي يعود إلى منزله، من المدرسة يحتضن
بأقلام من زهور "الهندباء" (١٧).

جلس الكابتن وعيناه مغضضتان، ثم تنهد وقال "حسناً! حسناً!
الآن أين نذهب؟ إيه، أين نذهب؟".

شعر برعب الموت ينتاب رجاله كلهم، الذي كان البعض منهم جالساً
أو واقفاً من حوله.

استطرد قائلاً: "عندما يسافر المرء كل هذه الرحلة البالغة الطول
إلى الشمس، ويلمسها ويلمس قبساً منها بإصرار وعناد، ثم يطير
حولها ويتدفع بعيداً عنها بسرعة، إلى أين يذهب بعد ذلك؟ عندما يرحل
بعيداً الحرارة اللافتة وضوء الظهيرة وغتور الهمّة، أين يذهب؟".

انتظر أفراد الطاقم أن يخبرهم الكابتن بالإجابات عن هذه
الأسئلة.

(١٧) نبات أزهاره صفراء، براقة (كاشعة الشمس) وأوراقه متشعبة، (المترجم).

لقد انتظروا أن يجمع كل مناخات العالم في ذهنه، الباردة باعتدال
والناصعة البياض والمعتدلة والمنعشة، لقد شاهدوه يستمتع بكل كلمة
في ذهنه وكأنها قطعة من الحلوى المثلجة في فمه، يحركها برفقة

قال الكاتب أخيراً: "ثمة اتجاه وحيد في القضاء لنخرج من هنا،
انتظروا السقينة القضائية تنساب في الظلمة الباردة،
بعيداً عن الضوء،

تمتم الكاتب (شمالاً، شمالاً).

عندئذ ابتسموا جميعاً، وكأنما هبت الريح الباردة فجأة،
في منتصف بعد ظهيرة قانظ.

محطة توليد الطاقة الكهربائية

تسهل الحصانان ثم توقفًا يتّودة، وحديق الرجل وزوجته إلى أسفل،
حيث يمتد الوادي الجاف، الرملى. جلست المرأة فوق سرج الحصان،
وهي لا تكاد تعي ما حولها، ولم تتفوه بكلمة واحدة في غضون عدة ساعات،
إذ إنها لم تجد كلمة مناسبة يمكن قولها، لقد وقعت في شرك بمكان ما،
بين ضغط سماء أريزونا الحارة الملبدة بالغيوم السوداء الموحية بالعاصفة
وضغط جبال الجرائيت الشاهقة، التي لفحتها الرياح، وراحت بعض
قطرات باردة من المطر، تتساقط على يديها المرتعدتين.

نظرت إلى زوجها بتوجس، كان يمتطي حصانه المعفر بثبات وفي
هدوء عجيب. أغضت عينيها، وأخذت تتذكر كل تلك السنين الطيبة التي
عاشتها معه. كانت أن تضحك ساخرة على الصورة الذهنية التي كونتها
لنفسها، ولكن لم يكن هناك أي مجال للسخرية وإلا أصبح هذا - بشكل
سا - ضريباً من الجنون، وعلى أي حال، ربما كان ما تعانيه يرجع إلى
تأثير ذلك الجو الخكفهر، أو لعلها تلك البرقية التي استلمتها من ساعى
البريد هذا الصباح بينما كان على صهوة جواده، أو ربما تلك الرحلة
الملوية التي يقومون بها الآن، إلى المدينة.

لقد كان لا يزال أمامها عالم مهجور عليها أن تجتازة، وبدأت تشعر بالبرودة تتخلل جسمها، أغلقت عينيها وقالت هامسة: "إننى السيدة التى لن تحتاج أبداً لتعاليم الدين".

حديق (بيرتى) زوجها فى وجهها وتساءل مستطلعاً
"ماذا تقولين؟".

هزت رأسها وردت بصوت خفيض قائلة "لا شيء".

كم كانت واثقة عبر كل هذه السنين، إنها لم تكن تحتاج قط إلى الذهاب إلى أى كنيسة، لقد سمعت كثيراً عن أناس مهذين، يتحدثون كثيراً عن الدين وعن المقاعد ذات اللون الباهت الشمعى فى الكنيسة، ونبات الزنبق المائى فى الأوعية الإسطوانية البرونزية الضخمة بها، والأجراس الهائلة للكنائس التى يدهقها الواعظ، وكأنه يعزف على المقارع^(١) لقد سمعت مراراً وتكراراً هؤلاء المترددين على الكنائس وهم يصرخون ويهمسون، إنهم جميعاً على نفس الشاكلة. إنها تكره الجلوس على مقاعد الكنيسة الطويلة الظهر

لم يكن ثمة سبب على الإطلاق بدعونى لأن أجلس فى الكنيسة
هذا ما كانت تردده دوماً لكل الناس، ولم تكن متحمسة فى التعبير
أو الإقناع حول ذلك الأمر.

(١) قطع مستطيلة من الخشب أو المعدن تستخدم كالة موسيقية. (المترجم)

كانت تتجول هنا وهناك وتستخدم يديها الناعمتين الصغيرتين في العمل، لقد صقل العمل أنامل يديها بطريقة طبيعية، دون أن تستخدم أية وسائل صناعية للصقل تباع في زجاجات. إن لمس الأطفال والعناية بهم جعل يديها ناعمتين كما أن تربية الأطفال أدت إلى تصلبهما إلى حد ما، أما حب الزوج فقد جعلهما حائيتين.

والآن، ها هو ذا الموت يجعلهما يرتعدان.

قال الزوج لقد وصلنا وأخذ الحصانان بحوافرهما يثيران الغبار في الدرب، بينما كانا متجهين إلى حيث يوجد مبنى وحيد من الطوب بجانيه مغسلة بالبخار للملابس. كان بالمبنى عدد من النوافذ الخضراء الصقيلة بأطر ومقابض زرقاء. وكان مشيداً من القرميد الأحمر، كما كانت هناك أسلاك، وكانت هذه الأسلاك ترتفع إلى أعلى فوق أبراج الضغط العالي^(٢)، إلى أبعد مدى في الصحراء. أخذت تراقب امتدادها وهي صامتة، ومارالت أفكارها تعمل في ذهنها، ثم ارتدت ببصرها - من جديد - إلى النوافذ الخضراء القرميد المحكمة الإغلاق، وإلى القرميد الذي يبدو بلونه الأحمر، وكأنه مضرم بالنار.

وتذكرت أنها لم تضع قط شريطاً من الحرير في الإنجيل، عند أية ذات دلالة ومضمون معين، ذلك أن حياتها - على الرغم من أنها قصتها

(٢) هياكل طويلة ومرتفعة من الحديد، تستخدم في نقل الطاقة الكهربائية لمسافات بعيدة (المترجم)

بين جبال الجرانيت والشمس اللافتة، والعرق الغزير يتصبب من كل جسمها، لم تكن شاقة بالنسبة إليها. ولم تدع الحاجة قط إلى الأرق حتى الفجر أو تغضن الوجه بالتجعدات عند جبهتها. وبطريقة ما، فإن الأمور التي تفسد الحياة عادة، قد مرت بها دون أن تؤذيها أو تسيء إليها، كان الموت بالنسبة إليها مجرد شائعة، ومثل عاصفة بعيدة فيما وراء الأفاق الأقصى بعداً.

لقد مرت عليها عشرون عاماً وهي مثل الأعشاب الضارة التي لا أهمية لها، منذ أن جاءت إلى المغرب، حيث تزوجت، وارتدت خاتم الزوجية الذهبي، واتخذت من الصحراء شريكاً ثالثاً دائماً في حياتهما، هي وزوجها. ولم يعاني أي من أولادهما الأربعة من أي مرض عضال، جعلهم أقرب إلى الموت. ولم تسجد قط على ركبتيهما، إلا لكي تزيل الأوساخ بالفرك الشديد، للأرضية التي تم تنظيفها بالفعل من قبل.

والآن، لقد انتهى كل شيء. وهاتما يمتطيان حصائيهما في اتجاه مدينة بعيدة، لأن برقية على ورق أصفر رخيص، جاءت لتبلغهما بشكل بالغ الوضوح أن أمها تعالج سكرات الموت، ولم تستطع أن تتخيل الأمر برمته، مهما حاولت أن تدبر رأسها لترى أو تشحذ ذهنها لكي تلقى نظرة داخلية على نفسها.. لم يكن هناك أي عارضة لكي تتشبث بها، تنجيه إلى أعلى أو إلى أسفل.. وعقلها، مثله مثل بوصلة ضاعت وسط عاصفة رملية مفاجئة، انفصلت بغتة متحررة من كل اتجاهاتها التي كانت واضحة من قبل.. كل النقاط المرجعية اختفت.. وإبرة البوصلة تدور

بدون أى جدوى، تدور وتدور بلا توقف.. حتى ذراعا (بيرتى) زوجها على ظهرها لم يكونا كافيين.. كان الأمر أشبه بنهاية لعبة جميلة وبداية لعبة شريرة.. شخص ما أحبته كان يحتضر وسيموت قريباً.. وكان ذلك أمراً مستحيلاً بالنسبة إليها!

قالت وهى لا تستطيع التحكم فى نبرات صوتها: "يجب أن أتوقف".. وحاولت أن يبدو صوتها متوتراً ليغطى على خوفها.. غير أن (بيرتى) كان يدرك أنها امرأة لا تتضايق أن تتوتر، ولذلك فإن نبرة التوتر لم تكن لتستمر ولم تكن لترعجه.. كان عبارة عن قدح بمقبض وكانت محتوياته هناك بالتأكيد.. والمطر فى الخارج لم يثلف البيرة.

ركض بجواده جانبياً حتى أصبح بمحاذاتها وأمسك يدها بركة، وقال: "بالطبع".. وحدث فى السماء الشرقية وأردف: "بعض السحب تتجمع هناك فى سحابة كبيرة سوداء.. لذا علينا أن نتنظر برهة.. لعلها سوف تمطر.. وأنا لا أريد أن أعلق فى الأمطار".

الآن تضايقت من ضيقها ذاتها.. وتغذى أحدهما على الآخر.. والحقيقة أنها كانت لا حول لها ولا قوة.. ولكن بدلاً من التكلم والمخاطرة بـ تكرار حدوث الدورة من جديد، اندفعت إلى الأمام وبدأت تنتحب، وسمحت للجواد بالتحرك معها حتى وقف، وضرب حوافره بهدوء فى الأرض بجوار المبنى بالطوب الأحمر..

ألقت بنفسها فى دلال بين ذراعيه، وضمها هو بينما كانت تستدير من فوق كتفه.. ثم أجلسها وقال لها: "لا تبدين كما لو أن هنا أناساً

آخرين معنا.. ثم هتف: "مرحى!.. انظري هناك".. ثم نظر إلى لافتة على الباب تقول: "خطر - مكتب الطاقة الكهربائية".

كانت هناك حشرة كبيرة تطن في الهواء في أرجاء المكان.. وأخذت تغنى بنغمة طنينية لا تتوقف.. ترتفع قليلاً ثم لا تلبث أن تهبط قليلاً، ولكن مع محافظتها على نفس طبقة صوت الطنين.. مثل امرأة تههم من بين شفتيها المطبقتين بينما تعد وجبة الطعام على موقد ساخن في ضوء الشفق الدافئ..

لم يمكنهما رؤية أى حركة داخل المبنى، فقط كان هناك طنين هائل.. كان ذلك نوعاً من الضوضاء الذى يمكنك أن تتوقع من لهيب الشمس أن تصعده من روابط خطوط سكة حديدية ساخنة في يوم من أيام الصيف شديد الحرارة، حيث ينتشر صمت مثير وحيث ترى الهواء يتحرك في دوامات ويلتف حلزونيًا ويدفع هنا وهناك.. باستثناء صوت صادر من العملية ولا يحصل على شىء إلا توتر غامض بطبقات الأذن والتهوء المشوب بالقلق.

دخل الطنين في كعبي قدميها ثم صعد في ساقبيها الرفيعتين حتى دخل في جسمها.. وتحرك إلى قلبها وحرك مشاعرها، مثلما يفعل عادة منظر (بيرتى) وهو جالس على قمة حاجز الحظيرة.. ثم تحرك إلى رأسها وأبقى فتحات في جمجمتها وانتصب جالساً وبدأ يغنى، مثلما كانت تقول أغاني الحب والكتب الجيدة ذات مرة.

انتشر الطنن في كل مكان.. كان جزءاً من التربة مثل نبات الصبار..
كان جزءاً من الهواء كالحرارة مثلاً.. وسألته وهي متحيرة وتنظر إلى
المبنى: "ما هذا؟" فقال (بيرسى): "لا أعرف عنه أكثر من أنه باب محطة
الكهرباء".. وجرب تحريك الباب وأردف في دهشة: "إنه مفتوح.. أتمنى
أن تجد شخصاً ما هنا".. وانفتح الباب بكامل اتساعه وخرج الطنن
الناض كنسمة هواء انسابت فوقهما بهسيس عال.

دخلا معاً في ذلك المكان الصداح المهيّب.. وأمسكته بقوة وذراعها
في ذراعه.. كان مكاناً معتماً وكأنه تحت سطح البحر.. ناعم ونظيف
ولامع، كما لو كان شيئاً ما يأتي هنا ويخرج من هنا لكن لا يمكث به
أبداً.. ولكن كان هناك دائماً حركة وحركة.. حركة خفيفة ونشطة
ولا تهدأ أبداً.

وعلى كل جانب عنهما كلما تقدما كان ما بدا لهما من أول وهلة
أشخاص واقفون في صمت وهديء، واحداً وراء الآخر في صفين.. بيد
أن ذلك لم يلبث أن اتضح أنه آلات مستديرة صدفية الشكل ينبعث
الطنن منها.. كل آلة منها، سوداء أو رمادية أو خضراء اللون، تخرج
منها كابلات صفراء ذهبية وأسلاك بلون الجير.

... كما توجد حبوب أو أكياس معدنية فضية اللون عرواتها قرمزية
اللون وعليها كتابة بحروف بيضاء.. وكذلك وعاء كبير يشبه حوض
استحمام يدور فيه شيء، ما كما لو كان يتم فيه عصر شيء خفي يدور

بسرعة هائلة.. ودار جهاز الطرد المركزي^(٣) هذا بسرعة كبيرة حتى أنه يبدو ساكناً.

حيات ضخمة من النحاس تهبط لولبياً من السقف وقت الشفق..
وانابيب رأسية متشابكة تتحرك من الأرضية الأسمنتية إلى جدار الطوب الأحمر.. كل ذلك كان نظيفاً للغاية مثل ضوء البرق الأخضر ورائحته رائعة.. كان هناك طقطقة وقرقعة وصوت أكل وشخشة أوراق.. وانطلقت وطمطقت وأطلقت شرارات وصقرت ومضات من نيران زرقاء حيثما تتصل الأسلاك ببيكرات خرقية وعازل زجاجي أخضر.

وفي الخارج، في العالم الحقيقي، بدأت الأمطار تهطل.. لم ترد البقاء في هذا المكان.. لم يكن مكاناً يصلح البقاء فيه.. فساكنو هذا المكان ليسوا بشراً وإنما هم آلات كثيفة، كما أن موسيقاه تبدو كموسيقى أرغن معزوفة في نفحات رخيمة منخفضة ونفحات حادة عالية.. غير أن الأمطار غسلت كل نافذة وقال (بيرتى): يبدو أنها ستطول.. ربما نضطر إلى قضاء الليلة هنا.. على أية حال الوقت الآن متأخر.. الأفضل أن نحضر حقائبنا هنا.

لم تقل شيئاً.. أرايت أن تتكيف مع هذا الموقف.. تتكيف مع أي شيء في أي مكان.. لكن لم يكن ثمة طريقة معينة لمعرفة ذلك..

(٣) القوة التي تجعل جسماً ما يدور بانحناء.. أن يطرد للخارج بعيداً عن مركز الدوران (المترجم).

ولكن على الأقل كانت ستتمسك بالنقود في المدينة وتشترى التذاكر وتقبض عليها في يدها وتستقل قطاراً ينطلق ويصدر ضوضاء عالية، ثم تنزل من القطار وتمتطي ظهر جواد آخر.. وتستقل سيارة تقودها لمئات الكيلومترات، وتقف أخيراً عند أمها الحية أو الميتة..

كل ذلك كان يتوقف على الوقت والظروف.. كان هناك أماكن كثيرة تمر بها، لكن أحداً منها لم يكن ليقدّم لها شيئاً فيما عدا الأرض لقدميها والهواء لمنخاريها والطعام لقمها فاقد الحس.. وكان ذلك أسوأ من أى شيء.. وتساءلت: لماذا تذهب أصلاً إلى أمها؟.. لمجرد أن تقول لها كلمات ما أو تقوم ببعض الإيماءات؟.. ما فائدة ذلك؟

كانت الأرضية تحتها نظيفة كنهر نقي يمر من تحتها.. وعندما تحركت إلى الأمام على هذه الأرضية، أرسلت أصداً تتردد في الأمام والخلف كطلقات نارية صغيرة خافتة تنطلق عبر الحجرة.. وكل كلمة نطقت بها تتردد صداها كما لو كان صادراً من كهف من صخور الجرايت.

ومن خلفها سمعت (بيرتي) وهو يصلح المعدات والأجهزة.. ويقود بطانيتين رماديتين ويضع فيهما مجموعة من علب الطعام الصغيرة.

أقبل الليل وما زالت الأمطار تنساب في خطوط متصلة على النوافذ العالية ذات الزجاج الأخضر، وتنظف النوافذ وتصنع أشكالاً جميلة وناعمة تتدفق وتختلط ببعضها البعض في ستائر صافية ملساء.

وكانت هناك قصفات متقطعة من الرعد تسقط وتتكرر على نفسها في
سلاات من الأمطار الباردة والرياح التي تصطدم بالرمال والأحجار
والصخور.

أراحت رأسها على قطعة ملابس مطوية، ومهما قلبتها اخترق طنين
محطة الكهرباء الضخمة ملابسها ونفذ إلى داخل رأسها.. غيرت من
وضعها وأغلقت عينيها وهندمت نفسها لكنها عادت كما كانت..
وانتصبت جالسة وطبقت الملابس واستندت بظهرها إلى الخلف.

بيد أن الطنين كان هناك طوال الوقت.. وعرفت بدون أن تنظر، من
خلال حاسة عميقة في كيانها، أن زوجها يقظ.. ولم يكن مر عليها عام
يمكنها أن تتذكر فيه متى لم تكن تعرف ذلك.. لكنها لاحظت فرقاً ما في
طريقة تنفسه.. لم يكن يتنفس بصوت بالمرّة، إلا على فواصل منتظمة
طويلة.. وعرفت وقتئذ أنه ينظر لديها وسط الليل المطير.. كان مولعاً بها،
جنباً إلى جنب مع اهتمامه الفائق بنفسه.

التفتت في الظلام وقالت: "(بيرتي؟)" فقال: "نعم.." فقالت: "إنني
مستيقظة أيضاً.." فقال لها: "أعرف ذلك.." ووقداً، وكانت هي مستيقظة
مستقيمة ومتصلبة جداً، وهو متكور على نفسه مثل يد مرتخية مقفلة
نصفيًا إلى الداخل.. وتحسست بيدها في الظلام منحفاة السلس
وامتلات بدهشة لا تفسير لها.

سألت: "(بيرتي؟)" وتمهلت لفترة طويلة وواصلت: "كيف..
كيف أصبحت هكذا؟" فمَرِثَ ليربة وقال: "ما الذي نقصديته؟"

قالت: "كيف ترتاح؟" .. وتوقفت.. بدا الأمر سيئاً جداً.. بدا إلى حد كبير كاتهام، ولكنه لم يكن كذلك في الحقيقة.. كانت تعرف أنه رجل يهتم بكل الأشياء.. رجل يمكنه أن يرى في الظلام، وفي نفس الوقت ليس مختلاً يتباهى بقدرته تلك.

الآن هو قلق عليها وعلى حياة - أو موت - أمها.. ولكن كانت له طريقته في القلق بدت غريبة، لا مبالية وغير مستؤولة.. وهي لم تكن من أى من الطريقتين.. كان اهتمامه العميق كله بنفسه، جذباً إلى جنب مع بعض الإيمان.. الإيمان الذي تقبلها وجعله مريحاً بها ولم يقاومها قط.. شيء ما فيه تقبل الحزن أولاً ثم تكيف معه وتعرف على كل طرقه وسبله قبل توصيل الرسالة إلى كل أجزاء جسمه المنتظرة.

كان جسمه متمسكاً بإيمان غريب كالمناهة المعقدة، والحزن الذي أصابه انتهى وتبدد قبل أن يصل في النهاية إلى المكان الذي أراد أن يؤذيه منه.. أحياناً هذا الإيمان دفعها إلى غضب لا معنى له، وهو ما كانت تتعافى منه بسرعة.. لمعرفتها أنه لا جدوى من انتقاد شيء ما مختلف كبذرة في ثمرة خوخ.

وقالت له أخيراً: لكن لماذا لم ألتقطه منك قط في أى وقت مضى؟... فضحك قليلاً بركة وقال: "تلتقطين ماذا؟".

لقد التقطت كل الأشياء الأخرى إلا هذا.. إنك تجعلنى مستقرة بعض الوقت ثم تهزنى بعنف في أوقات أخرى.. لم أعرف شيئاً إلا ما علمتنى إياه.

توقفت فجأة، إذ كان من الصعب الشرح . حياتهما كانت كالدم الساخن الذي يتدفق خلال الأنسجة المختلفة بهدوء في الاتجاهين في عروق شخص ما . ثم أردفت: "كل شيء إلا الدين . فأننا لم التقط ذلك منك في أى وقت من الأوقات . فقال لها: "إنه شيء لا يلتقطه المرء يا عزيزتى من أحد . في يوم ما سوف ترتاحين، وما هو ذا قد أقبل ذلك اليوم .

فكرت في الراحة، لكن أى راحة؟ راحة جسمها . وكيف تريح ذهنها؟ . اختلجت أصابعها بجوارها . وتجولت عيناها بكسل في كل أنحاء محطة الطاقة الكهربائية من الداخل . كانت الآلات واقفة وراءها ومن فوقها كتماثيل معتمة تنطلق منها بعض الشرارات . وأخذ الطنين يزحف إلى كل أعضاء جسمها،

كانت مجهدة للغاية وعلى وشك النوم . وفعلًا سرعان ما نومت . وكانت عيناها تتفتحان وتتغلقان وتتفتحان وتتغلقان مراراً وتكراراً . وملا الطنين المتواصل نخاعها كما لو أن بعض الطيور الطنانة الصغيرة تسكن ثنايا جسمها وداخل رأسها .

تبعث الأنابيب نصف الظاهرة إلى أعلى ناحية السقف، ورأت الآلات وسمعت التفافات والاندفاعات غير مرئية . وفجأة أصبحت واعية تماماً أثناء نعاسها . وبدأت عيناها تتحركان إلى أعلى وأعلى ثم إلى أسفل ثم عرضياً . وعندئذ بدأ يزداد صوت الغناء الطنيني للآلات وتحركت عيناها واستقرخى جسمها . ورأت على النوافذ الخضراء العالية ظلال الأسلاك عالية الضغط وهي تدفع خلال ظلام الليل المطير .

الآن أصبح الطنين داخلها هي... وارتجفت عيناها وشعرت بنفسها ترتفع بقوة إلى أعلى.. شعرت بأن مولد دوار يقبض عليها ويلفها ويلفها، بحيث تدخل في أشياء خفية دوارة عجيبة هناك وتتفرز في قلبها.. تدخل في آلاف الأسلاك النحاسية التي تستقبلها، ثم يتم إطلاقها في لحظة واحدة فوق الأرض!.. وهكذا أصبحت موجودة في كل مكان في نفس الوقت!

اندفعت بسرعة البرق على طول الأبراج العسلاقة في ثوان.. وهي تنز وتطش بين الأعمدة العالية، حيث توجد مقابض زجاجية صغيرة كطيور شديدة الخضرة تمسك بالأسلاك بمناقيرها العازلة للكهرباء.. تتفرع في أربعة اتجاهات رئيسية وثمانية اتجاهات فرعية.. تعثر على البلدات والقرى الصغيرة والمدن، تسرع الطيران فوق المزارع والعرب والمراعى.. ثم تهبط بلطف، كنسيج هائل من خيوط نسيج العنكبوت منتشر على الآلاف الكيلومترات المربعة من الصحراء!

أصبحت الأرض فجأة أكبر بكثير من الأشياء المنفصلة.. أكبر من المنازل والصخور والطرق الخرسانية وأي حصان هنا أو هناك أو أي إنسان في قبر ضحل مغطى بالحجارة وأية نباتات صبار شوكية.. وأية بلدة يحاصرها ضوؤها ذاته ويلفها الظلام من كل جانب.. بل ملايين الأشياء المنفصلة.. وفجأة تجسدت فيها كل تلك الأشياء في نموذج واحد تسيطر عليه الشبكة الكهربائية النابضة.

هبطت بخفة داخل حجرات تتبعث فيها الحياة من فجوة يظهر مفل
عريان.. داخل غرف تغادر فيها الحياة أجسام البعض كضوء يخفت
تدريجياً من مصباح كهربائي.. قتيله متوهج ولكنه يخفت تدريجياً حتى
ينعدم لونه.. كانت موجودة في كل بلدة، كل بيت، كل حجرة، وترسل
أشكالاً ضوئية عبر مئات الكيلومترات من الأراضي.. تسمع وترى كل
شيء.. لن تعود وحيدة بعد الآن، ولكنها تظل واحدة من آلاف الناس،
لكل منهم أفكاره ومعتقداته.

تمدد جسدها كقطعة خشبية لا حياة فيها.. شاحبة وتترعد..
وانطلق ذهنها، في خضم كل توتره الكهربائي، هنا وهناك في أرجاء
الشبكات الواسعة لمحطة الكهرباء القرعية.

كان ثمة توازن في كل شيء، حولها، في إحدى الغرف شاهدت
الحياة تفقد تضارثها ويهيجتها، وفي غرفة أخرى بعيدة، رأت كؤوس
النبيذ يتناولها غرباء.. ويتداول السيجار بين المدخنين، وتقرر الثغور
عن ابتسامات، وتتم مصافحات باليد عند التحية والمغادرة،
وتنطلق الضحكات.

شاهدت الوجوه المتقعة الشاحبة لأناس يحضرون فوق أسرة
بيضاء، وسمعتهم وهم يستوعبون ويقبلون الموت، ورأت إيماءاتهم
وشعرت بأحاسيسهم وأدركت أنهم - أيضاً - كانوا يعانون من الوحدة
في داخلهم، وليس لديهم أية وسيلة للخروج إلى حيث ينبض الحياة،
ليشاهدوا بأنفسهم ذلك التوازن، كما تراه هي الآن.

أزدردت ريقها، وارتجفت جفون عينيها وأحست بحرقه في حلقها،
عندما رفعت أصابعها لتتحسس.

لم تكن وحيدة.

فقد كان المولد الكهربائي يدور بسرعة ويقذف بها بقوة الطرد
المركزي عبر آلاف الأسلاك إلى مليون مصباح زجاجي مثبتة في
السقوف، تستمد الإضاءة من جذب سلك كهربائي عازل أو دوران مفتاح
تحكم أو لمسة لمفتاح كهربائي قد يشع الضوء في أية غرفة، كل ما هو
مطلوب مجرد الضغط على مفتاح كهربائي، كانت كل الغرف مظلمة،
حتى جاء الضوء، وما هي ذي موجودة بكل الغرف في وقت واحد، بيد
أنها لم تكن وحيدة. لقد أضناها الحزن إلا أنه كان مجرد جزء من حزن
شامل يثقل الكاهل، وكان توجسها واحداً من مخاوف لا تعد ولا تحصى،
لم يكن خوفها مكتملاً بل كان تنقصه تلك الأشياء التي تولد، والبهجة
التي تتمثل في طفل جديد يأتى إلى الحياة، ومتعة الطعام في جسم
دافئ، وروعة الألوان التي تتجدي أمام العين، والأصوات الرخيمة في أذن
يقظة، ورائحة زهور الربيع البرية.

ووقتما تنطفئ، الإضاءة، فإن الحياة تدفع بمفتاح كهربائي آخر،
فتضاء الغرف من جديد، لقد كانت مع هؤلاء الذين يدعون (كلارك)
والذين أسماؤهم: (جراي) و(شو) و(مارتن) و(هاندفورد) و(فتون) و(دريك)
و(شاتوك) و(هابيل) و(سميث)، وهكذا فإن وحدتها لم تكن حقيقية،
بل كانت مجرد شعور ذهني. كان لديها ثقبوب عديدة في رأسها،

وربما كان هذا تعبيراً غريباً وساذجاً لوصف حالتها، ولكن كانت ثمة ثقوب بالفعل، يمكن الرؤية من خلالها وإدراك أن هناك عالماً يعج بالناس، الذين يشعرون بالمعاناة والقلق، مثلها تماماً.

كما أن هناك ثقوباً لإصغاء السمع، وثمة ثقب ليتحدث عن خوفها وكيفية التخلص منه، وثقوب للتعرف على التغيرات في الفصول المناخية، من خلال الرائحة المميزة لحبوب الصيف أو تلج الشتاء أو الحرائق التي تتشرب في الخريف.

إن ثقوب الجسم قد وجدت هناك بحيث لا يكون أحدها وحيداً أبداً، إذ إن الوحدة لا تجعل الإنسان يصدر حكماً صائباً على الأمور، وكان للإيمان الراسخ بالحقيقة مجرد ثقب عادي.

كانت شبكة الضوء تغطي العالم كله، الذي عرفته لمدة عشرين عاماً، واندمجت بنفسها مع كل سلك للفرق وتوهجت وتحولت إلى موجة نابضة، ووصلت حتى إلى المصانع والمعامل الكبرى، وامتدت عبر الأرض، تغطي كل ميل كغطاء رقيق ودافئ ويطن في خفوت، لقد كانت موجودة في كل الأرجاء والأحشاء.

في داخل محطة توليد الطاقة الكهربائية، أخذت المولدات تدور بسرعة وتطن، وكان الشرر الكهربائي - الذي يشبه شموع النور^(٤) -

(٤) التي تغطي وقاء لنور، (المترجم).

يتطاير ويتجمع فوق شبكة أنابيب منخنية ذات مرافق، وزجاج، وكانت
الآلات مفتصبة وكأنها قديسون ومنشدون، تطوقهم ألواناً متباينة
ومتغيرة، من اللون الأصفر والأحمر والأخضر، وثمة إيقاعات عالية، على
طول تجاويف السقف، يتردد صداها إلى أسفل حيث الترانيم
والنسابيح اللامتناهية.

وفي الخارج، كانت الرياح تصخب وهي تصطدم بجدران الطوب
الأحمر، وتبلل النوافذ الصقيلة بالأمطار، أما في الداخل فقد كانت ترقد
على وسادتها الصغيرة، وفجأة بدأت تذرف الدموع، لم تكن تعرف
أسباب انخراطها في البكاء، هل لأنها أدركت حقيقة الأمر، أم لأنها
تقبلته بابتهاج، أم لأنها سلمت به كأمر لا مفر منه. إنها لا تدري.

استمر الإنشاد وارتفعت نغماته أكثر وأكثر. شعرت وكأنها توجد
في كل الأرجاء والأتواء.

مدت يدها وأمسكت بذراع زوجها، الذي كان لا يزال مستيقظاً،
وعيناه تحدقان بثبات في السقف، لعله - هو الآخر - قد جاس في كل
موضع، في هذه اللحظات بالذات، عبر شبكات الضوء والطاقة الكهربائية.
لقد كان يشعر بنفسه وكأنه وحدة من كل متكامل، ومن ثم كان مستقراً
ذهنياً ومتوازناً، أما هي فقد كانت الوحدة أمراً جديداً يجعلها ترتجف
من الخوف، أحست - فجأة - بذراعيه يحتضنها، قضضت وجهها
بقوة على كتفه لفترة طويلة، بينما كان الطنين يتعاضم، عادت تنتحب
بلا انقطاع وهي تحتضنه.

في الصباح، كانت سماء الصحراء بلا سحب على الإطلاق، خرجا بهدوء من محطة توليد الكهرباء، ووضعنا سرجين على جواديهما، وثبنا حزاميهما على كل المعدات، ثم امتطيا الجوادين.

اعتذلت في جلستها فوق سرج الحصان، تحت السماء الزرقاء الصافية. وأخذت - بتؤدة - تشعر بظهرها المستقيم، وراحت تنظر إلى يديها، اللتين بدتا لها غريبتين، وهما تمسكان بمسير اللجام، ولاحظت أنهما توقفتا عن الارتعاد. وأرسلت ببصرها بعيداً، فاستطاعت رؤية الجبال الشاهقة على البعد، حيث لم يكن ثمة ضباب يخفيها عن نظرها، كما شاهدت كل الأشياء بالكوانها الطبيعية وتفاصيلها الدقيقة.

كل شيء صلب وراسخ، الحجر يلامس الحجر، والصخر يلامس الرمال، والرمال تلامس الزهور البرية، والزهور البرية تلامس السماء الرائقة في تدفق مستمر، كل شيء محدد ويمكن التعرف عليه منفرداً.

صاح (بيرتي) "وب!" فتسهل الحصانان وسارا بتؤدة، بعيداً عن المبنى المشيد من الطوب الأحمر، وخلال هواء الصباح البارد والمنعش.

كانت تقود الحصان ببراعة وخبرة، وفي داخلها كان هناك هدوء وسلام، مثل نواة في ثمرة خوخ، قالت لزوجها بينما كانا يتمهلان لصعود مرتفع "بيرتي!" "ما الأمر؟"

تساطت "هل نستطيع...؟"

رد قائلاً، إذ لم يسمع سؤالها في المرة الأولى "نستطيع ماذا؟"

سألت من جديد وهي تومئ إلى الخلف، حيث، محطة توليد الطاقة الكهربائية هل يمكننا أن نأتي إلى هناك في وقت ما؟ مرة كل فترة من الزمن؟ في يوم أحد؟ تطلع إلى زوجته ثم أومأ برأسه بتؤدة وقال: أعتقد أن هذا ممكن، بل مؤكد. أجل أعتقد هذا.

وبينما كانا يسيران بجواديهما في طرقات المدينة، كانت تدندن بنغمات رقيقة، كان زوجها يحدق فيها وينصت إليها، لقد كان صوتها مثل ذلك الذي تتوقع سماعه من روابط خطوط السكك الحديدية التي لفحتها الشمس في يوم صيفي قانظ، عندما يترقق الهواء الصاعد، أو مثل صوت تساقط ثلج خفيف في الشتاء أو حفيف بتلات متشعبة من عتبت واحد.

كان صوتها من سلم موسيقى واحد وطبقة موسيقية واحدة، يتصاعد قليلاً لفترة ثم ينخفض رويداً، تدنة مستمرة لا تتوقف، رخيصة عندما تسمعها، إضافة إلى أنها تدخل الطمأنينة والسلام إلى القلوب.

ترحيب ووداع

بالطبع كان يجب عليه أن يرحل، لم يكن ثمة شيء آخر يمكن عمله. فقد انتهى الوقت وأزقت الساعة، فهو سوف يرحل إلى بعيد جداً في واقع الأمر.

كان قد أعد حقيبة سفره، وقام بتلميع خذائه ومشط شعره واهتم بغسل ما خلف أذنيه. ولم يكن أمامه إلا أن يهبط الدرج خارجاً من الباب الأمامي للمنزل، متجهاً إلى أعلى الشارع، إلى أن يصل إلى محطة السكك الحديدية الخاصة بهذه المدينة الصغيرة، حيث سيتوقف القطار خصيصاً من أجله.

ثم ينطلق القطار إلى (فوكس هيل) بولاية (إلينوي)، التي ما زالت لها ذكريات دافئة في ماضيه البعيد، وسوف يكمل رحلته إلى ولاية (إيوا) وربما إلى ولاية (كنساس)، وقد يمتد به الطريق إلى ولاية (كاليفورنيا)، إنه يبدو كصبي صغير الحجم في الثانية عشرة من عمره، بيد أن لديه شهادة ميلاد في حقيبته تشهد أنه قد ولد منذ ثلاثة وأربعين عاماً مضت.

جاء صوت من أسفل الدرج صائحاً: "ويلي".

رفع حقيبة سفره وقال: "أنا هنا!" وفي المرأة التي توجد في مكتبه، شاهد وجهها أصفر شاحباً بلون أزهار الهندباء البرية^(١) في يونيو، وتفتح يوليو والطيب الدافئ في صباح أحد أيام الصيف. وكانت هناك تلك النظرة الدائمة الملانكية والبريئة، التي ربما لم تتغير عبر كل سنين حياتها.

صاحت المرأة لقد حان الوقت.

قال "حسناً" ثم أخذ يهبط الدرج، مبتسماً ومصدرًا صوتاً حلقياً عميقاً معبراً عن الاشمئزاز. وفي حجرة المعيشة جلست (أنا) ووجانبيها (ستيف)، كانا يرتديان ثياباً أنيقة للغاية.

صاح (ويلي) عندما وصل إلى باب غرفة الاستقبال "ها أنا ذا".

تطلعت إليه (أنا) وبدأ وكأنها على وشك البكاء، (يا إلهي! هل سوف نتركنا بالفعل، أتستطيع ذلك يا (ويلي)؟).

رد (ويلي) بهدوء "ها هم أولاء الناس قد بدأوا يتكلمون، لقد مكثت هنا ثلاث سنوات، ولكن عندما يشرع الناس في الكلام عني، أوقن أنه قد حان الوقت لكي أرتدى حذائي وأبتاع تذكرة قطار".

قالت (أنا) إن الأمر بالغ الغرابة، إنني لا أفهم. لقد حدث كل شيء فجأة. (ويلي) إننا سوف نفترق ذلك.

(١) نبات يتميز بأزهاره الجميلة البنفسجية، وله فوائد طبية إذ إنه غني باليوتاسيوم والكالسيوم. (المترجم).

قال (ويلي) "أعدكم بأننى سوف أكتب لكم فى كل عيد ميلاد. فهل ستكتبون لى؟".

رد (ستيف) بقوله: "لقد سعدنا للغاية بوجودك معنا" كان يبدو وكأن حجم الكلمات لا تناسب فمه. واستطرد "... ومن المؤسف أن كل هذا قد توقف. وأنت اضطررت لحكاية كل شيء عنك. وإننى حقاً أشعر بالأسف الشديد لأنك لا تستطيع الاستمرار فى البقاء معنا".

قال (ويلي) "لقد كنتم من أفضل الناس الذين قابلتهم فى حياتى" ووقف بقامته التى تبلغ نحو أربعة أقدام^(٢) طويلاً، حليقاً وأشعة الشمس تغمر وجهه.

وهنا بدأت (أنا) فى البكاء بالفعل، وقالت وسط عيراتها (ويلي)، (ويلي) "ومهاالكت فوق أحد المقاعد، وكان واضحاً أنها كانت تود أن تضعه إلى صدرها. بيد أنها كانت خائفة أن تضعه إليها حينئذ، تطلعت إليه مصدومة ومذهولة ويداها فارغتان لأنها لم تحتضنه، ولم تكن تعلم ما الذى يجب عليها أن تفعله من أجل (ويلي) فى هذه اللحظات.

قال (ويلي) "ليس من السهل على أن أذهب. فالإنسان يعتمد على الأشياء ومن ثم يفضل البقاء فى نفس المكان، لكن الأمر صعب. لقد حاولت البقاء ذات مرة، بعد أن بدأ الناس ينتابهم الشك. قال الناس

(٢) القدم يساوى ٤٨، ٢٠ سنتيمتر (المترجم).

باللفظاعة! كل تلك السنين وهذا القزم يلعب مع أطفالنا الأبرياء دون أن نخمن أبداً! يا له من شيء مروع! وفي النهاية كان على أن أترك المدينة ذات ليلة. لم يكن أمراً سهلاً، إذ إنكما تعلمان جيداً مقدار الحب الذي أكنه لكما. ولا أستطيع أن أعبر عن تلك السنوات الثلاث التي أمضيتها معكما.

اتجهوا جميعاً إلى الباب الأمامي (ويلي) إلى أين أنت ذاهب؟
رد (ويلي) قانلاً لا أعرف. سوف أبدأ الترحال. وعندما أصل إلى مدينة تموج بالحقول الخضراء وتبدو في نظري جميلة، سأستقر بها.
هل ستعود إلينا يوماً ما؟

قال (ويلي) بصنق وينبرات صوته المرتفعة بالتأكيد! فبعد نحو عشرين عاماً سوف يتغصن وجهي، عندئذ سأقوم برحلة كبرى، إلى كل المدن التي عشت فيها، لأقابل جميع الأشخاص الذين اعتبرتهم مثل أبنائي وأمهاتي.

وقفوا عند سور الحديقة في نسائم الصيف المعتدلة، وهم مترددون في قول عبارات الوداع. كان (ستيف) ينظر بثبات إلى شجرة كبردار^(٢)، ودراج يسأل (ويلي) كم من الآباء والأمهات الآخرين، عشت معهم؟ كم عدد حالات التبني؟

(٢) شجرة جميلة المنظر وخشبها جيد للبناء وقد يصل ارتفاعها إلى ٢٠ متراً وتعيش ١٥٠ عاماً. (المترجم)

أخذ (ويلي) يفكر في الأمر لهنيئة، وقد ظهرت أمارات السعادة على وجهه ثم قال: "أعتقد أنني مكثت في نحو خمس مدن مع خمس عائلات، وقد مرت أكثر من عشرين عاماً، منذ أن بدأت رحلتى".

قال (ستيف) "حسناً! إننا لن نتذمراً! إذ إنه من الأفضل أن نحصل على طفل في الثالثة من عمره، عن ألا يكون لنا طفل على الإطلاق".

قال (ويلي) "حسناً" ثم قبل (أنا) بسرعة، وحمل حقيبتيه وسار إلى أعلى الشارع في ضوء الظهيرة الأخضر، تحت الأشجار، كان يبدو بالفعل كصبي صغير للغاية، ولم ينظر وراءه، بينما كان يركض بتصميم إلى حيث محطة السكك الحديدية.

كان الأولاد يلعبون في المنتزه ذات الحشائش الخضراء، عندما مر من هناك. توقف قليلاً بين ظلال أشجار البلوط، وأخذ يراقب الأولاد وهم يقذفون بكرة البيسبول البيضاء - التي تشبه قطعة من الثلج - في هواء الصيف الدافئ. وشاهد ظل كرة البيسبول تطير مثل طائر أسود فوق الحشائش، وراح يلاحظ أيديهم وهي مفتوحة كأقواء ضخمة، لالتقاط الكرة التي بدت وكأنها قطعة مارقة من الصيف. أخذ الأولاد يصرخون، فقد سقطت كرة البيسبول بالقرب من المكان الذي وقف فيه (ويلي).

التقط الكرة وسار بها تحت ظلال الأشجار، راح يتذكر الثلاث سنوات الأخيرة التي انقضت دون رجعة، والخمس سنوات التي قبلها، وكل السنوات الأخرى، عندما كان عمره بالفعل إحدى عشرة واثنتي عشرة وأربع عشرة سنة، وتبادر إلى ذهنه العيد من التعليقات

"آيتها السيدات! ما الشيء غير المناسب في (ويلي)؟" يا سيدة (ب) هل (ويلي) ينمو ببطء؟ (ويلي)، هل تدخن السيجار حالياً؟

أخذت صدى الأصوات تزدى في ضوء الصيف وما يكتنفه من ألوان. وتذكر صوت والدته (ويلي)، اليوم عيد ميلاد (ويلي) الواحد والعشرين! ولكن لا يبدو عليه عمره الحقيقي.. لأنه قزم.

وآلف صوت يرد عليها "بنى" عد إلينا عندما تبلغ الخامسة عشرة من عمرك، حينئذ ربما نلحقك بوظيفة.

راح يحدق في كرة البيسبول التي التقطها، بأيدي ترتجف كما لو كانت تمثل حياته، كرة بالغة الطول وكأن لا نهاية لها، مجرد خيوط ملتفة تظل تدور وتدور وتدور، ولكنها دائماً تقود (ويلي) إلى الماضي، إلى عيد ميلاده الثاني عشر. سمع الأولاد وهم يتجهون إليه، شعر بالخزي، لأنهم أطول منه قامه، بينما كانوا يلتفون حوله، وحجبوا ضوء الشمس عنه.

ركل الأولاد حقيبة سفره وقالوا (ويلي) إلى أين أنت ذاهب؟

ما أطولهم وهم واقفون أمام الشمس.. بدا أن الشمس في الشهور القليلة الماضية قد مسحت بيدها على رؤوسهم وانحنت لهم بإعزاز.. كانوا كفلزات مصهورة تم سحبها إلى أعلى.. بدوا كحلوى ذهبية اللون جذبتها قوة هائلة إلى السماء.. كلهم في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر ويحدقون في (ويلي) أسفل منهم وهم يتسممون.. لكنهم بدأوا الآن يتجاهلونه.. وقد بدأ كل ذلك منذ أربعة أشهر.

- "اختر الجانب الذى تريد أن تلعب معه!.. من يريد (ويلى)؟"

- "آوه.. إن (ويلى) قصير جداً، ونحن لا نلعب مع أطفال".

أسرعوا يركضون أمامه، كما لو كان يسحبهم كل من القمر والشمس وموسمى الربيع والخريف المتحولين.. بينما هو فى الثانية عشرة، كما أنه لم يعد ينتمى إليهم.. ثم بدأت الأصوات الأخرى تردد عباراتها القديمة الباردة المألوفة والمملة تماماً: "الأفضل يا (ستيف) أن نعطي هذا الصبي فيتامينات" .. "(أنا) هل قصر القامة وراثية فى عائلتك؟" الآن بدأوا فى تدليك قلبك مرة أخرى، لأن الجنور لابد من اقتلاعها مرة أخرى بعد كل تلك السنوات الرائعة مع "الرفاق".

- "(ويلى)، إلى أين أنت ذاهب؟"

هز رأسه بلا مبالاة.. كان الآن قد عاد بين الصبية العمالقة الذين يتحركون من حوله كعماليق فى نافورة شرب تنحنى إلى أسفل.

- "ذهاب لقضاء بضعة أيام فى زيارة ابن عم لى".

- "آه، لا بأس يا عزيزى".

منذ عام وفى أحد الأيام كانوا يهتمون بأمره كثيراً.. لكن الآن لم يعد لديهم سوى حب الفضول عند رؤية حقائبه.. وافتتانهم بالقطارات والرحلات والذهاب إلى الأماكن البعيدة.

قال (ويلى): "ما رأيكم فى بضع رميات للكرة؟"

لم يصدقوا ما سمعوه.. ولكن نظراً للظروف الحالية فقد أومأوا برؤوسهم.. ألقى بحقيبتيه وأسرع يجرى، وكانت كرة البيسبول البيضاء عالية فى جو الشمس الذهبى.. بعيداً عن أجسامهم المتقدة بأشعة الشمس وسط المروج البعيدة.. ثم علت باتجاه الشمس مرة أخرى.. إنها ترتفع وتهبط ككائن ينبض بالحياة.

هنا وهناك.. السيد والسيدة (روبرت هانلون)، مدينة (كريك بند)، ولاية (ويسكونسون)، ١٩٣٢.. أول أسرة عاش معها فى العام الأول.. هنا وهناك.. (هنرى وأليس بولتز)، مدينة (ليمفيل)، ولاية (إيوا)، ١٩٣٥.. كرة البيسبول تطير. ثم أسرة (سميث)، و(إيتونز)، ويدها أسرة (روينسون) فى عامى ١٩٣٩، ١٩٤٥.. زوج وزوجة، زوج وزوجة، زوج وزوجة، بدون أطفال، بدون أطفال، بدون أطفال.. دق هذا الباب.. ثم دق باب آخر.

- "معذرة.. اسمى (ويليام).. إننى أقسام ما إذا كان...".

- تريد شطيرة؟ لا بأس، ادخل واجلس هنا.. من أين جئت يا بنى؟

ها هى ذى الشطيرة ومعها زجاجة لبن باردة طويلة، وابتسامة وإيماءات بالرأس، وكلمات رفيقة حانية.

- يبدو لى أنك قادم من سفر طويل.. هل هربت يا بنى من

شئ ما؟

- "لا يا سيدى"

- "إذن هل أنت يتيم يا بنى؟"

ثم ها هي ذى زجاجة لبن ثانية.

- "لقد تمنينا أن يرزقنا الله بأطفال.. لكن ذلك لم يتحقق قط..

ولا نعرف أى سبب أدى إلى هذا.. حسناً، حسناً.. لقد تأخر الوقت يا بنى..

ألا تعتقد أنه من الأفضل لك العودة إلى منزلك؟"

- "ليس لى أى منزل."

- "إن طفلاً صغيراً ورقيقاً مثلك وغير محنك لابد أن أمه سوف

تقلق عليه كثيراً."

- "ليس لى أى منزل ولا أى أسرة أعيش معها فى أى مكان من

العالم.. وأنا أتساءل هل بإمكانى أن أبيت هنا الليلة؟"

قال الزوج: "الواقع يا بنى، لا أعرف بالضبط.. لم يخطر على بالنا

أن نأوى....."

قالت الزوجة: "لدينا حاجة للعشاء هذه الليلة.. وذاك يكفيننا ومعنا

صيف ثالث من صحتنا."

وهكذا تحضى السنون وتمر.. الأصوات والوجوه والناس تتغير

ولكن أول محادثة هى نفسها دائماً.. صوت (إميلى روبنسون) وهى قايلة

فى كرسيها الهزاز فى ظلام ليلالى الصيف، فى آخر ليلة قضائها معها..

الليلة التى اكتشفت فيها سره، وهى تقول له:

- "إننى أنظر جيداً فى وجوه الأطفال الصغار الذين أراهم.. وأفكر أحياناً كيف أنه من المؤسف والمخزى حقاً أن نقطع كل تلك الزهور وأن تطفأ كل تلك النيران المتأججة.. وكيف أنه من المؤسف أن كل أولئك الأطفال الذين تراهم فى المدارس أو يجرون من حولك سوف تطول قاماتهم ويسوء منظرهم وتتجدد بشراتهم ويبيض شعرهم أو يصبحون صلماً.. وأخيراً يتحولون إلى عظام وحطام.. ثم يموتون ويدفنون فى التراب.. عندما أسمعهم يضحكون لا أصدق أنهم سوف يسيرون فى نفس الطريق الذى سرت فيه.. وها هم أولاء يأتون الآن.. ومازالت أنتكر قصيدة (وردزورث) التى يقول فيها: "بمجرد أن رأيت ذات مرة ذلك الزحام.. هذا الحشد من زهور المرجس البرية ذهبية اللون.. بجوار البحيرة.. وتحت الأشجار.. ترفرف وترقص فى هذا النسيم العليل.. هذا هو ما أفكر فيه بخصوص الأطفال.. رغم أنهم يكونون أحياناً قساة القلوب.. ورغم أننى أعرف مدى حقارتهم ودناءتهم.. إلا أننى لا أرى تلك الحقارة فى أعينهم التى لا يبدو فيها أى تعب أو إجهاد.. إنهم متحمسون دائماً لعمل أو سماع أى شئ.. ولعل ذلك هو أكثر ما أفنقه فى كبار السن.. الحماس الذى خمدت جذوته تقريباً.. الحيوية التى كانت تخبو.. أكثر جوانب الحياة واللواغ تصبح لا قيمة لها.. إننى أقضل أن أرى خروج التلاميذ من المدرسة كل يوم.. إن ذلك يشبه إلقاء حزمة من الزهور إلى خارج أبواب المدرسة.. كيف تشعر بذلك يا (ويلي)؟.. كيف تشعر إذا بقيت صغيراً إلى الأبد.. أى بحيث تبدو دائماً كعملة فضية خارجة لتوها من دار سك النقود.. هل أنت سعيد يا بنى؟.. هل أنت هائى مثلاً تبنى؟.."

صدر صوت من كرة البيسبول وهي قادمة من السماء الزرقاء،
ولدت يده كحشرة شاحبة ضخمة.. وبعد أن التقطها سمع ذاكرته
تقول له:

"لقد سجلت كل ما مر بي.. بعد أن مات رفاقي، وبعد أن وجدت أنه
لا يمكنني الحصول على عمل لرجل في أي مكان.. ذهبت إلى فرق
الملاهي المتنقلة ولكنهم ضحكوا لي وقالوا: 'يا بني.. إنك لست قزماً..
وحتى لو كنت كذلك، فيأئك تبدو كصبي!.. نحن نريد أقزاماً لهم وجوه
الأقزام!.. أسفين يا بني.. أسفين للغاية.."

وهكذا غابرت منزلي ومضيت إلى حال سبيلي وأخذت أسأل
نفسي: "من أنا؟.. صبي؟.. نعم كنت أبدو كصبي وصوتي كصوت
صبي.. ولذلك لعله يجب علي أن أبقى صبياً!.. لا جدوى من مقاومة
ذلك.. ولا جدوى من البكاء أو الصراخ.. إذن ما الذي ينبغي لي عمله؟..
ما الوظيفة المتاحة لي؟.."

وفي أحد الأيام رأيت ذلك الرجل في أحد المطاعم وهو ينظر في
صور أطفال رجل آخر.. وسمعته يقول: "بالطبع أحب أن يكون لدى
أطفال.. نعم، هذا ما أريته دائماً.. وأخذ يهز رأسه، كنت أجلس على
بعد بضعة مقاعد منه وأنا ممسك في يدي بشطيرة لحم بقرى.. قبعته في
مكاني متجمداً!.. وفي تلك اللحظة أدركت ما هي وظيفتي التي سوف
أمارسها فيما تبقى لي من العمر.. ببساطة شديدة كان أمامي العمل
الذي يناسبني.. أن أجعل الناس الوحيديين سعداء!.. وأن أشغل وقتي

بشيء مفيد!.. وأن ألعب وألهو إلى الأبد.. نعم، عرفت أنني سألعب وألهو إلى الأبد.. مثلاً ربما أسلم بعض الجرائد وأقضى بعض المشاوير وأقطع حشائش الحدائق والمروج.. لكن أعمال شاقة؟.. لا، مطلقاً!.. فكل ما على عمله هو أن أكون ابناً مطيعاً لأمه أو ابناً يفخر به والده.

التفت إلى الرجل الجالس على الطاولة المجاورة وقلت له: أرجو المَعذرة، وابتسمت له..

قالت لي السيدة (إميلي) منذ وقت طويل: ولكن ألا تشعر أبداً بالوحدة يا (ويلي)؟.. ألم تتمن قط أشياء يريدونها الكبار عادة؟..

أجابها (ويلي): لقد قاومت ذلك بمفردي.. لقد قلت لنفسى إننى صبي وإنه على أن أعيش كصبي فى هذا العالم.. على أن أقرأ كتب الأولاد وألعب ألعاب الأولاد وأن أبتعد عن أى شيء آخر.. لا أستطيع أن أكون الاثنين معاً.. نعم يجب أن أكون صغيراً دائماً.. ولقد نفذت ذلك بالفعل.. ياها!.. لم يكن ذلك سهلاً قط.. بل كانت هناك أوقات - ثم ما لبث أن لاذ بالصمت.

- والأسرة التى كنت تعيش معها.. ألم يعرفوا قط؟

- لا.. لأن إختيارهم كان سيفسد كل شيء.. لقد قلت لهم إننى هارب، وتركتمهم يستقصون عنى بالطرق الرسمية من الشرطة.. ثم عندما لم يجدوا أى ملف جنائى أو إجرامى لى، قرروا أن يتبنونى.. وكانت هذه أفضل نهاية.. طالما أنهم لم يخسروا من أنا.. ولكن بعد ثلاث سنوات

أو خمس سنوات خمنوا .. أو جاء هم رجل مسافر .. أو رآني أحد أفراد فرقة
ملاه متنقلة، وكانت هذه هي النهاية .. نعم، فكل شيء نهاية .

- "وهل أنت سعيد ومبتهج لكونك صبيًا لأكثر من أربعين عامًا؟"

- "هذه هي الحياة أو لقمة العيش كما يقولون .. والحقيقة أنك عندما
تجعلين الناس سعداء فسوف تشعرين بالسعادة أنت أيضًا .. لقد حصلت
على عمل وأنا أقوم به جيدًا .. وعلى أية حال ففي غضون بضعة سنوات
سوف أدخل في مرحلة طفولتي الثانية .. كل الانفعالات سوف تبتعد
عني وكذا كل الرغبات التي لم تتحقق ومعظم الأحلام التي حلمت بها .
ووقئذ لعلني أستطيع أن أسترخي وأستمر في لعب هذا السور
حتى النهاية .

قذف بكرة البيسبول مرة أخيرة وأنهى حلم اليقظة .. ثم ركض
ليمسك بحقيبته .. وتحركت شفتاه بأسماء (توم) و(بيل) و(جيمي) و(بوب)
و(سام) .. وكلهم ارتبكوا وهم يضافحونه بأيديهم .

- "عمومًا فإن (ويلي) لن يذهب إلى الصين أو تيمبوكتو^(١) .

- "هذا صحيح .. أليس كذلك؟" .. إلا أن (ويلي) لم يتحرك أو يتكلم .

- "إلى اللقاء يا (ويلي) .. نراك في الأسبوع القادم إن شاء الله ."

- "إلى اللقاء .. إلى اللقاء ."

(١) مدينة بدولة مالي بغرب أفريقيا . (المترجم)

ابتعد وهو يحمل حقيبته مرة أخرى، وأخذ ينظر إلى الأشجار،
ولم يلبث أن ابتعد عن الأولاد والشارع الذي عاش فيه، وبينما كان
يستدير عند ملف الطريق، مرقت صفارة أحد القطارات الساند،
وبدا يجرى لكي يلحق به.

آخر شيء رآه وسمعه كان كرة بيضاء قذفت باتجاه سطح عال
وأخذت تنقل من الأمام إلى الخلف.. وارتفع صوتان عندما انطلقت
الكرة إلى أعلى وأسفل وإلى الأمام والخلف عبر السماء: (آنى)، (آنى)،
إرمى إلى!، (آنى)، (آنى)، إرمى إلى!.. مثلما تصبح الطيور
وهي منطلقة إلى أقصى الجنوب.

فى الصباح الباكر، وسط رائحة الضباب والأسطح المعدنية الباردة
والرائحة النفاذة لمطر من حوله.. ليلة كاملة من السفر تهر عظامه وكل
جسمه.. ورائحة الشمس وهي قابضة وراء الأفق.. استيقظ وأخذ يحدق
فى بلدة صغيرة تصحو لتوها من النوم.. بدأت الأنوار تنطلق والأصوات
الناعمة تنساب، وإشارة حمراء تظهر وتختفى ثم تظهر وتختفى وهكذا
فى الهواء البارد.. وساد الهدوء المصاحب للنوم، حيث تزداد قوة صدى
الصوت، ولا تسمع سوى أصداء الأصوات الحادة.

اقترب منه أحد الحمالين.. مجرد شبح بين الأشباح. ونادى (ويلي):
"سيدي.. وتوقف الحمال.

همس الصبي وسط الظلام السائد: "ما اسم هذه البلدة؟"
فتجابه الحمال: "فاليقيل".

- "هلا أخبرتني بريك عدد الناس الذين يعيشون هنا؟"

- "أظن أنهم حوالي عشرة آلاف.. لكن لماذا تسأل؟.. هل هذه محطة وصولك؟"

حديق (ويلي) في البلدة في هذا الوقت من الصباح الباكر لفترة طويلة وقال: "إنها تبدو رائعة وناضجة بالحياة.. كما أنها جميلة وهادئة".

قال الحمال: "يا بني.. هل تعرف إلى أين أنت ذاهب؟"

أجاب (ويلي): "نعم، هنا.. وتحرك بسرعة في الصباح الهادئ، المارد الذي تفوح منه رائحة الحديد في ظلام القطار بنشاط وجلبة."

قال الحمال: "أرجو أن تكون على دراية بما تفعله يا فتى".

رد (ويلي): "نعم يا سيدى.. أنا أعرف ما أفعله.. ثم أسرع بالسير في الممر المعتم والعمال يحمل حقيبته من خلفه وهما يخترقان الصباح الذي بدأ في الضياء والمفعم برائحة الدخان وبخار الماء، توقف فجأة وأخذ يحديق في العمال والقطار المعدني الأسود وخلفهما القليل من النجوم الباقية.. وأطلق القطار صفارة طويلة عاصفة، وأخذ العمال يصيح طوال الطريق، وارتجت السيارات وارتبكت حركاتها.. وهناك حياً العمال الصبي وابتسم له.. وأخذ الصبي يصرخ بصوت عال وهو يحمل حقيبته الكبيرة بينما كانت الصفارة تهدر مرة أخرى."

صاح الحمال وهو يحسوط أذنيه بيديه: "ماذا تقول؟"، فصرخ
(ويلي): "أتمنى لى حظاً سعيداً".

نادى الحمال وهو يلوح له بيديه ويبتسم له: "أتمنى لك حظاً رائعاً
يا فتى الصغير!".

قال (ويلي) وسط الضجيج الهائل للقطار وهو يزمجر ويهدير...
شكراً لك".

راقب القطار المعتم حتى ابتعد واختفى تماماً من ناظريه.. ولم
يتحرك من مكانه قط أثناء ابتعاد القطار.. ظل واقفاً فى هدوء.. صبنى
فى الثانية عشرة من عمره، واقف على رصيف خشبى متآكل.. ولم
يستدر إلا بعد ثلاث دقائق كاملة لكى يواجه أخيراً الشوارع الخالية من
المارة أسفل منه.. وبينما كانت الشمس ترتفع فى عنان السماء، بدأ
يسير بسرعة فائقة لكى يحافظ على دفء جسمه ودلف إلى داخل
شوارع البلدة الوادعة.

العالم الفسيح الواسع هناك

كان يوماً جميلاً يشجع المرء على مغادرة سريره وجذب الستائر وفتح النوافذ على مصراعها.. كان يوماً يملأ المرء فيه صدره من هواء الجبال الدافئ.. وجلست (كوررا) فى سريرها وهى تحس بشعور فتاة شابة ترتدى ثوباً قديماً مجعداً.

كان الوقت مبكراً وظهرت الشمس لشوها على الأفق.. ولكن الطيور انطلقت بالفعل من أعشاشها.. وعشرة بلايين نملة من النمل الأحمر تتحرك بلا نظام من تلالها الفضية بجوار باب الكوخ.. و(توم) زوج (كوررا) ينام - كدب فى سبات شتوى - بملابس النوم بجوارها.. وتساءلت: "ترى هل يوقظه دقائق قلبى المتلاحقة؟".

وعندئذ أدركت السبب فى أن هذا اليوم خاص للغاية.. وقالت: "(بنجى) قادم إلى هنا".. وتصورته وهو يعيد يقفز على أسوار المروج ويعبر الجداول، حيث يعبر الربيع عن نفسه بألوان الطحالب الباردة والمياه الصافية باتجاه البحر.. ورأت حذاءه الضخم وهو يغبر ويضرب الطرق والممرات الحجرية.. وتصورت وجهه الممتلئ بالنمش عالياً فى ضوء

الشمس ويصاحب بدوار عندما ينتظر إلى جسده الطويل ويديه البعيدتين
المتطوحتين جيئة وذهاباً بجوار جسده.

وجال بفكرها وهي تفتح النافذة بسرعة أن تقول: "(بنجى)، تعال
بسرعة" .. وهبت الريح على شعرها وطوحت كنسيج عنكبوت أشيب حول
أذنيها الباردتين .. الآن (بنجى) عند الجسر الحديد .. الآن عند بوابة
"ميدويك" .. الآن على "ممر كريك" .. والآن فى "حقل شيلسى" ..

(بنجى) موجود فى مكان ما فى جبال "ميسورى" .. وطرفت (كورا)
بعينيه .. هذه التلال العالية الغريبة البعيدة حيث كانت هى و(توم)
يقودان عربتهما - التى يجرها حصان واحد إلى البلدة مرتين فى السنة ..
والتى كانت تريد، منذ ثلاثين عاماً أن تجرى بها إلى الأبد قائلة:

"آه يا (توم) .. هيا بنا نقود العربة حتى نصل إلى البحر .. بيد أن
(توم) نظر إليها كما لو أنها لطمته على وجهه ثم استدار بالعربة وعاد
إلى منزلهما وأخذ يتحدث مع الفرس .. لم تعرف ما إذا كان الناس
يعيشون على الشواطئ، حيث يقبل البحر كالعاصفة التى تشتد وتضعف
كل يوم .. كما أنها لم تعرف ما إذا كان هناك مدن تشع فيها أضواء
النيران بألوان الجليد الوردى والتعناع الأخضر والألعاب النارية الحمراء ..
الآن أفقها كله .. فى الشمال والجنوب والشرق والغرب .. هو هذا الوادئ
ولم يكن قط شيئاً آخر .. ثم جال بخاطرهما أن، اليوم (بنجى) قائم من
هذا العالم الواسع هناك بعد أن رآه وسمعته وشم رائحته، وسوف
يخبرنى بكل شيء عنه .. ثم إنه يستطيع الكتابة .. ونظرت إلى يديها ..

سوف يبقى هنا شهراً كاملاً ويعلمنى الكتابة.. وعندئذ أستطيع أن أكتب كثيراً إلى العالم وأحضر هذا العالم إلى صندوق بريدي هنا.. سوف أطلب من (توم) أن يجهز صندوق بريد لنا اليوم.. وقالت: هيا، انهض يا (توم) هل تسمعنى؟.. ثم مدت يدها لتزيح كومة من الجليد المتراكم.

قبل الساعة التاسعة كان الوادئ ممثلاً بالجراد النطاط المنتشر فى أرجاء الهواء الصنوبرى الأزرق.. بينما الشف الاخضر صاعداً فى السماء.

أخذت (كورا) تغنى فى قبورها وأوعيتها وهى تصقلها... ورأت وجهها المتغصن برونزياً وتضاراً فى قاع تلك الأوعية النحاسية.. وكان (توم) يرمجر بأصوات الدب النعسان أثناء تناول إفطاره من العصيدة^(١)، بينما حرك غنائها مشاعره مثلما يتحرك الطائر فى قفصه.

قال صوت ما: "لا بد أن شخصاً ما هنا سعيد للغاية".

وقفت (كورا) مكانها كتمثال.. ومن طرفى عينيها رأت طيقاً يعبر الغرفة.. وسألت (كورا): "أهذه السيدة (برابام)؟" متوقعة أن تكون هى من ملابسها الرثة.

"أنا هى بشحمها ولحمها".. وسرعان ما ظهرت السيدة الأرملة بثوبها القطنى الذى يجرد رءاءها التراب الدافئ، وتمسك يداها

(١) دقيق الفرة المسلووق فى الماء. (المترجم).

النحيلتان بخطاباتها.. وقالت: "صباح الخير!.. لقد فتحت صندوق بريدي لتوى.. ووجدت خطاباً رائعاً من عمى (جورج) فى "سبيرينجفيلد". وحدثت السيدة (برابام) فى (كورا) بنظرة حادة كإبرة فضية وأريقت: "منذ متى تلقيت رسالة من عمك يا سيدتى؟"

كل أعمامى ماتوا منذ زمن طويل. ولم يكن الذى كذب (كورا) نفسها بل لسانها. وكانت تعرف أنه عندما يحين الوقت المناسب، فإن لسانها فقط هو الذى يجب أن يتلقى العشاء الربانى^(٢) ويعترف بأخطائه الأرضية. ولوحت السيدة (برابام) بخطاباتها فى بهجة فى هواء الصباح المنعش، وقالت: "إنه لشيء رائع أن يصل المرء خطابات بريدية".

دائماً ما كانت تجرح غيرها.. وجمال بخاطر (كورا) كم من سنوات طويلة تكرر هذا المشهد.. حيث تأتي السيدة (برابام) بعينيها الضاحكتين وتتحدث بصوت عال عن البريد الذى وصلها، مع تركيزها على أنه لا يوجد أحد فى الجوار كله ولمسافات كيلو مقترات كثيرة يستطيع القراءة مثلها.

عضت (كورا) شفتها وكاد القدر يقع من يدها لكنها أمسكت به وضحكت وقالت: "نسيت أن أخبرك شيئاً مهماً.. ابن أخى (بنجى) قادم إلينا اليوم.. وهو من عائلة فقيرة ولكنه سوف يقضى الصيف هنا.

(٢) من الطقوس المسيحية. (المترجم).

وسيعلمنى كيف أكتب وأقرأ .. كما أن (توم) يصنع صندوق بريد لنا ..
أليس كذلك يا (توم)؟

قبضت السيدة (باريام) على خطاباتها بقوة وقالت: "حسناً ..
ذلك شيء رائع جداً .. إنك سيدة محظوظة .. وفى الحال كان الباب
خالياً، حيث انصرفت السيدة (باريام).

انطلقت (كورا) وراءها، لأنها فى تلك اللحظة رأت شيئاً يشبه
غزاة الطيور^(٣) .. شيء يشبه ومضة من ضوء شمس صاف .. شيء
يشبه سمكة سلمون نهريّة تقفز فى الماء .. ثم يقفز من فوق سور موجود
فى الحديقة بأسفل .. ورأت يداً ضخمة تلوح والطيور تهرب خائفة من
شجرة تفاح برى.

انطلقت (كورا) تجرى والعالم كله يجرى خلفها بطول الممر
ونادت: "(بنجى)!"

قابلا بعضهما مثل شريكين فى رقصة يوم السبت .. وتماسكت
أيديهما والتصقاً ببعضهما ورقصا رقصة القالس وأخذاً يثرثران ..
وقالت: "(بنجى)!" .. ثم ألقت نظرة سريعة وراء أذنه وفعلأ وجدت
القلم الرصاصى الأصفر هناك .. فارتفعت: "مرحباً بك يا (بنجى)
الحبيب!"

(٣) خيال مائة - تمثال غير متقن على صورة إنسان لنود الطير من الثمر. (المترجم).

قال: "من هذا؟.. سيدتى الجميلة!.. ثم أوقفها على مسافة ذراع منه وواصل:

"ولكن يا للعجب، ماذا أرى.. سيدتى الجميلة تبكى.."
وقالت: "ها هنا ابن أخى".

نظر (توم) إليهما نظرة عابسة وهو يتناول وجبته من عصيدة الذرة بالمعلقة. وقال بنجى وهو يبتسم: "إنك سعيدة حقاً".

أمسكت (كورا) ذراعها بقوة بحيث لا يمكن أن يختفى من أمامها أبداً.. لكنها شعرت بدوار وبرغبتها فى القعود والوقوف.. ودق قلبها بسرعة وأخذت تضحك فى أوقات غريبة!.. الآن فى لحظة واحدة أصبحت البلاد البعيدة قريبة منها، فهاهنا يقف الصبى الطويل يضىء الغرفة كمشعل صنوبرى.. هذا الصبى الذى شاهد مدناً وبحاراً وأماكن كانت الأمور فيها أفضل لوالديه.

"(بنجى).. لى هنا بازلاء وذرة ولحم خنزير وعصيدة وحساء
وقول للإفطار".

قال (توم): "على رسلك يا امرأة.. فردت بسرعة: "صه يا (توم)
لقد أصبح الفتى هيكلاً عظيماً من كثرة السير.. ثم التفتت إلى الصبى
وقالت له: "(بنجى)، حدثنى يا عزيزى عن نفسك.. هل ذهبت
إلى المدرسة؟".

خلع (بنجى) حذاءه ورسم بإحدى قدميه العاريتين كلمة فى رمال المدفأة.. فقطب (توم) جبينه وقال: "ماذا تقول هذه الكلمة؟".. فقال (بنجى): "إنها اسم (كورا).. (كورا)!"..

إنه اسمى.. يا للعجب، انظر يا (توم)!.. إنك يا (بنجى) طفل رائع حقاً لأنك تستطيع الكتابة هكذا.. لقد كان معنا هذا منذ زمن طويل ابن عم يدعى أنه يستطيع هجاء الكلمات رأساً على عقب وإلى الخلف.. واذك فقد سمناه^(١) حتى كتب خطابات كثيرة لكننا لم نحصل على أى رد عليها حتى الآن.. ثم عرفنا أنه كان يعرف القليل فقط من الكلمات التى تمكنه من إرسال الخطابات إلى مكتب بريد الرسائل المهجورة^(٢).. وبعدها اقتصر منه (توم) نظير ما التهمه لدينا من مؤن غذائية طوال شهرين وذلك بأن طارده فى الشارع وضربه بعصا غليظة حتى أنه كان يموت فى يده.

ضحكا فى جذل وسعادة.. ثم قال الصبي بجدية: "لا تخافى.. إننى أكتب جيداً".. فقالت: "هذا كل ما نريد معرفته".. ثم دفعت إليه قطعة من فطيرة توت وقالت: "كل يا فتى".

قبل تمام العاشرة والنصف صباحاً وبعد أن ارتفعت الشمس عالياً فى كبد السماء.. لاحظ (توم) أن (بنجى) التهم أطباقاً هائلة من الطعام،

(١) يجعله سميناً. (المترجم).

(٢) رسائل لا يطالب بها أحد ولا توصل لعدم وضوح الاسم أو العنوان المرسل إليهم (المترجم).

فزمجر الرجل وخرج متبرماً من الكوخ وضغط قبعته على رأسه وقال غاضباً: "إننى خارج.. اللعنة.. فعلى أن أقطع نصف أشجار الغابة!"

لكن لم يسمعه أحد.. فقد كانت (كوراً) جالسة وهى مبهورة وحايصة أنفاسها.. إذ كانت تراقب القلم الذى كان يضعه (بنجى) خلف أذنه كمثربة الشكل.. ورأته وهو يمسك به من وقت إلى آخر بكسل ولامبالاة.. وفكرت فى نفسها: أوه، ليس بمثل هذه اللامبالاة يا (بنجى)! تعامل معه مثلاً يتعامل أبو (الحناء)^(٦) مع بيضه فى أشهر الربيع.. وأرادت أن تلمس القلم.. غير أنها لم تلمس واحداً منذ سنوات طويلة لأن ذلك يجعلها تشعر بالغباء والغضب والحزن.. واختلجت يدها فى حجرها..

سألها (بنجى): "هل لديكما بعض الورق؟"

شعرت بأن جدران الحجرة ازدادت اعتاماً وردت بحزن بالغ: "أوه، يا إلهى.. لم أفكر فى ذلك.. ترى ماذا نفعل الآن؟" فقال: "من حسن الحظ أنتى أحضرت بعضاً منها معى.." وأخرج رزمة أوراق من حقيبه الصغيرة وقال: "أنت تريدان كتابة خطاب إلى جهة ما.. أليس كذلك؟"

إفتر ثغرها عن ابتسامة عريضة وقالت: "بلى أريد أن أكتب خطاباً إلى.. إلى... إلى.. ثم تجهم وجهها ونظرت حولها باحثة عن شخص بعيد جداً..

(٦) طائر مفرد يوجد فى شمال أمريكا يتميز بصدوره الأحمر وريشه الأسود والزمادى (المترجم).

نظرت إلى الجبال تحت شمس الصباح الساطعة.. وسمعت أصوات ارتطام أمواج البحر بالشواطئ، الصفراء على بعد آلاف الأميال^(٧).. وأخذت الطيور تقبل شمالاً فوق الوادي في طريقها إلى الكثير من المدن غير مبالية باحتياجاتها الحالية.

الحقيقة يا (بنجي) أنتى لم أفكر فى هذا الأمر من قبل.. أنا لا أعرف أحداً فى كل هذا العالم هناك.. لا أحد سوى عمى.. وأو كتبت لها فلعلها تتضايق لأن عليها - وهى تبعد عنا بمئة ميل أن تبحث عن شخص ما لكى يقرأ لها الخطاب.. إنها امرأة ذات كبيراً، ومعتزة بنفسها ولعل هذا الخطاب يرعجها لمدة عشر سنوات تقريباً، وهى تضعه فوق رف مدفأة منزلها.. لا، لن أرسل أى خطاب لها.

نقلت (كورا) عينيها من التلال البعيدة إلى المحيط المختفى عن الأنظار وأردفت: "لكن لمن إذن وإلى أين؟" إلى شخص ما.. إننى أريد أن تصلنى بعض الخطابات إلى هنا.

قال (بنجي): "انتظرى لحظة.. ثم أخرج من معطفه مجلة رخيصة على غلافها الأحمر امرأة عارية تصرخ وهى تجرى من وحش أخضر يطاردها وأردف: "كل العناوين المختلفة موجودة هنا".

قلبا الصفحات معاً ووضعت (كورا) إصبعها على أحد الإعلانات وقالت: "ما هذا؟"

(٧) الميل يساوى نحو ١,٦ كيلومتر.

قرأ (بنجى): "هنا فى مركز باور بلس يتم مسح مجانى لعضلاتك... أرسل اسمك وعنوانك إلى القسم م-٣ لعمل مسح مجانى لحالتك الصحية!".

وماذا بشأن هذا الإعلان؟

مخبرون سريون يقومون بعمل تحريات.. التفاصيل مجاناً..
اكتب إلى ج.د.م. معهد المخبرين السريين..".

هذا عظيم يا (بنجى).. كل شىء مجاناً.. ونظرت إلى القلم الرصاصى فى يده.. وزحزح كرسيه وراقبته وهو يلف القلم بين أصابعه ليقوم ببعض التعديلات الطفيفة.. ورأته وهو يعض لسانه قليلاً.. ثم ينظر شتراً بطرف عينيه.. وحبست أنفاسها وانحفت إلى الأمام.. ولم تلبث أن نظرت هى بطرف عينيها وأطبقت بأسنانها على لسانها..

عندئذ رفع (بنجى) قلمه ولحسه بلسانه وأعادته إلى الورقة.. وقالت (كورا) لنفسها: "إنه على وشك أن يكتب".. وكتب أولى الكلمات وبدأت تتضح معالمها شيئاً فشيئاً على الورقة العجيبة.. هكذا: السادة شركة باور بلس لمسح العضلات.

تحية طيبة وبعد (وكتب الخطاب).

انصرم النهار مع هبوب الرياح.. وتبدد الصياح على الجدول مع انطلاق مجموعة من الغريان وتوهج الشمس على سقف الكوخ.. ولم تلتفت (كورا) عندما سمعت ضوضاء عند الباب الساخن من أشعة

الشمس اللافحة الساقطة عليه.. كان (توم) هناك وليس هناك.. لم تر أمامها سوى مجموعة من الصفحات المملوءة بالكلمات وقلم رصاصي يهمس على الورق ويد (بنجي) الباردة التي تجيد فن الكتابة.

حركت (كورا) رأسها حولها يميناً ويساراً مع كل حرف يكتبه وكل نقطة يضعها، وأخذت تلحق بلسانها شفتها العليا.. وفجأة قال (توم) وهو واقف وراءها تقريباً: "الوقت الآن ظهراً وأنا جائع".. لكن (كورا) تحولت إلى تمثال وهي تراقب القلم الرصاصي كما لو أنها تراقب حلزوناً^(٨) يترك مساراً غير عادي على صخرة ماساء في الصباح الباكر.

صاح (توم) مرة أخرى: "نحن الآن ظهراً".. فرغعت (كورا) رأسها وهي مضغوطة وقالت: "منذ لحظات فقط كتبنا إلى شركة فيلادلفيا لهواة جمع العملات.. أليس ذلك صحيحاً يا (بنجي)؟". واقتتر ثغر (كورا) عن ابتسامة ساحرة بالنسبة إلى امرأة في الخامسة والخمسين من عمرها.. وأضافت: "حتى أنتهي من تجهيز طعام يا (توم)، ألا تستطيع تصنيع صندوق البريد؟.. وأرجوك اجعله أكبر من صندوق السيدة (برابام)".

سوف أحضر صندوق حذاء وأثبتته جيداً بالمسامير.

نهضت بسرعة وهي تبتمسم وقالت: "(توم جيبرز)، يحسن بك أن تسرع وأن تصنع صندوقاً جيداً.. أنا أريد صندوقاً كبيراً جداً.. على أن

(٨) «ديوان رخيوي مائي أو بوي نو صندوقة حلزونية الشكل» (المترجم).

يكون لونه أبيض ثم يكتب عليه (بنجى) اسماً بحروف سوداء.. غير أنتى لا أريد صندوق حذاء لاستقبال أول رسالة حقيقية تصل إلينا.. وسرعان ما انتهى العمل فى الصندوق.

وكتب (بنجى) على صندوق البريد الذى تم صنعه: (السيدة كورا جيبز)، وكان (توم) يقف متذمراً وراءه وقال له: "ما الذى تقوله هذه الكلمات؟". قال (بنجى) بهدوء وهو يكتب: (السيد توم جيبز).. ونظر (توم) إلى الصندوق شذراً لبعض الوقت ثم قال: "أنا مازلت جائعاً.. وعلى شخص ما إشعال النار".

لم يكن هناك طوايع بريد. شحوبه (كورا)، كان على (توم) أن يعد العربة والحصان سريعاً، لكى يقودها إلى مدينة (جرين فورك)، لكى يبتاع طوايع بريد حمراء وخضراء، بالإضافة إلى عشرة منها وردية اللون، مطبوع عليها صور رجال عظماء، وقضلت (كورا) أن تذهب معه فى العربة، حتى تكون واثقة من أن (توم) لن يلقى بهذه الخطابات الأولى، إلى الجدول للتخلص منها، وعند عودتها إلى الكوخ، كان أول ما فعلته (كورا)، ووجهها متألق، أن تنقب داخل صندوق البريد الجديد، باحثة عن خطابات واردة.

قال (توم) "هل أصابك الجنون؟".

لن أخسر شيئاً لو نظرت إلى داخل صندوق البريد..

فى ذلك العصر، ذهبت إلى صندوق البريد ست مرات. وفى المرة السابعة قفز من داخله مرموط الخمائل^(٩)، وقف (توم) عند الباب يضحك، وهو يضرب ركبتيه بشكل متكرر ويقوة. طارده (كورا) خارج الكوخ ولكنه لم يتوقف عن الضحك.

ثم وقفت خلف النافذة تتطلع إلى صندوقها البريدى، على الجانب الآخر من كوخ السيدة (برابام)، وجمال بخاطرهما، أن السيدة (برابام) تلك الأرملة العجوز، قد وضعت صندوقها البريدى فى مكان ظاهر، بحيث يكون واضحاً للعيان، بالقرب منها، وكان من السهل على السيدة (برابام) أن تقيمه بجانب كوخها هى.

وكانت السيدة (برابام) تنتهز الفرصة لتفتح صندوق بريدها على اتساعه بحركة رشيقة، وتسعل بقوة وتحدث جلبة لتلفت الانتظار، ثم تنظر - خلسة - من وقت لآخر، لترى عما إذا كانت (كورا) تراقبها وفى الحقيقة أن (كورا) كانت تراقبها دائماً. وإذا حدث واكتشف أمر (كورا)، فإنها كانت تنظر بظاهر يئسها "نرش" الزهور ولكن برشاش ماء فارغ، أو تلتقط ثمار عش الغراب^(١٠) فى غير موسم نضجه!

فى صباح اليوم التالى، استيقظت (كورا) قبل أن تدفئ الشمس قطعة الأرض التى تنمو فيها ثمار الفراولة أو أن تحرك الريح أوراق أشجار الصفوير.

(٩) قارض صغير له جسم ممثلي وأرجل قصيرة وفرو بلى. (الترجم).

(١٠) أحد أنواع الفطريات. (الترجم).

كان (بنجى) جالساً فى سريره الخفيف النقال، عندما عادت (كوراً) من مكان صندوقها البريدى، قال لها: "إن الوقت مبكراً للغاية، إن موزع البريد لم يأتوا بعد بسياراتهم".

تساءلت (كوراً) بدششة: "بسياراتهم؟".

- "أجل، إنهم يجيئون من أماكن بعيدة بسياراتهم".

جاست (كوراً) وهى تتنهد: "أوه".

- "هل أنت مريضة، أيتها العمة (كوراً)؟".

طرقت (كوراً) بعينها وقالت: "كلا، كلا، إن الأمر ليس سوى، أننى لا أتذكر - خلال عشرين سنة - رؤيتى شاحنة لنقل البريد تمر من هنا، مطلقاً تغيرها. هذا ما جال بخاطرى، كما أننى لم أشاهد قط موزع بريد".

- "ربما كان يأتى عندما لا تكونين موجودة".

- "إننى أستيقظ مبكراً مع انتشار الضباب، وأنام فى وقت متأخر مع الدجاج. فى الواقع أننى لم أعر هذا الأمر أى اهتمام من قبل، ولكن...".

وعادت إلى التطلع من خلال النافذة، فى اتجاه كوخ السيدة (برابام)، واستطردت: "... (بنجى)! إن لدى إحساساً دفيناً بأمر ما". ثم سارت بسرعة إلى خارج كوخها، على طول الممر الترابى، وكان (بنجى) يتبعها عبر الطريق إلى حيث صندوق بريد السيدة (برابام)، كان الصمت يلف

الحقول والتلال. لقد كان الوقت مبكراً للغاية، إلى الحد أنك تضطر إلى أن تتحدث هامساً حتى لا تزعج أى شخص.

عمتى (كورا): لا تنتهكى القانون!

صه! ها هو ذا صندوق البريد.

فتحت صندوق البريد ووضعت يدها داخله، وأخذت تتحسس محتوياته بثوتر وحيرة، وكأنها تتلمس داخل حجر ستجواب أمريكى.

هذا وهذا. وأخذت تضع فى يدي (بنجى) المفتوحتين بعض الخطابات التى أحدثت صوت خشخشة.

إن هذه الخطابات مفتوحة من قبل عمتى (كورا) هل أنت التى قمت بفتحها؟

بدت أمارات الذهول على وجهها وقالت "يا بنى، إننى لم ألمسها قط. هذه هى المرة الأولى فى حياتى، التى أسمع حتى لخيالى، أن يلمس هذا الصندوق.

أخذ (بنجى) يقلب الخطابات مراراً وتكراراً، ثم حرك رأسه يمينا ويساراً علامة على عدم التصديق، وقال: أمر عجيب يا عمتى (كورا)! إن هذه الخطابات أرسلت منذ عشر سنوات!

أخذت الخطابات التى فى يده وقالت "ماذا تقول؟".

إن السيدة (برابام) ظلت تتلقى نفس الخطاب يوميًا لمدة سنوات،
وهذه الخطابات ليست مرسلة إليها، بل إلى سيدة أخرى تدعى
(أورتيجا) في مدينة (جرين فورك)!!

همست (كورا): "يا إلهي! (أورتيجا) المرأة المكسيكية التي تمتلك
محل بقالة كل هذه السنوات" ثم أردفت وهي تمعن النظر بدهشة بالغة
في الخطابات البالية التي بين يديها: "كل هذه السنوات!"

حدقا إلى أعلى حيث غرفة نوم السيدة (برابام)، في ذلك الصباح
الهادئ البارد باعتدال.

"يا لها من امرأة مخادعة ماهرة، لقد كانت تحدث صخبًا بهذه
الخطابات، لتشعرنى بضالتي. لقد تبدد كل هذا.. كم من مرة كانت
تصدر صوتًا كالحفيف وهي تقرأ خطاباتنا لتغيظني.

فتح الباب الأمامي لكوخ السيدة (برابام).

"عمتي (كورا)! أعيدى الخطابات إلى صندوق البريد.

صفقت (كورا) باب صندوق البريد بقوة.

تهادت السيدة (برابام) عبر الممر، وكانت تتوقف هنا وهناك في
هدوء، لتحديق في الزهور البرية المفتحة.

قالت بغضب: "صباح الخير".

قالت (كورا): "سيدة (برابام)، هذا هو ابن أخي (بنجي)".

يا له من صبي لطيف! ثم استدارت السيدة (برابام) بجسمها متباهية بيديها الناصعتي البياض، وضربت بكفها صندوق البريد ضربة قوية وكأنها تريد أن تحرك الخطابات في داخله، لتتبعثر، وتفتح باب الصندوق بحركة رشيقة، واستخرجت الخطابات، وكانت تفعل كل هذا. معطية ظهرها لهما حتى لا يريا شيئاً. كانت تقوم بنشاطها، متحركة في كل مكان بمرح وهي تغمز بعينها.

يا له من أمر رائع! انظرا إلى هذا الخطاب من عمي (جورج) العزيز!

قالت (كورا) ساخرة حسناً، أليس هذا لطيفاً!

ثم جاء الانتظار في أيام الصيف الساكنة بغير نسمة هواء، وكانت الفراشات تطير في الهواء بألوانها البرتقالية والزرقاء. والزهور متفتحة حول الكوخ، والصوت المستمر لقلم رصاص (بنجي) الصلب، يكتب طوال فترات ما بعد الظهيرة. كان فم (بنجي) دائماً ممتلئاً بالطعام، وضايق هذا (توم). إذا كان يبحث عن طعام لوجبة الغذاء أو العشاء فيجده بارداً أو قد لا يجده على الإطلاق.

كان (بنجي) يمسك بالقلم الرصاص بأصابعه التحيلة مبهتجاً، وكان يستمتع بكتابة كل حرف علة وحرف ساكن، بينما كانت (كورا) تحوم قريباً من مكانه، تختار له الكلمات التي يكتبها، وتشعر بالسعادة عندما تراه يكتبها فوق أوراقه. ولكنها لم تكن تتعلم الكتابة.

قالت له: "يا لها من متعة، أن أراقبك وأنت تكتب يا (بنجى)".
غداً سوف أبدأ في تعلم الكتابة. والآن أرجو أن تكتب
خطاباً آخر!".

جالا بعيونهما في الإعلانات بالصحف والمجلات، عن علاج لمرض
الربو^(١١). وأحزمة الفتق^(١٢) والسحر، وانضموا إلى "الروسكيروشين"^(١٣)،
أو على الأقل أرسلوا خطاباً لطلب كتابهم الرسمي المجاني الذي يعنى
بالمعرفة، الملعونة التي طواها النسيان، أسرار مدفونة في الأماكن
المقدسة بالمعابد القديمة، كذلك أرسلوا في طلب أكياس تحتوي على
بذور زهور نوار الشمس العملاقة، بالإضافة إلى علاج لمرض
"حرقه القلب"^(١٤).

وفي صباح مشرق من أحد أيام الصيف، كانا يقرآن الصفحة ١٢٧
من المجلة الربيع سنوية للجريمة، عندما....

قالت (كورا) فجأة: "انصت!".

وأخذا يصغيان السمع.

قال (بنجى): "إنه صوت سيارة".

(١١) مرض مزمن يصيب الجهاز التنفسي. (المترجم).

(١٢) تمنع ازدياد الفتق وهو تمزق في أحد أعضاء جسم الإنسان (المترجم).

(١٣) نسبة إلى مذهب فلسفي يعنى بدراسة الفلسفة والأديان القديمة (المترجم).

(١٤) شعور بحرقه في قم المعدة أو المريء (المترجم).

وهناك بعيداً فوق التلال الزرق، وخلال أشجار الصنوبر الطويلة،
الخضراء المحمرة. وبمحاذاة الطريق الترابي، جاء صوت سيارة تقطع
المسافة ميلاً تلو الآخر، وفي النهاية - عند المنحنى - ارتفع ضجيجها
إلى حد بعيد، وعلى الفور كانت (كوراً) خارج الباب، ثم راحت تركض
وهي تسمع وترى وتشعر بأشياء عديدة كان أولها أن لمحت - من طرف
عينها - السيدة (برابام) تتحرك بسلاسة وهدوء عبر الطريق في الجهة
الأخرى. تجمدت أوصال السيدة (برابام)، عندما شاهدت السيارة
الخضراء اليراقة، تسابق الريح ثم اقتربت وصدرت عنها صفارة، وأطل
منها رجل عجوز قبل أن تصل إليها (كوراً) بوقت قصير وقال: "السيدة
(جيبز)؟" صاحبت (كوراً) وهي تلهث: "أنا هي".

ثمّة خطابات لك يا سيدتي وأمسك بعدة خطابات وأشار بها
إليها. مدت يدها، ثم سحبتها وقد تذكرت شيئاً ما. قالت "أوه، أرجوك لو
سمحت، أن تضعها.. في صندوق بريدي".

نظر الرجل العجوز شذراً إليها وإلى صندوق البريد ثم إليها من
جديد، وحققه ضاحكاً: "إنني لا أمانع على الإطلاق! وفعل ما طلبته منه،
ووضع الخطابات في صندوق البريد".

تسمرت السيدة (برابام) في مكانها. ولم تتحرك قيد أنملة،
وعينها جاحظتان.

تسألت (كوراً) في خيئ: "أليست هناك خطابات للسيدة (برابام)؟"

قال ساعى البريد العجوز: "هذا كل ما لدى من خطابات" واندفع بسيارته بعيداً فى الطريق.

وقفت السيدة (برابام) ويدها متشابكتان معاً. ثم - دون أن تنظر إلى صندوق بريدها - استدارت وتحركت بسرعة عبر الممر الخاص بها، حتى اختفت عن الأنظار.

دارت (كورا) حول صندوقها البريدى مرتين، دون أن تلمسه ثم وقفت أمامه لعدة لحظات وقالت: "(بنجى)! لقد جاء تنى بعض الخطابات".

مدت يدها برقة داخل صندوق البريد، وأخرجت الخطابات بحرص وأخذت تقلبها بين يديها لهنية ثم وضعتها بهدوء فى يد (بنجى) وهى تقول: "أقرأها لى. هل اسمى موجود على المظاريف؟".

أجابها بسرعة: "أجل يا سيدتى"، وفتح الخطاب الأول بحذر وتأن، وأخذ يقرأه بصوت مرتفع، فى ذلك الصباح الصحو من الصيف.

"عزيزتى السيدة (جيبز)..."

توقف ليدعها تستمتع بالكلمات، كاند عيناها نصف مغمضتين من فرط النشوة، وشفتاها تهمسان بها. أعاد الكلمات بنغمات مختلفة حتى يتذوق وتقدر المعنى!

ثم أكمل الخطاب "...إننا نرسل إليك نشرتنا المجانية، من موارد المراسلة بين القارات، التى تتضمن تفاصيل كاملة، عن كيفية قيامك بدراسة مقرر بالمراسلة عن هندسة المحافظة على البيئة..."

صاحت (كورا) بفرح غامرة* (بنجى)، (بنجى). إننى غاية
فى السعادة!

أرجوك! اقرأ الخطاب من بدايته، مرة أخرى،
راح يقرأ من جديد: "عزيزتى السيدة (جيبز)".
بعد هذا اليوم، لم يحدث قط أن كان صندوق البريد فارغاً من
الخطابات.

لقد جاءت إليها الدنيا بكل مباحجها، مندفعة ومحتشدة، من كل
الاماكن التى لم تقع عليها عينى (كورا) قط، أو سمعت عنها أو زارتها.
لقد استلمت خطابات بها نشرات سياحية مطبوعة ومطوية، وصفات
لتحضير كعكة التوابل^(١٥)، وحتى خطاب من شخص متقدم فى السن
يطلب زوجة: "... إن عمرى خمسين عاماً، من كرام الناس، رجل أعمال،
ثرى. أرغب فى الزواج".

كتب إليه (بنجى) خطاباً يقول: "إننى متزوجة بالفعل، ولكننى
أشكر على تقديرك الطيب وفكرك السليم المهتم بسعادة الآخرين،
المخلصة، (كورا جيبز)".

واستمرت الخطابات تنهمر من الجانب الآخر من التلال، كتالوجات
هواة جمع العملات، كتب حديثة عشرة سنتات، قائمة بالأرقام السحرية،

(١٥) كعكة تضاف إليها بعض التوابل لإكسابها نكهة، مثل القرقة والقرنفل والظفل
وجوزة الطيب. (المترجم).

معلومات عن التهاب المفاصل وكيفية علاجه، عينات من مساحيق القضاء على البراغيث، امتلاً صندوق بريدها بخطابات عن موضوعات متعددة ومتباينة من كل أنحاء العالم، وهكذا وجدت نفسها.. فجأة أنها ليست وحيدة أو منعزلة عن الناس فإذا صاغ شخص ما خطاباً إلى (كورا)، به كل التفاصيل عن الكشف عن الغاز حضارة (المايا)^(١٦) القديمة، فمن الأرجح أنه سوف يتلقى ثلاثة خطابات من (كورا) في غضون الأسبوع التالي، لتطوير علاقتها الرسمية، إلى صداقة حميمة.

وبعد يوم من الكتابة المستمرة والمرهقة، شعر (بنجى) بالتهاب في يده ومن ثم اضطر ليعطها لفترة من الوقت في سائل يحتوى على ملح "ابسيوم"^(١٧) لتقليل الالتهاب.

وبعد نهاية الأسبوع الثالث، لم تعد السيدة (برابام) تآتى إلى حيث صندوقها البريدى. إنها حتى لم تغادر كوخها من الباب الأمامى، لتستنشق الهواء النقى، لأن (كورا) كانت تقف لها دائماً بالمرصاد في الطريق، تنتظر ساعى البريد بابتسامة.

انتهى الصيف سريعاً، أو - على الأقل - ذلك الجزء من فصل الصيف الذى يعول عليه كثيراً: فترة زيارة (بنجى)، لقد كان هناك منديله

(١٦) حضارة امتدت من المكسيك إلى جواتيمالا وهندوراس وأمريكا الجنوبية (من عام ١٥٠٠ ق.م إلى ١٦٩٧)، (الترجم).

(١٧) كبريتات الماغنسيوم المتحدة مع الماء (الترجم).

الكبير الأحمر المزدان بالرسوم الزاهية، فوق مائدة الكوخ، وشطائرهِ الطازجة الملقوفة بعناية والمزودة بشرائح البصل، وأوراق النعناع المجففة لإكسابها النكهة المحببة. وعلى الأرضية، كان حذاؤه الذي تم تلميعه حديثاً ينتظر أن ينتعله، وجلس (بنجي) فوق أحد المقاعد، ممسكاً بقلمه الرصاص الذي كان من قبل طويلاً وأصفر اللون، أما الآن فقط أصبح قصيراً وعليه آثار أسنان.

أمسكت (كورا) بذقنه وأمالت رأسه، ويدت وكأنها تخضع لاختبار بعض ثمار القرع الصيفي الذي يتميز عن غيره بصفات محددة.

قالت: "(بنجي)، إنني أدين لك بالاعتذار، إذ لا أذكر أنني تطلعت إلى وجهك مرة واحدة طوال هذا الوقت، ولكن يبدو لي أنني أعرف كل تنوء في يدك وكل انتفاخ أو ورم بسيط أو تجعد. بيد أنني قد لا ألاحظ وجهك إذا شاهدتك بين حشد من الناس".

رد عليها (بنجي) وقد تضرع وجهه خجلاً: "إن وجهي ليس مميّزاً، بلغت الانتظار".

قالت (كورا): "لكنني أستطيع أن أتعرف على يدك من بين مليون يد. دع أي شخص يصافحتني في حجرة مظلمة، بل ألف شخص، ومن بين كل هؤلاء سأقول لأحدهم: "حسناً، هذه هي يد (بنجي)" وافتر ثغرها عن ابتسامة هادئة ثم ذهبت إلى الباب المفتوح، وأردقت "كنت أفكر"، ثم تطلعت إلى الكوخ البعيد واستطردت "إنني لم أشاهد السيدة (برايا)م

منذ أسابيع. ويبدو أنها ظلت قابعة في كوخها طوال هذا الوقت. لقد تملكنى شعور بالذنب. إذ قمت بعمل متعجرف، أكثر إثماً مما فعلته بي. لقد أفسدت عليها حياتها! ولقد كان هذا عملاً وضيعاً يحمل الضغينة والكراهية، إننى أشعر بالخجل من نفسى* ثم حددت إلى أعلى التل، حيث ذلك المكان الصامت الذى يغلفه الغموض، وقالت: "(بنجى)! هل تقدم لى معروفًا أخيرًا؟"

"بكل تأكيد يا سيدتى*."

"اكتب خطابًا من أجل السيدة (برابام)*."

"ماذا؟!!"

"أجل، اكتب إلى إحدى هذه الشركات التى نعرفها، واطلب قوائم مجانية بالأصناف والأسعار، وعينات وأشياء أخرى، ووقع الخطاب باسم السيدة (برابام)*."

قال (بنجى): "سمعاً وطاعة*."

"بهذه الطريقة، وفى غضون أسبوع أو شهر، سوف يأتى ساعى البريد ويتفخ فى صفارته، وسأقول له أن يذهب إلى كوخها، ويسلمها بريدها يدًا بيد وسأخرج إلى غنائى الأمامى، حتى يمكننى رؤية تسليم الخطابات، وبحيث تشاهدنى السيدة (برابام)، وتتأكد من أننى أراها. وسوف ألوح لها بخطاباتى، وسألوح لى بخطاباتها، وسوف نبتمسم لبعضنا البعض فى سعادة*."

قال (بنجي): "حسناً يا سيدتي".

كتب ثلاثة خطابات، ولصق المظاريف بعناية، ووضعها بحرص في جيبه وقال لها: "سوف أرسلها بالبريد، بمجرد أن أصل إلى (سانت لويس)".

قالت له: "لقد كان صيفاً رائعاً".

"بالتأكيد".

"(بنجي)! لكنني لم أتعلم الكتابة. أليس كذلك؟ لقد انتصب اهتمامي على الخطابات، وجعلتك تكتفيها حتى ساعة متأخرة من الليل، وكنا منهمكين للغاية في إرسال البطاقات واستلام العينات وإعلانات بيع الأراضي، ويبدو لي أنه لم يكن ثمة وقت لتعلم الكتابة، وهذا يعني....".

كان يعرف جيداً ما كان يعنيه كل ذلك، صافحها بحرارة ووفقاً لهنيئة في فتحة باب الكوخ. قالت له مبتسمة: "شكراً من أجل كل شيء".

ثم ركض بعيداً، استمر في الركض حتى سور المرج البعيد، وقفز فوقه بسهولة ورشاقة، وكان آخر ما رآه منه، أنه يواصل الركض دون توقف، ويلوح بالخطابات الخاصة، ثم اختفى في العالم الكبير القائم فوق التلال.

استمرت (كورا) تستلم خطابات لمدة حوالي ستة شهور، بعد رحيل (بنجي).

وكانت هناك دائماً السيارة الصغيرة الخضراء الخاصة بساعي البريد، وصوته الحاد المرتفع البارد: "صياح الخير" أو صوت صفارته عندما يضع مظروفين أو ثلاثة، وريّة اللون أو زرقاً، في فتحة صندوق يريدها الراجع.

ثم جاء ذلك اليوم الاستثنائي، عندما استلمت السيدة (برابام) أول خطاب حقيقي مرسل إليها بالفعل.

بعد ذلك، تباعدت المدة التي تصل فيها الخطابات، كل أسبوع مرة ثم كل شهر، وأخيراً لم يعد ساعي البريد يأتي قط ليقول: "مرحباً"، ولم يسمع أحد صوت سيارة تأتي من ذلك الطريق العلوي الموحش.

في البداية، زحف عنكبوت إلى داخل صندوق البريد ثم جاء عصقور البوري، ليبنى عشه.

وعندما كانت الخطابات لا تزال تأتي بانتظام، كانت (كورا) تمسك بها بين يديها وهي مرتبكة، وتكتفي بالتحديق فيها بهدوء، إلى أن يؤدي تقلص عضلات وجهها بسبب الانفعال، إلى اعتصار قطرات مستديرة رائقة ولامعة من دموع عينيها.

وأحياناً كانت تمسك بمظروف أزرق وتقول: "من الذي أرسل إلينا هذا الخطاب؟".

وكان يجيبها (توم): "لا أدري".

وتنن قليلة: "ما محتواه؟".

ويرد عليها (نوم) قائلاً: "لا أدري".

وتقول (كورا): "ما الذى يحدث فى العالم الخارجى، هناك وراء التلال،
إن أعرف أبداً. وماذا تحتوى هذه الخطابات الكثيرة؟".

وكادت أن تتعثر فى أكوام الخطابات المتعددة، التى استلمتها منذ
أن رحل (بنجى) بعيداً، واستطربت قائلة: "إتنى لا أعرف شيئاً، عن كل
العالم وكل البشر والأحداث المتلاحقة، إن العالم يرمته والبشر بمختلف
جنسياتهم، فى انتظار معرفة أخبارنا، ونحن لا نكتب لهم، ومن ثم فإنهم
إن يردوا على خطاباتنا أبداً".

وأخيراً جاء يوم، انتزعت الرياح صندوق البريد وأسقطته على
الأرض، وكثيراً ما كانت (كورا) تقف - فى الصباح - عند الباب المفتوح
لكوخها، وتتصلق شعرها الرمادى بالفرشاة بحركات بطيئة، كانت دائماً
صامتة، موجهة نظرها إلى التلال. وفى كل السنوات التالية، لم تكن تمر
على صندوق البريد الملقى على الأرض، إلا وتنحنى لتبحث فى داخله،
ولكن فى كل مرة، كانت يداها تخرجان خاويتين، بعدها تهيم على وجهها
فى الحقل من جديد.

الملعب

ألف مرة قبل وبعد وفاة زوجته تجاهل السيد (تشارلس أندرهيل) الملعب الذى يمر به عند ذهابه إلى، وعودته من، قطاره الذى معه اشتراك لركوبه.. لم يكن يحب أو يكره الملعب، كل ما فى الأمر أنه كان يعرف أنه موجود.

لكن فى هذا الصباح فقط فتحت أخته، التى تجلس فى كل يوم على الجانب المقابل له من مائدة الافطار الخالية لمدة ستة شهور، الموضوع بهدوء... وقالت: "لقد بلغ (جيم) ثلاث سنوات تقريباً الآن.. واذك سوف أخذه غداً إلى الملعب".

قال السيد (أندرهيل): "الملعب".. وفى مكتبه علم على إحدى المذكرات بخط أحمر وكتب: "انظر إلى الملعب".

وفى عصر ذلك اليوم بدأ (أندرهيل) طريقه عبر البلدة فى مساره اليومي المعتاد، ونوى القطار يترسب فى أعماقه، والجريدة مطوية تحت إبطه. وهكذا وصل فى الخامسة وعشر دقائق فى آخر ذلك اليوم إلى البوابة الحديدية الباردة.. وفتح بوابة الملعب ووقف فترة طويلة من الوقت يحدق فى كل شيء فيه.

فى البداية لم يبد له أى شىء يمكن رؤيته ، ولكن بعد أن ركز انتباهه خارج مناجاته الداخلية لنفسه ، وبدأ المشهد الرمادى الضبابى أمامه يزداد وضوحاً .. أساساً كان يدرك وجود أصوات خافتة .. صراخ أو صياح من تحت الماء يأتى من خطوط وظلال كصورة تلفازية غامضة متعرجة .. ثم يبدو أن شخصاً ما ضرب آلة العرض إذ انطلقت صرخات مدوية وسرعان ما أصبحت الرؤية أوضح ؟ الآن رأى الأطفال ! .. كانوا يندفعون عبر نجيل الملعب يتعاركون ويتلاكمون ويخدشون بعضهم البعض ويسقطون وبهم جروح كثيرة تنزف أو تكاد أو ظهرت لها قشرة حديثة .. ولو قذفنا بعشر قطط بين مجموعة من الكلاب النائمة لما صرخت عالياً هكذا .. وبوضوح تام رأى السيد (أنترهيل) الجروح والخدوش والقطعيات الدقيقة وقشور الجروح على ركبهم وجوهمهم .

تحمل الدفعة الأولى من الأصوات وهو ينظر بتصف عمين مفتوحتين .. ثم بدأ يشغل منخاريه عندما توقفت عيناها وأثناء من شدة الفزع .. وتشتم الروائح الحادة للمرهم والمواد اللزجة واللاصقة والكافور والمركبوكروم الأحمر .. وكانت الروائح نفاذة وقوية لدرجة أنه أحس بمرارتها على لسانه .. وطارت رائحة اليود خلال أسلاك البوابة الحديدية التى لمعت على نحو كئيب فى الضوء الخافت لليوم المظلم . كان الأطفال يندفعون عشوائياً كالجحيم ، مثل الكرة المنطلقة فى آلة لعبة الكرة والعقبات التى تقابلها .. فهم يصطدمون ببعضهم البعض ويضربون بعضهم البعض ويطرحون بعضهم البعض أرضاً .. ومع كل هذا غاب أعمالهم الوحشية كلها لم تظهر بعد .

لكن ترى هل كان مخطئاً أم أن الضوء في الملعب كان ذا شدة خاصة؟.. كل طفل بدا أن له أربعة ظلال: واحد معتم وثلاثة شبه ظل خافت مما جعل من المستحيل عملياً معرفة أين كانت تتدفع أجسامهم السريعة قبل أن يضربوا هدفهم. نعم، الضوء المائل القوي جعل الملعب معتماً وبعيداً وأبعد من أن يستطيع أحد لمسه، أو لعل السبب هو السور السلكي لحديد البوابة - وهو يختلف عن تلك الحواجز الموجودة بحديقة الحيوانات - الذي فيما وراءه يمكن أن يحدث أى شيء..

فكر (أندرهيل) فى أن الملعب هو حظيرة من البؤس والشقاء.. ولكن لماذا يصر الأولاد على جعل حياة بعضهم البعض مروعة هكذا؟.. أوه، إن هذا العذاب مستمر لا ينقطع.. وعند ذلك تنهد تعبيراً عن ارتياحه الشديد.. ويحمد الله توقف الآن الأولاد عن الشغب والضرب.. انتهت الآن كل اللكمات والقرصات والرغبات أو الانفعالات التى لا معنى لها وكذلك الأحلام المحطمة.

هبّت ريح قوية مزقت الورقة من يده.. جرى وراءها هابطاً على سلالم الملعب.. ويعد أن أمسك بالورقة عاد مسرعاً.. بيد أنه فى تلك اللحظة القصيرة شعر وهو محاصر فى جو الملعب بأن قبعته كبرت جداً، وبأن ستروته أصبحت مرهقة ومعوقة للحركة.. وحزامه أصبح سائباً ومرتخياً.. وحذاءه صار ضخماً جداً.. وشعر بأن ولداً صغيراً يلعب دور رجل أعمال فى ملابس أبيه!

وبدت البوابة التي خلفه عالية جداً.. بينما اكتظت السماء بكتل كثيفة من الغيوم أمام عينيّه.. وملأت أنفه رائحة اليود، كما لو أن نمراً تنفس في وجهه وأطاح بشعره في الهواء.. وانحنى إلى الأمام وكاد يقع وهو يتراجع إلى الوراء..

وقف خارج الملعب كرجل خرج مصدوماً لتوه من بحر هائج وبارد.. وسمع صوتاً يناديه: "أهلاً يا (شارلي)!"، سمع الصوت واستدار ليرى من الذي يكلمه.. هناك على قمة منحدر معدني كبير كان يوجد صبي في نحو التاسعة من عمره يلوح له بيده ويقول: "أهلاً يا (شارلي)!"

رفع السيد (تشارلس أندرهيل) يده.. وحدث نفسه: "ولكنني لا أعرف من هذا الصبي.. ولماذا ينادي عليّ باسمي الأول؟"

كان الصبي يبتسم، عالياً وسط الضباب، وعندئذ دفعه بعض الأولاد الآخرين الذين يصيحون بجواره، وأخذ يصرخ وهو ينزلق هابطاً من أعلى المنحدر.

وقف (أندرهيل) مستمتعاً بما يراه.. الآن أصبح الملعب كخلية نحل كثيفة منتجاتها الوحيدة هي الألم والسادية والأسى.. ولو راقبته لنصف ساعة فقط، فلن ترى وجهاً واحداً داخل كل ذلك الملعب المحوط بسور، وهو لا يجفل فرحاً أو يصرخ ووجهه محتتماً من الغضب أو شاحباً من شدة الخوف، ولو للحظة واحدة.. حقيقة!.. من ذا الذي قال: إن الطفولة هي أفضل أوقات العمر؟.. بينما هي في الحقيقة أكثرها رعباً وأقلها رحمة..

إنها فترة بربرية لا يوجد بها شرطة لتحميك.. فقط والداك مشغولان دائماً بأنفسيهما وعالم الكبار الذي يعيشون فيه.. وإذا كان الأمر متروكاً له، لس السور البارد بيده وبق بالمسامير لافتة هنا تقول: "مروج توريكويمادا"^(١).

وبالنسبة إلى الصبي الذي نادى عليه لتوه، قرى من هو؟.. كان هناك شيء مألوف فيه.. ربما في شكل ذلك الجسد الممتلئ قليلاً، وصدى صوت صديق قديم أو ربما ابن رجل مريض للغاية، وقال السيد (أندرهيل) محدثاً نفسه: "إنّ هذا هو الملعب، حيث يلعب ابنتى.. هذا كل ما هناك".

دلف إلى المنزل وعلق قبعته على المشجب في القاعة، وتظر إلى صورته النحيلة في المرآة الرديئة الموضوعة بها.. وشعر بالشيخوخة والاكتئاب والتعب.. وعندما ظهرت شقيقته وأقيل ابنة يدق بقدميه النحيلتين كقدمي الفأر، حياهما بقليل من الاهتمام.. وركب الغلام فوق ظهره كما لو كان يمثل في فيلم "ملك النمل".. وركز الأب بصره على طرف السيجار الذي يشعله ببطء.. وأخيراً تتحتج وقال: "لقد كنت أفكر في الملعب يا (كارول)".

(١) نسبة إلى توماس توريكويمادا أول محقق في محاكم التفتيش الكاثوليكية التي أقيمت في إسبانيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مهمتها اكتشاف مخالفات الكنيسة ومعاقبتهم بأقصى العقوبات التي وصلت إلى حد الحرق. (المترجم).

”سوف أخذ (جيم) غداً إلى هناك“.

”حقيقة!.. هذا الملعب؟“.

ثار عقله.. كانت رائحة وشكل المكان مازالا ماثلين في ذهنه.. هذا العالم البائس الذى يتسم بالتلوى والجروح والمقطعيات والأنوف الدامية.. الهواء الممتلئ بالألم كعيادة طبيب الأسنان.. وألعاب الأطفال مثل المربعات المعلمة والمثلثات المرسومة على الأرض^(٢) المخيفة تحت قدميه وهو يتناول جريدته.. كان كل شيء مخيفاً ومروعاً بدون سبب واضح له:

قالت (كارول): ”ما الخطأ فى هذا الملعب بالتحديد؟“.

قال: ”ألم تريه؟“.. وتوقف برهة ثم استطرد فى ارتباك ”اللغة، أقصد الأطفال هناك.. إنه كالثقب الأسود“^(٣) من يدخله مفقوداً.

كل الأطفال الذين يلعبون هناك من عائلات طيبة وثيرة“.

”حسناً.. إنهم يتدافعون كجنود صغار من الجستابو“^(٤).. إن الأمر يبدو كما لو أننا نرسل صبياً إلى مطحن دقيق لكى ينطحن ويتحول إلى وجبة لطاحونتين حديديتين وزنهما طنان!.. كل مرة أفكر فيها أن (جيم) يلعب فى هذا المكان البربرى أشعر بالغثيان وبالدُم يتجمد فى عروقي“.

(٢) من ألعاب الأطفال عبارة عن رسم مربعات ومثلثات على الأرض، وسحولة إلقاء حصي داخلها (المترجم).

(٣) ظاهرة كونية مثيرة تخفى فى داخلها المادة. (المترجم).

(٤) البرليس السرى وقت الحكم النازى فى ألمانيا. (المترجم).

"أنت تعرف جيداً أن هذه هي الحديقة الوحيدة الملائمة لمسافة ميلين من حولنا".

"إن ذلك لا يهمنى أبداً.. كل ما يهمنى أنتى رأيت بعينى رأسى
دسنة من مضارب البيسبول والهرارات ومسدسات الهواء.. فى نهاية
اليوم الأول سوف يتحول (جيم) إلى فتات متناثرة!.. سوف يشوون لحمه
ويضعون برتقالة فى فمه!.. ثم يلتهمونه!..".

"أبداً.. إننى جاد جداً فى كل ما قلته".

"أنت لا تستطيع أن تعيش لـ (جيم) حياته.. يجب عليه أن يتعلم
بالطريقة الصعبة.. عليه أن يتعرض لقليل من الضرب ثم يضرب هو
الآخرين وهكذا.. الأولاد دائماً على هذا النحو".

"وأنا لا أحب الأولاد الذين بهذا الشكل.. هذا غير محتمل".

"هذه أجمل فترة فى حياة الطفل.. دعه يعيشها بكل ما فيها".

"هراء.. إننى اعتدت دائماً النظر إلى طفولتى بحثين كثير إلى
الماضى.. لكننى أدرك الآن أنتى كنت عاطفياً أحسق.. لم تكن تلك
الطفولة سوى صراخ وجرى وكوابيس عند عودتى إلى المنزل خائفاً
ومتألماً من رأسى إلى أخمص قدمى.. لو أمكننى أن أنقذ (جيم) من هذا
المصير التفسف سوف أفعل".

"يا إلهى هذا غير عملى بل إنه مستحيل أيضاً".

إننى لا أريده فى هذا المكان.. وأقول لك هذا بوضوح.. سوف
أجعله ينمو أولاً فى عزلة تامة.

"(شارلى)!! ماذا تقول؟"

"نعم، سأفعل ذلك.. هؤلاء الوحوش الصغار.. كان يجب أن تربيهم..
أن (جيم) ابنى وليس ابنك أنت، تذكرى هذا."

وشعر بساقي الصغير التحيلتين على كتفيه وأصابه الرقيقة تعبث
فى شعره.. وأضاف: "لن أتركهم يذبحونه!"

"إنه سيتعرض لذلك فى المدرسة.. الأفضل له أن يرى القليل من
الدفع والضرب هنا، وعندما يذهب إلى المدرسة يكون مستعداً له."

قال: "لقد فكرت فى ذلك أيضاً... وأمسك السيد (أندرهيل)
بكاحلى ابنه الدافئين كإصبعى سجد على جانبيه صدره وأضاف:
"بل إننى سوف أحضر له معلماً خاصاً."

"هذا غير معقول يا (شارلى)!"

لم يتكلما أثناء تناول طعام العشاء.. وبعد العشاء أخذ (جيم)
لنزهة قصيرة - بينما كانت أخته مشغولة فى تنظيف الأطباق الأوعية -
مشياً حتى الملعب تحت أنوار الطرقات الخافتة.. كانت تلك إحدى ليالى
سبتمبر الباردة التى تفوح فيها أول روائح الخريف النضرة، فى الأسبوع
القادم سوف يهجر الأطفال الحقول مثل أوراق الأشجار ويتجهون إلى
المدارس لكى يحترقوا فيها!!.. بحيث يستخدمون ثيرانهم وطاقاتهم
الكامنة فى أغراض بناء مفيدة.

لكنهم سيكونون هنا بعد المدرسة ينقضون على بعضهم البعض ويطلقون القذائف على بعضهم ويتصادمون ويتفجرون ويخفون وراهم أثاراً من البؤس والألم مثل تلك التي تخلفها الحروب الصغيرة!

قال (جيم) وهو يستند إلى السور السلكى العالى ويراقب الأطفال وهم يلعبون ويضربون بعضهم بعضاً فى هذا الوقت المتأخر: "أريد أن أدخل إلى الملعب".

"لا يا (جيم).. أنت لا تريد الدخول إلى هناك.. أليس كذلك؟"

قال (جيم) وعيناه تلمعان بانبهار وهو يرى فتى كبيراً يركل صبيّاً صغيراً، ثم يركل الأخير صبيّاً أصغر منه حتى تتوازن الأمور! "أريد أن ألعب.. أريد أن ألعب يا أبى".

قال (أندرهيل) وهو يجذب ذراع الصغير بقوة: "تعال معى يا (جيم).. لن أتركك تدخل فى هذا الجحيم مادام فى وسعى ذلك".

كاد (جيم) يبكى وقال: "أريد أن ألعب". وكادت عيناه تقفران من محجريهما فى وجهه، واحتدم وجهه من الاحمرار.. وسمع بعض الأطفال البكاء ونظروا إليهما.. وكان لدى (أندرهيل) حاسة خفية لاحظ بها عرين للثعالب وقد جفلت وانطلقت لتوها بحثاً عن بعض بقايا أرنب ميت.. العيون المضيفة البرتقالية الدنيئة.. الذقون المخروطية.. الأسنان البيضاء الحادة.. والفراء الوبرى المخيف.. الفروة الشائكة.. الأيدي شديدة القوة التى بلون الحديد والمغطاة بئوساخ القتال اليومى.. وصلت أنفاسها إليه

كخليط من شراب العرقسوس الأسود والنعناع وعصير الفاكهة بشكل غريب ولكن عذب جداً وفي نفس الوقت يثير الغثيان!.. ومن فوقه جاءت رائحة الخردل الساخن من شخص يعاني من برودة شديدة في الصدر.. رائحة لحم عطن مختلط بمرهم الكافور الساخن يفوح من تحت قممات القائنات الداخلية.. كل تلك الروائح القوية والكنيية إلى حد ما من أقلام الرصاص والطباشير والعشب ومحاولات السبورات، سواء كانت حقيقية أو تخيلية، استدعت ذكرياته القديمة في الحال. كان الفشار يغطي أسنانهم ومن أنوفهم يبدو هلام أخضر اللون يشفطونه ويبخونه على بعضهم البعض.. يا إله السماوات!

رأوا (جيم)، ووجدوه جديداً عليهم.. لم يتفوهوا بكلمة واحدة، ولكن عندما بكى (جيم) بصوت أعلى وأخذ (أندرهيل) يجره بقوة مثل كيس الأسمنت على الرصيف.. تتبعوهما الأطفال بعيونهم الفضولية اللامعة.. وشعر (أندرهيل) وكأنه يسدد قبضته إليهم ويصيح فيهم: "أيها الوحوش الصغيرة.. لن تقتربوا من ابني أبداً!"

وعندئذ حدث أمر غريب غير متوقع.. إذ نادى الصبي القابع على قمة المنحدر المعدني الأزرق، عالياً ويعيداً جداً بحيث يبدو أنه وسط الضباب.. إنه الصبي ذو الوجه المألوف له إلى حد ما.. نادى عليه وأخذ يلوح له بيديه ويقول: "مرحباً يا (شارلي)!"

تمهل (أندرهيل) قليلاً وتوقف (جيم) عن البكاء.. وسمع صوت الصبي من جديد: "أراك قيماً بعد يا (شارلي)!" وهجأة بدا له وجه

الصبي الجاثم هناك عالياً في السماء وحيداً هو وزلاجه.. بدا له كوجه
توكاس مارشال، رجل أعمال عجوز صديق له يقطن في المربع السكني
المجاور الذي لم يره منذ شهور.

أراك فيما بعد يا (شارلي).

فيما بعد؟.. فيما بعد؟.. ما الذي يقصده هذا الصبي الأحمق؟

قال الصبي: "أنا أعرفك يا (شارلي)، هاى!..

شهق (أندرهيل) وقال: "ماذا؟ ماذا تقول؟".

قال الصبي: "غداً مساءً يا (شارلي)، هاى!.. وي بعدها سقط الصبي
من على المنحدر وقبع قليلاً ليلنقط أنفاسه ووجهه شاحب كالجين الأبيض
من جراء السقوط، بينما قفز الأطفال فوقه وأوقعوه على الأرض.

وقف (أندرهيل) لا يدري ما يفعله لخمس ثوان أو أكثر.. حتى فكر
(جيم) في البكاء مرة أخرى، وعندئذ وبتأثير عيون الثعالب اللامعة المركزة
عليهم في أول برودة الخريف، جر (جيم) طوال الطريق إلى المنزل.

في عصر اليوم التالي، أنهى (أندرهيل) عمله في المكتب مبكراً،
واستقل قطار الساعة الثالثة ووصل إلى بلدة "جرين" في الثالثة وخمس
وعشرين دقيقة.. وكان أمامه وقت طويل ليتناول شرباً تحت أشعة
شمس الخريف الجميلة.. وفكر في أنه من الغريب أن يجد المرء أمامه
الخريف فجأة!.. في يوم ما يكون الوقت صيفاً، وفي اليوم التالي
يكون خريفاً، عجباً، كيف يمكن للمرء أن يقيس أو يعرف ذلك؟..

لعله شيء، يتعلق بدرجة الحرارة أو الرائحة؟.. أو لعلها آثار الزمن
أضعفت عظامك أثناء الليل وانطلقت في دماغك وفي قلبك، مما يجعلك
تشعر برعدة وقشعريرة؟.. المرء يزداد عاماً أو يموت من عمره عام..
نعم هذا هو الأمر.. أليس كذلك؟

سار حتى الملعب وهو يخطط للمستقبل.. ويبدو أن المرء يخطط في
الخريف أكثر من أي فصل آخر في العام.. ولعل ذلك يرتبط بالموت أو
نحو ذلك.. فأنت تفكر في الموت ومن ثم تخطط تلقائياً.. حسناً.. الآن
يلزم معلم خاص لـ (جيم).. وهذا شيء جيد.. بعيداً عن تلك المدارس
المرعبة التعسة.. وسوف يزيد ذلك من المصروفات قليلاً، ولكن على الأقل
(جيم) سوف يكبر كصبي سعيد.. وسوف يختار بنفسه أصدقاءه..
وسوف يتم إبعاد البلطجية والمتهورين عن (جيم) بمجرد أن يلدسوه..
ولكن ماذا بشأن الملعب؟.. هذا خارج موضوع المناقشة تماماً!

"هوه، مرحباً يا (شارلس)!"

رفع بصره إلى أعلى.. أمامه عند مدخل الملعب المحوط بالسلك
وقفت أخته.. ولاحظ على الفور أنها نادته باسم (شارلس) بدلاً من
(شارلي). إن جو ليلة أمس المبهجة لم يتبخر بعد. فقال: "(كارول)..
ماذا تفعلين هنا؟"

احمر وجهها خجلاً وكأنها تشعر بالإثم ونظرت إلى الداخل من
خلال السور. قال لها: "إنك لم..".

بحثت عيناه بين الأطفال الذين يجرون ويخربشون ويصرخون..
وقال: "هل تقصدين أن..؟"

أومأت أخته برأسها وشففتها متفرجتان بنصف ابتسامة
وقالت: "رأيت أن أحضره مبكراً.."

"طبعاً قبل أن أصل إلى المنزل بحيث لا أعرف شيئاً.. أليس كذلك؟"
بلى، الأمر كان كذلك بالفعل.

"حسناً جداً يا (كارول).. والآن أين هو؟"

"لقد جئت لتوى لكى أعرف ذلك."

"تعين أنك تركته هنا طوال فترة ما بعد الظهر؟"

"لا بل لمدة خمس ثوان ذهبت فيها للتسوق."

"أى أنك تركته هنا.. حسناً جداً."

أمسك (أندرهيل) بمعصمها وقال لها: "إذن هيا.. أحضره.."

أحضره من هناك من بين أولئك الوحوش!

حذق الاثنان من خلال السلك حيث كان عشرة من الصبية يهجمون

هنا وهناك.. والبنات يلطمن بعضهن البعض.. وكومة من الأطفال تجرى

ولا تلبث أن تعود ويصطدمون كلهم ببعضهم البعض.

وقال (أندرهيل): "إنه موجود فى هذا المكان.. أنا أعرف ذلك!"

وفى تلك اللحظة جرى (جيم) عبر الملعب وهو يبكي بشدة ووراءه ستة أطفال.. ووقع ثم نهض ووقع من جديد وصرخ.. وأطلق عليه الأطفال من وراءه وابلاً من حبات الفول من أنابيب نفخ معدنية يضعونها بين شفاههم.

قال (أندرهيل): "سوف أدخل تلك الأنابيب اللعينة فى أنوفهم!"
"اركض، اركض، اركض"

نجح (جيم) فى الجرى حتى البوابة، لكن (أندرهيل) أمسك به.. كان الأمر أشبه بالامساك بكلمة مجعدة ومبلة من مادة ملساء.. وكان أنف (جيم) ينزف، وسرواله يقطر ماء.. وكان مغطى بالأوساخ.

صاح (أندرهيل) وهو راكع على ركبتيه ويحذق أعلى من ابته ويمسكه فى حضن مع أخته: "هذا هو ملعبك.. ها هم أولاء أحيائك.. الأبرياء السعداء.. الفاشستيون^(٥) التافهون الأغنياء.. دعنى أمسك بهذا الصبى وسوف أجعله يرى الجحيم ذاته!.. تعال يا (جيم).. وصيراً جديلاً أيها الأوغاد الصغار.. ارجعوا إلى هناك!"

صاح الأطفال: "نحن لم نفعل شيئاً!"

وقال (أندرهيل) كمن يسأل العالم بأسره: "ما الذى سيصير إليه حال هذا العالم؟"

(٥) أتباع الحزب الفاشيستي الإيطالى ١٩١٩ الذى كان يتزعمه (بنيتو موسوليني) ١٨٨٢-١٩٤٥
وهى حركة سياسية ذات صبغة استبدادية متطرفة. (المترجم).

قال الولد الغريب وهو واقف إلى أحد الأجانب: "هاى!.. (شارلى)!"
ولوح له بيده فى حب وابتسم فى سعادة.

سألت (كارول): "من هذا الذى يتحدث؟"

أجابها (أندرهيل): "وكيف أعرف بحق الجحيم؟"

قال الولد بصوت يخفت تدريجياً: "سوف أراك قريباً يا (شارلى).
مع السلامة."

سار (أندرهيل) بأخته وابنه إلى المنزل.. وقالت (كارول): "أبعد يدك
عن مرفقى".

كان يرتجف بشدة، وهذا حاله دائماً عندما يخلد إلى النوم.. جسده
كله يرتعد من فرط الغضب.. حاول أن يتناول بعض القهوة، لكن لا شئ
كان سيوقف ذلك.. أراد أن يحطم أدمغة هؤلاء الأطفال الملعونين.. نعم،
هذا يناسب أولئك الثعالب الملعونة المختلفة.. الذين تنطق وجوههم الباردة
بالمكر والخداع والشر.. ومن أجل صالح كل الأطفال الدمثين الطيبين حقاً
لا يعرف أحد بالضبط طبيعة ذلك الجيل الجديد من أولئك الأطفال..

إنهم حفنة من الأوغاد الصفخابين الأفاقين العدوانيين.. جماعة من
المجرمين الأغبياء المبتزين، الذين يجرى فى عروقهم دم الإهمال
والقذارة.. تمدد وهو يرتجف بعنف ويهز رأسه من ناحية إلى أخرى من
فوق وسادته الساخنة.. وأخيراً نهض من سريره وأشعل سيجارة، لكنها
لم تكن كافية قط.

وعندما وصلوا إلى المنزل نشب شجار عنيف بينه وبين (كارول) ..
صرخ فيها وصرخت هي فيه بدورها .. كانا كطاووس وطاووسة يتعاركان
في البرية، حيث كان القانون والنظام يعتبران حماقة كبرى يسخر الناس
منهما وتقريباً طواهما النسيان!

شعر بالخجل .. فالمرء لا يصح أن يواجه العنف بالعنف .. وخصوصاً
إذا كنت سيداً مهذباً .. تحدث بهدوء شديد، ولكن (كارول) لم تعطه
فرصة قط .. اللعنة! .. أرادت هي أن تضع الصبى في منجلة وتقرمه ..
أرادت أن يعصر ويثقب ويتم ضربه ضرباً مبرحاً .. أن يرهق للغاية بدءاً
من مرحلة ألعاب الطفولة إلى الضمانة، ومن المدرسة الابتدائية إلى
المدرسة الإعدادية إلى المدرسة الثانوية.

وإذا كان محظوظاً في المدرسة الثانوية، فإن الضرب والسادية
سوف يتصاعدان، وسوف تنساب الدماء والسباب والبصاق على مدار
الستين، حتى يجد (جيم) نفسه على حافة النضج والرشد، والله وحده
يعلم ما هو المستقبل الذي ينتظره .. ولعله يتسم بالرغبة في أن يكون ذنباً
بين الذئاب .. كلباً بين الكلاب .. شيطاناً بين الشياطين .. ولكن الحقيقة أن
هناك منهم ما يكفي بالفعل.

مجرد فكرة عشر أو خمس عشرة سنة قادمة من العذاب كانت
كافية لجعل السيد (أندرهيل) ينكمش على نفسه .. شعر يلحمه عاجراً
وضعيفاً كمن يتلقى طلقة بندقية رش ويتعرض للسع والحرق واللكم
والسرقة والتواء جسمه والاعتداء عليه وإصابته بكدمات. ارتعد كقنديل

البحر وهو يلقي في خلاط أسمنت.. وقال في نفسه: "(جيم) لن يعيش بالتأكيد لو تعرض إلى ذلك كله.. ذلك أن (جيم) كان رقيقاً ولا يصمد لكل تلك الأهوال.

سار (أندرهيل) في حجرات منزله في نحو منتصف الليل الساكن وهو يفكر في كل ذلك.. وفي نفسه وفي ابنه وفي الملعب وفي الخوف.. لم يكن ثمة شيء منها لم يتطرق إليه أو يفكر فيه.. وسأل نفسه ما مقدار ما يوجد منها بمفرده؟.. وما مقدار ما يرجع إلى موت (آن)؟.. وما مقدار ما يحتاجه هو منها؟.. وما مقدار حقيقة الملعب ذاته والأطفال؟.. وما مقدار العقلاني أو المنطقي ومقدار الهراء والعبثي منها؟..

أنقص الأوزان الضئيلة الموضوعة على الميزان وراقب المؤشر وهو يتحرك ويثبت ثم يتحرك مرة أخرى إلى الأمام والخلف ببطء، بين منتصف الليل والفجر، بين السواد والبياض.. بين العقل والجنون.. يجب ألا يتشبث بقوة هكذا.. يجب أن يبعد يديه عن الصبى.. ومع ذلك لم تمر عليه ساعة واحدة لم ينظر فيها إلى وجه (جيم) الصغير إلا ورأى وجه (آن) هناك.. في عينيه، في فمه، في استدارة منخاري أنفه، في تنفسه الدافئ، في احتدام الدم المندفع في شرايينه تحت جلده الرقيق.

وقال لنفسه: "إن لدى الحق في أن أخاف.. نعم، لدى كل الحق في ذلك.. وعندما يكون لديك قطعتان خزفيتان شميتان ثم تنكسر إحداهما وتبقى الثانية، فأين يمكنك إذن أن تجد الوقت لكي تكون موضوعياً.. أن تكون هادئاً تماماً.. أن تكون أي شيء سوى أن تكون قلقاً؟.

تجول ببطء فى الصلاة وقال لنفسه: "لا.. لا يبدو أن هناك شيئاً
يمكننى أن أقعله سوى أن أخاف وأن أخاف من كونى أخاف". ونادت
عليه أخته من سريرها بعد أن سمعته يمر من بابها المفتوح: "لست
مضطراً إلى أن تطوف خلصة فى المنزل ليلاً هكذا.. لست مضطراً إلى
هذا السلوك الطفولى.. وأنا أسفة لأننى أبى باردة أو ديكتاتورة.. ولكنك
يجب أن تحزم أمرك.. وبإختصار فإن (جيم) لا يمكنه الحصول على
مدرس خصوصى.. وأن يذهب إلى مدرسة نظامية كما تريد.. ولذلك فإنه
سوف يعود إلى ذلك الملعب غداً ويستمر فى الذهاب إلى هناك حتى
يتعلم كيف يقف على قدميه وحتى يآلف جميع الأطفال ويتكيف معهم،
وعندئذ إن يضايقه بدرجة تذكر".

لم يقل (أندرهيل) شيئاً.. وارتدى ملابسه بهدوء فى الظلام.. ثم
هبط إلى الطابق السفلى وفتح الباب الأمامى.. كانت الساعة منتصف
الليل إلا خمس دقائق عندما انسل بخفة ليتمشى بامتداد الشارع وسط
ظلال أشجار الدردار والبوط والقيقب الباسقة، محاولاً أن يطفى ويهدئ
من غضبه وهياجه.

بالطبع كان يعرف أن (كارول) على صواب، ولكن هذا هو العالم
الذى نعيش فيه ونتقبله.. غير أن هذه هى المشكلة الكبرى.. كان وقتئذ
قد مر بجوار الطاحونة، وكان يعرف معنى أن تكون حملاً وسط الأسود،
وفى الساعات القليلة الماضية تداعت إلى ذاكرته بسرعة كل أحداث
طفولته.. كانت أياماً من الرعب والعنف.. والآن لم يعد بمقدوره أن

يتحمل التفكير فى أن (جيم) سوف يمر بذلك كله.. كل تلك السنوات الطويلة، وخصوصاً إذا كنت طفلاً رقيقاً.. وبدون أى خطأ منك تجد عظامك رفيعة ووجهك شاحباً.. فما الذى تتوقعه سوى أن يطارذك الآخرون ويضايقوك ويعتدوا عليك؟

وقف عند الملعب الذى كان لا يزال مضاًءً بلمبة علوية كبيرة واحدة.. وكانت البوابة مقفلة طوال الليل، ولكن فى تلك الليلة ظلت مفتوحة حتى الثانية عشرة ليلاً، وأراد أن يحطم هذا المكان الحقيقى ويحطم الأسوار الحديدية ويزيل كل ما يقابله ثم يقول للأطفال: "هيا اذهبوا إلى منازلكم!.. العبوا فى أفنية منازلكم".

يا له من ملعب كبير وكثير وثافه.. إنك لن تعرف أبداً أين يعيش كل واحد من الصبية.. مثلاً الولد الذى أطاح بإحدى أسنانك، ترى من كان هو؟.. لا أحد يعرف.. أين كان يعيش؟.. لا أحد يعرف.. كيف يمكنك أن تعثر عليه؟.. لا أحد يعرف.. يا للهول!.. فأنت يمكنك أن تأتى يوماً ما إلى هنا وتضرب طفلاً أصغر منك ضرباً مبرحاً ثم تجرى فى اليوم التالى إلى ملعب آخر لتعاود الكرة.. ولن يستطيع أحد أن يعثر عليك.

ومن ملعب إلى ملعب يمكنك أن تنفذ مخططاتك الإجرامية.. ودائماً ينساك كل الناس، لأنهم لن يتمكنوا من معرفتك أبداً.. وبالطبع يمكنك العودة إلى نفس الملعب بعد شهر، وإذا لاحظت أن الطفل الصغير الذى أطحت بسننه من قبل موجود وتعرف عليك، فبوسعك أن تقول: "لا، لست أنا!.. لا بد أنه طفل آخر.. هذا أول يوم لى هنا!.. نعم، لست أنا بالتأكيد!..

وبمجرد أن يوليك هذا الطفل ظهره، تقوم بإيقاعه أرضاً.. ثم تجرى فى شوارع لا تعرف أسماءها كائى طفل مجهول أو منتشر.

وتساءل (أندرهيل): "ما الذى يمكننى عمله؟.. لقد كانت (كارول) أكثر من كريهة بوقتها معنا.. ولا شك أنها كانت جيدة مع (جيم).. وكثيراً من الحب الذى وضعته فى الزواج ذهب إليه هو فى هذا العام.. ولا يمكننى أن أنتساجر معها إلى الأبد فى هذا الموضوع.. وفى نفس الوقت لا أستطيع أن أقول لها أن تغادر المنزل.. ربما كان الانتقال إلى الريف سوف يساعدنا.. لا، لا، مستحيل.. المال!.. ولكننى لن أستطيع ترك (جيم) هنا أيضاً..

سمع صوتاً هادئاً يناديه: "مرحباً يا (شارلى)".. جفل (أندرهيل).. فقد رأى داخل سور الملعب طفلاً هادئاً جالساً فى التراب ويرسم بإصبعه أشكالا فى التراب البارد، وكان هذا الطفل فى التاسعة من عمره.. لم يحرك الطفل ناظره، وقال: "مرحباً يا (شارلى)".. واستمر جالساً هناك فى هدوء فى هذا العالم الغريب القابع خلف تلك الأسوار الفولاذية القوية الكثيفة.

قال (أندرهيل): "كيف عرفت اسمى؟"

وضع الطفل ساقاً فوق الأخرى حتى ارتاح وابتسم فى هدوء قائلاً: "أنا أعرفه.. المهم أنك سوف تواجه الكثير من المتاعب.. ولكن كيف دخلت إلى هنا متأخراً هكذا؟.. من أنت؟"

اسمى (مارشال)؟

بالطبع!.. أنت (تومى) ابن (توم مارشال)!.. إن شكلك مألوف
لدى بالفعل.

ضحك الولد برقة وقال: "إننى مألوف لك أكثر مما تعتقد".

ولكن كيف حال أبوي (تومى)؟

سأله الطفل: وهل رأيته مؤخراً؟

رأيته فى الشارع منذ شهرين لفترة قصيرة جداً.

وكيف كان شكله؟.. فقال (أندرهيل) متعجباً: "ماذا؟".

سأله الطفل: كيف بدا لك السيد (مارشال)؟.. وكان من الغريب أنه

لم يقل "أبى".. فقال (أندرهيل): "بدا لى فى خير حال.. لكن لماذا
تسأل؟".

قال الصبى: "أعتقد أنه سعيد".. ورأى السيد (أندرهيل)

ذراعى وساقى الصبى وكانت كلها مغطاة بقشور لجراح التأم حديثاً
وخدوش كثيرة.

"ألست ذاهباً إلى المنزل يا (تومى)؟".

"لقد تسلفت خارجاً لأراك.. لقد عرفت أنك ستأتى.. أنت خائف،

أليس كذلك؟".

لم يدر السيد (أندرهيل) ماذا يقول.. وأخيراً أجاب: هؤلاء الوحوش الصغار.

رسم الطفل مثلثاً في التراب وقال: "ربما يمكنني أن أساعدك".

كان ذلك غريباً حقاً.. فقال (أندرهيل): "ولكن كيف؟".

"إنك مستعد لدفع الكثير مقابل أن تنقذ (جيم) من أن يمر بكل ذلك، أليس كذلك؟.. بل إنك تريد أن تحل محله إذا أمكنك، أليس كذلك؟".

أوما السيد (أندرهيل) برأسه وهو متجمد في مكانه من هول المفاجأة.

"حسناً.. إذن تعال هنا غداً في الساعة الرابعة بعد الظهر، وعندها سوف أساعدك".

"ماذا تقصد بقولك أساعدك؟".

قال الصبي: "لا أستطيع أن أقول لك شيئاً الآن.. الموضوع له علاقة بالملعب.. إنه مثله مثل أى مكان يحدث فيه الكثير من الأذى والشور.. وتستطيع أن تحس بها.. أليس كذلك؟".

انطلقت ريح دافئة في أرجاء الملعب الخالي تحت النور العالي الوحيد.. وارتعد جسد (أندرهيل).. فقد بدا له حتى وقت منتصف الليل هذا مشئوماً لأنه تحدث فيه شور كثيرة.. وبعد هنيهة قال: "هل كل الملاعب مثل هذا الملعب؟".

بعضها.. ولعل هذا هو الوحيد الذى يبدو هكذا.. ولعل الأمر هو كيف تنتظر إليه يا (شارلى).. فالأشياء تبدو لك عادة كما تريد أن تكون عليه.. كثير من الناس يعتقدون أن هذا ملعب لا بأس به، وهم على صواب أيضاً.. فربما هم يرونه أو يريدونه هكذا.. ما أردت أن أقول لك هو أن (توم مارشال) كان مثلك.. فقد كان قلقاً على (تومى مارشال) والملاعب والأطفال أيضاً.. كما أنه كان يريد أن يجنب (تومى) المتاعب والأذى.

غير أن التحدث عن الناس كما لو كانوا بعيدين جداً جعل السيد (أندرهيل) قلقاً وغير متاح.. وهنا أردف الصبى: "إذن لقد اتفقنا".
"اتفقنا على ماذا؟"

"على الملعب، كما أظن، أو على من يديره".
"ومن الذى يديره؟"

"أنا لم أره قط، هو يعمل فى المكتب هناك تحت المدرج المسقوف.. وهناك نور مضاء فيه طول الليل.. وهو ضوء أزرق ساطع مضحك.. ويوجد بداخله مكتب لا توجد عليه أوراق وكرسى خال دائماً.. وتقول لافتته (المدير) ولكن لم يره أحد قط حتى الآن.."
"لا بد أنه فى الجوار هنا أو هناك".

"هذا صحيح.. وإلا لما كنت هنا الآن ولما كان هناك شخص آخر مكانهم".

إنك تتحدث بالضبط كرجل ناضج يا بنى.

سر الصبى من قوله هذا وقال: "هل تريد أن تعرف من أكون حقيقة؟.. أنا لست (تومى مارشال) بالمرة.. أنا (توم مارشال) الأب".

وقف الصبى وسط التراب ساكناً لا يتحرك فى ذلك الوقت المتأخر من الليل وتحت النور العالى البعيد، والرياح المتأخرة ليلاً تهب على ياقة قميصه وترفعها برقعة تحت ذقنه وتثير الغبار البارد من حوله.. وأردف: نعم، أنا (توم مارشال) الأب.. أعرف أنه من الصعب عليك تصديق ذلك.. ولكنها الحقيقة.. لقد كنت خائفاً على (تومى).. كنت مثلك الآن، فى خوفك على (جيم).. لذا عقدت اتفاقاً مع هذا الملعب.. والواقع أن الكثيرين فعلوا مثل ذلك هنا.. وإذا دققت جيداً، فسوف تجدهم بين الأطفال الآخرين.. وستعرفهم من التعبيرات التى تنطق بها عيونهم!.

أغلق (أندرهيل) عينيه، ثم فتحهما وقال: الأفضل يا بنى أن تأوى الآن إلى فراشك.

أنت تريد أن تصدقنى وتريد أن يكون ذلك حقيقياً، أليس كذلك؟.. لقد رأيت عينيك تقولان ذلك لتوهما.. إذا أمكنك أن تتبادل مكانك مع (جيم)، فسوف تتحقق من صدق ما أقوله.. فأنت تريد أن تنقذه من كل ذلك العذاب، إذن اجعله يأخذ مكانك كشخص بالغ.. ووقتها تحقق كل ما تريد.

"بالطبع فإن أى أب رقيق الإحساس سوف يتعاطف مع أطفاله.

وأنت بالذات أكثر منهم كلهم.. فأنت تحس بكل ضريبة أو لسعة أو
ركلة.. حسناً جداً.. كل المطلوب منك أن تحضر هنا غداً.. وسوف تبرم
اتفاقاً أيضاً مثلي.

تتبادل أماكننا؟.. كانت فكرة مثيرة ولكن غريبة ومقنعة جداً..
وأردف: "ما الذي ينبغي لي عمله؟".

فقط عليك أن تقرر وتحزم أمرك.

حاول (أندرهيل) جعل سؤاله التالي يبدو عرضياً أو كنكته، بيد أن
عقله كان مهتماً مرة أخرى.. وقال: "وماذا سوف أدفع لك؟".

"لا شيء... سوف تلعب فقط في الملعب".

"طوال النهار؟".

"نعم، وبالطبع تذهب إلى المدرسة".

"وأكبر مرة أخرى".

"نعم.. سوف تكبر مرة أخرى.. ولا تنس أن تكون هنا غداً".

في الرابعة بعد الظهر.

لكنني مضطر إلى العمل بالمدينة غداً.. فقال الصبي: "غداً؟".

"الأفضل أن تنوى الآن إلى فراشك يا (تومي)".

أسمى (توم مارشال).. ثم جلس الصبي في هيو.. وانطلقت

أنوار الملعب.

لم يتحدث (أندرهيل) وأخته عند تناول إفطارهما.. وكان يكلمها عادة بالهاتف ظهراً ليثرثر معها فى هذا الموضوع أو ذاك.. لكنه لم يتصل بها فى هذا اليوم.. ولكن فى الساعة الواحدة والنصف، بعد أن تناول غداء سيئاً، اتصل بالمنزل.. وعندما أجابت (كارول) على الهاتف، وضع السماعة، وبعد خمس دقائق اتصل بها من جديد.

"(شارلى)، هل أنت الذى اتصلت منذ خمس دقائق؟"

"نعم يا عزيزتى.. فحاولت أن تبسو عقلائية مرة أخرى وقالت: "لقد اعتقدت أنني سمعتك تتنفس قبل أن تضع السماعة.. لماذا اتصلت بى يا عزيزى؟"

"لا شيء بالتحديد.. فقط أردت أن أتصل بك."

"لقد مر بنا يومان سيئان.. أليس كذلك؟.. بالطبع أنت تفهم ما أعنيه.. أليس كذلك يا (شارلى)؟.. (جيم) يجب أن يذهب إلى الملعب ويتلقى بعض الضربات."

"إذا كانت بضع ضربات فقط فلا بأس."

فى تلك اللحظة رأى الدم يسيل من الأرانب الممزقة وأمامها الذئاب الجائعة.. وكانت أخته مازالت تتكلم وتقول: "ويتعلم كيف يأخذ ويعطى، ويقاقل إذا اضطر إلى ذلك."

غمغم قائلاً: "يقاقل إذا اضطر إلى ذلك نعم أتوقع ذلك."

"كنت أعرف أنك سوف تغير رأيك وتتقبل الموقف"

أقبل الموقف.. أنت على حق.. لا توجد طريقة أخرى.. يجب أن أضحي به..

أوه.. (شارلى).. لقد أصبحت عجوزاً وبدأت تهذى..

تتحنج وقال بشكل قاطع: لقد انتهى الأمر وهذا قرارى..
فقال: نعم..

فكر فى نفسه قائلاً: ترى كيف سوف تسير الأمور؟ ورد على الهاتف: كل شيء على ما يرام..

وفكر فى الرسومات المتسخة بالأتربة، والصبي الجالس هناك
بعضام وجهه المخفية.. وقالت: نعم.. فقال: لقد كنت أفكر.. فقالت:
تكلم بصراحة.. فقال ببطء وهو ينطق الكلمات واحدة واحدة لشخص
ضرب فى معدته ويشهق لكى يتنفس.. وقال وعيناه مقفلتان: سوف
أتمشى أنا وأنت و(جيم).. قالت: رائع.. فقال: إلى الملعب بالطبع..
ثم أغلق السماعة.

كان الوقت حينذاك خريفاً، حيث تسرى فى جسدك قشعريرة من
البرد.. لذعة البرد.. وطوال الليل احمرت الأشجار وطقطقت وهى
تتخلص من أوراقها التى تتناثرت لولبياً حول وجه (أندرهيل) وهو يخطو
على الدرجات الأمامية.. وأمامه (كارول) و(جيم) متدثرين بملابس ثقيلة
لمواجهة الرياح وكانا فى انتظاره.

صاح كلاهما فى الآخر: "أهلاً"، وأكثرنا من حضن وتقبيل بعضهما البعض.. "ها هو ذا (جيم) هناك!".. "ها هو ذا أبى!".. وضحكا وشعر هو بالشلل خوفاً من هذا الوقت المتأخر من اليوم.. كانت الساعة الرابعة تقريباً.. ونظر إلى السماء الكئيبة التى توشك على إنزال المطر فى أى وقت.. سماء من الحمم والسناج ورياح رطبة تهب عليهم.. أمسك ذراع أخته بقوة وهم يسيرون وقالت وهى تبتسم: "لعلك مرتاح الآن؟".

قال وهو يفكر فى شىء آخر: "إن هذا شىء عجيب حقاً".. فقالت: "ماذا؟".

كانا قد وصلا إلى بوابة الملعب وسمع صوتاً يقول: "مرحباً يا (شارلى)".. ورأى بعيداً على قمة المنحدر الوعر الصبى (مارشال) واقفاً يلوح بيده بدون أن يبتسم.. وقال (أندرهيل) لأخته: "انتظرى أنت هنا.. سوف أتغيب للحظة وسأخذ (جيم) معى". فقالت: "لا بأس".

أمسك يد الصبى الصغير بقوة وقال له: "هيا بنا يا (جيم).. ابقى ملاصقاً ليأباً".

وسارا على الدرجات الخرسانية ووقفا وسط التراب الشديد.. وأمامها انتصب الرسم فى تتابع سحرى.. ألعاب المربعات المعلمة والمثلثات المرسومة على الأرض هائلة الحجم.. أرقام ومثلثات ومستطيلات مذهشة خططها الأطفال فى الأتربة الهائلة هناك.

أطلقت السماء رياحاً جبارة عليهم وكان يرتعد، قبض بقوة على يد الطفل الصغير أكثر من ذي قبل والتفت إلى أخته وقال: "مع السلامة.." وكان مقتنعاً بذلك.. كان الآن داخل الملعب ويعرف ذلك، وكان ذلك الأفضل.. لكن لا شيء جيداً بالنسبة إلى (جيم).. لا شيء أبداً في هذا العالم الفظيع!.. وكانت أخته تضحك من خلقه عليه وتقول: "(شارلي)، أيها الأحمق".

أخذا يركضان عبر أرضية الملعب المترية.. أسفل البحر الصخري الذي يحدق بهما ويهب منه الريح عليهما.. وبدأ (جيم) يبكي ويقول: "أبي!.. أبي!.. والأولاد يتسابقون للوصول إليه.. والصبي الواقف على المنحدر يصيح.. ولعبات المربعات والأصفار والحجلة تنور بسرعة.. وأحدق بهما نوع من الرعب غير ملموس، لكنه كان يعرف ما ينبغي له عمله وما الذي سوف يحدث..

ومن الجهة المقابلة من ملاعب كرة القدم اندفعت الكرات وأزت كرات البيسبول وطارت مضارب البيسبول.. ولعت قبضات الأيدي.. وظل باب مكتب المدير مفتوحاً ومكتبه الذي يكتب عليه (خال) ومقعده خال ولبة واحدة مضيئة فوقه.

تعثر (أندرهيل) وأقفل عينيه وسقط أرضاً وهو يصرخ.. وأحس بالغم شديد في جسمه وفاه بكلمات غريبة ودخل في معاناة مرة.. وسمع صوت ما: "ها أنت يا (جيم).." ووجد نفسه يصعد ويصعد وعيناه مقفلتان وهوى صعد على درجات سلم معدني ويصرخ ويصيح.

فتح السيد (أندرهيل) عينيه.. وكان واقفاً على قمة المنحدر.. إنه المنحدر المعدنى الأزرق الذى بدأ ارتفاعه حوالى عشرة آلاف قدم.. واندفع الأطفال مصطدمين بظهره.. دفعه الأطفال لكى يتحرك وينزلق إلى أسفل.

نظر أمامه إلى الجانب المقابل من الملعب ورأى رجلاً يرتدى معطفاً أسود.. وهناك عند البوابة امرأة تلوح وبجانبيها رجل واقف، وكلاهما ينظر إليه ويلوح له ويناديان عليه قائلين: "استمتع بوقتك.. استمتع بوقتك يا (جيم)!"

صرخ ونظر إلى يديه وهو يخشى أن يدرك الحقيقة.. يدان صغيرتان ورقبعتان.. ونظر إلى الأرض من تحته.. وشعر بأن أنفه يتزف وفجأة وجد الصبى (مارشال) بجواره. صاح الآخر: "أهلاً.. وضربه بقوة فى فمه وصرخ الآخر بصوت مدو: "فقط ١٢ عاماً هنا".

فكر السيد (أندرهيل) بسرعة وهو محاصر: "١٢ عاماً.. إن الوقت يكون مختلفاً بالنسبة إلى الأطفال.. فالعام مثل ١٠ أعوام.. ليس ١٢ عاماً من الطفولة أمامه، ولكن قرن من الزمان!.. وسمع: "انزلق!.. وكان خلفه الروائح النتنة النفاذة والقول السودانى والزفت الساخن الطرى وعلكة النعناع والحبر الأزرق للقلم الجاف ورائحة خيط القنب الذى تشد به الطائرة الورقية وصابون الجلوسين ورائحة القرع العسلى المستخدم فى عيد جميع القديسين وأريج الورق المقوى الذى تصنع منه أقنعة الأوجه، ورائحة المرضى بالجرب، وهو يتعرض للقرص واللكم والدفع.

ارتفعت وانخفضت قبضات الأيدي، ورأى وجوه الثعالب وما وراءها
عند السور.. حيث يقف الرجل والمرأة هناك يلوحان.. صرخ وغطى وجهه
وشعر بشيء يدفعه وبأنه ينزف حتى كاد يفقد الوعي.. مال إلى أسفل
والى الأمام ورأسه أمامه وبدأ ينزلق وهو يصرخ من الألم وخلفه عشرة
آلاف من الوحوش.. وخطرت على ذهنه فكرة عجيبة بلحظة واحدة قبل
أن يصطدم بالقاع وسط كومة من المخالب والبراشن القميئة.

وقال فى نفسه: "هذه هى الجحيم.. هذه هى الجحيم!"
ولم يكذبه أحد فى الكومة الساخنة الطاحنة.

المؤلف فى سطور :

راى برادبورى

- ولد فى ٢٢ أغسطس عام ١٩٢٠ فى مدينة (ووكيجان) بولاية (الينوى) الأمريكية.

- وتخرج فى المدرسة الثانوية عام ١٩٤١، وبدأ عمله بائع صحف.

- فى عام ١٩٤١، باع (برادبورى) أول قصصه القصيرة إلى دار نشر اسمها "قصص رائعة من الخيال العلمى"، وعندئذ تفرغ تماماً للكتابة.

- فى عام ١٩٤٧، طبع أول مجموعة قصصية له فى كتاب تحت اسم "الكرنفال الرهيب". ومنذ ذلك الوقت بدأت بعض كتبه تحصد جوائز.

- ظهرت قصته الشهيرة "٤٥١ فهرنهايت" التى تحولت فيما بعد إلى فيلم سينمائى لاقى نجاحاً مذهلاً. وسرعان ما بدأ يكتب للراديو والتلفاز.

- وفى عام ١٩٥٧، تم طبع قصته "نبذ الهندباء البرية" المستقاة من طفولته بولاية (ألينوى)، كما كتب سيناريو الفيلم السينمائى (موبى ديك).

- فى عام ١٩٦٨، تم اختياره مؤلفاً يصلح للقراءة فى المدارس والكليات، أى أنه أصبح واحداً من الكتاب الذين جعلوا الخيال العلمى مجالاً محترماً.

- تتميز أعمال (برادبورى) بالتنوع الكبير، وعموماً هو يكتب قصصاً قصيرة من نوعيات كثيرة متباينة: قصص الحياة العادية - قصص الاضطرابات النفسية العميقة والمروعة - قصص الأطفال - قصص رحلات الفضاء التى تتميز بالرعب والمرح والخيال - قصص الغموض والأسرار - قصص الفانتازيا والخيال العلمى

- أسلوب (برادبورى) يماثل أسلوب الشعر، فهو دائماً واضح ومبدع، كما أنه دقيق للغاية فى اختيار أسلوبه وصوره، وهو أسلوب يزخر بالكثير من الأحداث المثيرة،

ويتسم بالبلاغة والتنميق وينمط قصصي وأفكار متفردة
خاصة به فقط.

- توفي راي برادبوري في ٥ يونيو ٢٠١٢ عن عمر يناهز الواحد
والسعين عاماً.

المترجم في سطور :

رؤوف وصفى صبحي

- ولد في القاهرة.

- عمل بالتدريس بجامعة مصر والعراق والكويت.

- نال جائزة تبسيط العلوم - أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا

وجائزة الثقافة العلمية - أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا.

- عضو اتحاد الكتاب.

- ترجم العديد من الكتب العلمية وفي مجال الخيال العلمي منها:

"الروبوت" و"الحاسب الآلي" و"كوكب الأرض" و"مذنب هالي"

و"مؤسسة الكويت للتقدم العلمي" - ومسرحيات من الخيال العلمي

(وزارة الإعلام - الكويت).

- وقام بترجمة ثلاث رؤى للمستقبل و"حرب العوالم" (طبعتان)

و"الرجل الخفي" و"بشر كالأرياب" و"القصص الكاملة

لهجرو ويلز" (أربعة أجزاء) للمركز القومي للترجمة.

كذلك ترجم مقالات علمية بمجلة الثقافة العالمية.

- شارك في العديد من الندوات منها "ندوة الخيال العلمي"،
وقام بإعداد البرنامج التلفازي "سؤال وجواب" وتقديمه بـتلفزيون
الكويت. ومسلسل "الخيال العلمي" (إذاعة الكويت).

- نشرت مقالاته وقصصه في عدد كبير من الصحف والمجلات
العربية، منها: جريدة الأهرام وجريدة الأخبار ومجلة العلم
(مصر) ومجلة العربي الكويتية والعربي العلمي، ومجلة التقدم
العلمي (مؤسسة الكويت للتقدم العلمي)، ومجلة دبي الثقافية
(الإمارات).

- أحد رواد أدب الخيال العلمي والثقافة العلمية بالوطن العربي.
- المنسق العام لرابطة كتاب الخيال العلمي العرب.
- حاصل على شهادة تقدير وميدالية من نقابة العلماء.
- محاضر بالدورات التدريبية لإعداد المترجمين -
المركز القومي للترجمة.
- نال جائزة مؤسسة هانز زايدل الألمانية.
- ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الإيطالية.



تتميز أعمال "راى برادبوري" وقصصه بالتنوع الكبير، وعموماً فهو يكتب قصصاً قصيرة من نوعيات كثيرة متباينة: قصص الحياة العادية - قصص الاضطرابات النفسية العميقة والمروعة - قصص الأطفال - قصص رحلات الفضاء التى تتميز بالرعب والمرح أو الخيال - قصص الغموض والأسرار التى تتطوى على توجيه أخلاقي أو شرح موضوعات غيبية أو خارقة.

أما عن الخيال العلمى، فلا شك أن حماس "برادبوري" له، يغزو عالم المستقبل ذاته، فهو يشعر بأنه مطالب بتحذير الناس من أية كوارث محتملة، وبث الرغبة فى تحقيق المجد والفخر، مادام ذلك فى الإمكان. وأسلوب "برادبوري" يعاثل أسلوب الشعر، ويتسم بالدقة فى اختيار أسلوبه وصوره؛ إذ يتسم بالبلاغة والتعميق وينمط قصصى، وبأفكار متفردة خاصة به فقط.